الإصلاح التربوي المعاصر
في
تفسير ابن عاشور
" التحرير والتنوير "

إعداد

محمد حامد محمد عماره

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٣٧٩.١٥
ع . م
ماره ، محمد حامد محمد .
الإصلاح التربوي المعاصر في تفسير ابن عاشور "التحرير والتنوير" / محمد حامد محمد عماره.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع .
٣٢٤ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
تدمك : ٩٧٨ – ٩٧٧ – ٣٠٨ – ٦٨٠ - ٠
١. الاصلاح التعليمي.
أ - العنوان .

رقم الإيداع: ٥٢٠٦.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

إهـــــــداء

إلى روح أستاذنا الأستاذ الدكتور / سعيد إبراهيم طعيمة - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- وجعل مثواه الجنة.

إلى روح والدي الطاهرة –رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجعل مثواه الجنة– الذي طالما كان يأمل وهو على قيد الحياة أن أكون حافظا كتاب الله تعالى، قائما بدوري الإيجابي في الحياة، فأرجو أن أكون قد حققت ما كان يأمله أبي – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – لي .

إلى والدتي الفاضلة الطيبة الأصل والقلب التي غمرتني بعطفها وحنانها في كل مراحل حياتي، والتي طالما كانت تأمل هي الأخرى بما يأمل به والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

إلى زوجتي رفيقة الدرب، أم أولادي : أحمد، وآية، وأماني، الذين تحملوا معي مشقة هذا العمل .

إلى أخويّ أحمد وجمعه، وإلى أختي ..

إلى كل الأهل والأصدقاء الذين ساعدوني في إتمام هذا العمل بالنصح والإرشاد..

فهرس المحتويات

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله – ﷺ – الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وبعثه معلما ليتمم مكارم الأخلاق، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

لقد أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لدعوة البشرية إلى عبادته وحده، ولإقامة حياتهم على النظام الحق والسلوك السوي، والتربية الإسلامية منذ بدأ ظهورها قامت على القرآن الكريم والسنة النبوية التي تعد مكملة للكتاب ونبراسا يهتدي به المسلمون في سلوكهم، فلا غرابة أن يمتاز الإسلام بضرب خاص من التربية تختلف في أهدافها ووسائلها عن ألوان التربية التي سادت حضارات شتى على مر الزمان، واعتمدت على دعائم مغايرة لتعاليم الإسلام(1).

إن المجتمع الإسلامي يقوم على منهج الله - y - الذي يعنى بالفرد والمجتمع في آن واحد، فيأخذ بيد الفرد منذ ميلاده ، وينظم علاقته بربه وأسرته والمجتمع حوله، ويأخذ بيد المجتمع وينظم شئونه، فالتربية فيه ربانية الغاية محددة الأهداف والوسائل، تحرص على إيجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح، على عكس المجتمع الرأسمالي الذي يعتني بالفرد وحريته، والمجتمع الشيوعي الذي يحارب الفردية، ويعتمد على النزعة الجماعية (2).

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني : **التربية في الإسلام**، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩م ، ص : ٨

(٢) حسن بن علي الحجاجي : **الفكر التربوي عند ابن القيم**، ط١ ، دار حافظ للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٨٨م ، ص: ٢٠ – ٢١ .

إن النظام الإسلامي تلتقي فيه الفردية والاجتماعية في صورة متزنة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة المجتمع، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات (١)، ويرى الشيخ ابن عاشور أن المجتمع البشري أو الأمة عبارة عن مجموعة من الناس هي كل ملتئم من أجزاء هي الأفراد، فلا جرم كان إصلاح المجتمع متوقفا بادئ الأمر على إصلاح الأفراد، فإذا صلحت حصل من مجموعتها الصالحة مجتمع يسوده الإصلاح (٢).

إن رسول الله – ﷺ – وهو المربي الأول بتوجيه من ربه استطاع أن يربي أصحابه تربية إسلامية شاملة ذات نظرة متكاملة للإنسان والكون والحياة، واستوعب أصحابه – رضوان الله عليهم – هذا المفهوم، فكانت تربيتهم أنموذجا حيا في العقيدة والسلوك والتطبيق العملي .

ولقد أدرك مفكرو الإسلام وعلماؤه أهمية التربية في بناء الأمم وبعث الحياة فيها ونموها وتغييرها نحو الأفضل، فالتربية تغيير لما بالأنفس هدفه تغيير حال الأمة إلى الصلاح، فإذا أهملت ساءت حالة الأمة، وأدى ذلك إلى تخلفها وضياعها ثم فنائها، ولإدراكهم هذه الحقيقة لم تخل مؤلفاتهم باختلاف ميادينها وتخصصاتها من المفاهيم والأفكار التربوية الإسلامية التي بنوا على أساسها

---

(١) بلقاسم الغالي : **من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور، حياته وآثاره** ، ط١ ، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٩٩٦م ، ص : ١٦٤

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، ط٢، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٨٥م ، ص : ٤٣

أفكارهم وأسلوبهم في التأليف والتعليم والممارسة التربوية التي كانوا يقومون بها[1].

إننا نصل إلى حقيقة مؤداها أن المسلمين قد وضعوا القواعد والأسس التربوية على ضوء المنهج الإسلامي، ولكن الذي حجب ذلك عن أعين الناس برهة من الزمن هو بريق التقدم والتطور الصناعي في العالم الغربي،وتوقف حركة البحث العلمي في الجوانب التربوية خاصة، وفي الجوانب التقنية والفنية عامة، مما يجعل الغرب يستحوذ على هذا المضمار، فتقدم صناعيا وزراعيا وطبيا وهندسيا وتوسعت القاعدة الثقافية بين أفراده، وهذا حدا بالبعض إلى الاتجاه صوب العلوم الغربية في الكثير من المجالات، ولما حصلت الصحوة الإسلامية المباركة التي نعيشها اليوم عاد المهتمون بالتربية إلى المصادر الإسلامية التي أثبتت عبر القرون أنه ما انتصر المسلمون ولا سادوا العالم إلا بالتربية القائمة على منهج الإسلام وتعاليمه، وما غابت أو ضعفت هذه التربية في حقبة من الحقبات التاريخية الماضية إلا وانحط المسلمون وعلا شأن غيرهم عليهم[2].

فإذا أردنا للتربية الحديثة ثمارا طيبة، وكانت إرادتنا صادقة مخلصة، فعلينا أن نبني هذه التربية على منهج الإسلام الواضح : كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، عندئذ تتضح غاية هذه التربية وأهدافها ووسائلها[3].

---

(١) علي حسين فهد : **المفاهيم التربوية عند الإمام فخر الدين الرازي من خلال كتابه التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب** ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة، كلية التربية ، ١٤١٢هـ ، ص : ٣

(٢) خالد بن حامد الحازمي : **أصول التربية الإسلامية** ، ط١ ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر ، الرياض ، ٢٠٠٠م ، ص : ١٠-١١

(٣) حسن بن علي الحجاجي : مرجع سابق ، ص: ٢٥

إن الفكر التربوي الإسلامي لعلماء الأمة من خلال كتاباتهم يتميز بأصالته وقدرته على تفسير الظواهر التربوية والعلاقات الإنسانية، كما يهدف إلى المحافظة على التراث الإسلامي الروحي وتدعيم مبادئ المجتمع وأهدافه، كما يتميز بقدرته على التجديد واستيعاب مطالب العصر، فما الفكر التربوي الإسلامي إلا نتاج حضارة عريقة امتدت على مدار أربعة عشر قرنا من الزمان، وقد استمد قوته من الدين، واستطاع أن ينتج الإنسان الصالح القادر على التكيف مع واقعه [1].

ولهذا فإن الفكر التربوي الإسلامي يمثل الإطار النظري والفكري لما يحتاجه المجتمع في بناء أنظمته التربوية، وأبجديات العملية التعليمية، ووضع أسسها وقواعدها وميادينها، وبحث طبيعة العلاقة بين العالم والمتعلم؛ وذلك بغية الوصول إلى مستوى حضاري راق، وتحقيق حضارة مزدهرة[2].

ولكن هذا الفكر التربوي الإسلامي لمفكري وعلماء الأمة ما زال متفرقا في ثنايا كتبهم، ويحتاج إلى الدراسة والتحليل وصياغته بأسلوب مناسب يجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ ليزود الأجيال المسلمة بالأفكار التربوية اللازمة لبناء نظم تتفق وروح الإسلام، فدراسة الفكر التربوي الإسلامي لمفكري وعلماء الإسلام في أي مرحلة من مراحل التاريخ تمكن الدراسين من الوقوف على أفضل

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني : **تطور مفهوم النظرية التربوية** ، ط١ ، دار ابن كثير، دمشق ، ١٤٠٥هـ ، ص : ٢٦٥

(٢) إياد محمد صالح الشامي : **الشيخ الألباني منهجه وآراؤه في معالجة بعض المشكلات التربوية المعاصرة** ، رسالة ماجستير ، ١٤٢٦هـ ، الجامعة الإسلامية ، غزة ، عمادة الدراسات العليا ، كلية التربية ، ص: ٢ .

الأساليب التربوية وأنفعها ؛ لإعادة صياغة فكر الإنسان المسلم في ضوء التغيرات المختلفة بدلا من الوقوف عاجزا عن التفاعل مع ما يجري حوله من أحداث .

ولا تزال الأمة بخير إذا كان الخلف فيها يدرسون سيرة السلف، ويترسمون خطاهم، ويشعرون بتقدير العلماء ومنزلتهم، ويثقون بهم ثقة تدفعهم إلى الاستفادة من علمهم وفكرهم والأخذ بنصحهم، ومتى فقدت الأجيال اللاحقة الثقة بهؤلاء العلماء تخبطت الأمة وتاهت في دياجير الضلال والعمى، وللتربية الإسلامية أعلامها ورجالها الذين سطر التاريخ سيرتهم بأحرف من نور، ونحن بحاجة إلى معرفة هذة السيرة، فكل علم من أعلام هذه التربية يعتبر نموذجا فذا، فدراسة سيرته وفكره التربوي ضرورة ملحة حتى نعرف مساهمة كل علم من هؤلاء الأعلام [1] .

وهذا لا يعني الوقوف بالتربية الإسلامية عند الماضي، بل ينبغي أن تكون التربية الإسلامية معاصرة، بأن تعتمد على المصادر الإسلامية الأصلية، إضافة إلى دارسة الواقع التربوي المعاصر ومعالجته، دراسة فكر علماء الأمة المعاصرين، ودراسة الفكر التربوي العالمي .

لذا فقد حرص بعض الباحثين في مجال التربية الإسلامية على دراسة الآراء والمفاهيم والنظريات التربوية عند الكثير من أعلام الفكر الإسلامي القدامى منهم والمعاصرين، سواء كانوا فقهاء أم مفسرين أم محدثين أم فلاسفة أم غيرهم.

---

(١) حسن بن علي الحجاجي : **الفكر التربوي عند ابن رجب الحنبلي** ، ط ١ ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٩٩٦م ، ص : ١٧ – ١٨

ويرى الباحث أن المجال ما زال واسعا للبحث في الفكر التربوي الإسلامي عند علماء المسلمين للإسهام في تطوير نظرية تربوية إسلامية يكون بعض دعائمها الأفكار والآراء التربوية التي أسهم بها مفكرو الإسلام.

ولقد اختار الباحث -في دراسته الحالية- دراسة الفكر الإصلاحي التربوي المعاصر عند علم من أعلام الفكر الإسلامي في تونس، ألا وهو الإمام العلامة محمد الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره " التحرير والتنوير".

لقد كان العلامة محمد الطاهر ابن عاشور – رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى – علما بارزا من أعلام الفكر العربي الإسلامي، وممن تبوأ مكانة عالية مرموقة، وقدم إصلاحات عظيمة وأثرى المكتبة الإسلامية والساحة الفكرية بمؤلفاته العظيمة، وقد توالت الإشادة والتنويه بأعماله وجهوده القيمة في حياته وبعد وفاته (1).

وقد قال عنه الأستاذ " محمد الطاهر الميساوي "(2) في مقدمة كتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور " : ومن ثم فلا غرابة أن جاءت هذه السيرة وارفة الأفنان، متنوعة العطاء، دانية القطوف، كأنما أنت في مجمع من العلماء ضم في صعيد واحد اللغوي والأديب والمفسر والمحدث والأصولي والفقيه والمربي والمؤرخ والفيلسوف، بل وحتى العالم بأمور الطب، ويكفي ل

---

(1) محمد بن سعد بن عبد الله القرني : **الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير** ، رسالة ماجستير ، ١٤٢٧هـ ، جامعة أم القرى ، مكة ، كلية الدعوة وأصول الدين، ص : ١٩

(2) هو كاتب مقدمة كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور ، ومحقق ومؤلف معاصر ، وأستاذ في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، وهو ممن درسوا وحققوا فكر الإمام ابن عاشور .

معرفة مكانة ابن عاشور في التفسير الإحالة على موسوعته " تفسير التحرير والتنوير " (١).

ووصفه الدكتور "محمد الحبيب ابن الخوجه"(٢)، **بقوله** : هو نمط فريد من الشيوخ لم تعرف مثله بين معاصريه أو طلابه أو من كان في درجتهم من أهل العلم، إذ كان انكبابه على الدرس متميزا، واشتغاله بالمطالعة غير منقطع، مع عناية دائمة مستمرة بالتدوين والكتابة وتقديم ما يحتاج إليه الناس من معارف وعلوم وأذواق وآداب وملاحظات وتأملات، فلا بدع إذا اطردت جهوده واستمر عطاؤة في مجالات الدرس والثقافة، وفي حقول المعرفة الشرعية الدينية، وفي الدراسات اللغوية، وفي معالجة أوضاع التعليم في الزيتونة والعمل على إصلاحها، مع دفاعه عن الإسلام أصوله وآدابه (٣).

ومما قاله عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي(٤) : الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر من ذخائره .. فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، تخرجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي (٥).

---

(١) **مقدمة كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور** ، ط٢ ، تحقيق ودراسة : محمد الطاهر الميساوي ، ٢٠٠١م ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ص : ١٦

(٢) تولى عمادة كلية الزيتونة ، ثم الإفتاء ، وشغل منصب الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي ، وهو ممن تعلموا وتخرجوا على يد الشيخ ابن عاشور .

(٣) محمد الحبيب ابن الخوجة : **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، ج١ ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ٢٠٠٨م ، ص : ٣١١

(٤) هو جزائري ، ومن كبار العلماء ، وأحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين ، وكان عضوا في المجامع العلمية العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد .

(٥) محمد الحبيب ابن الخوجة ، مرجع سابق ، ص : ١٦٣

وقال عنه الداعية المصلح الشيخ محمد الغزالي : هو رجل القرآن الكريم وإمام الثقافة الإسلامية المعاصرة..الرجل بدأ يتكلم عن اللغة، ويتكلم بها أديباً.. أَقرأُ كلماته في التحرير والتنوير فاستغرب ؛ لأنه أتى بكلماتٍ مستغرَبة وجعلها مألوفة، وحرر الجملة العربية من بعض العيوب التي أصابتها في أيام انحدار الأدب في عصوره الأخيرة، ولكن الرجل لم يلق حظه فابن عاشور لا يمثل صورة من اللحم والدم فقط، وإنما يمثل تراثا أدبيا علميا عقائديا أخلاقيا(1).

إن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور أول من سمي شيخا للجامع الأعظم في الزيتونة بتونس، وأول من لقب بشيخ الإسلام بتونس، وأول من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة بعد العز بن عبد السلام والشاطبي، وأول من أدخل إصلاحات تعليمية وتنظيمية في الجامع الزيتوني في إطار منظومة تربوية فكرية صاغها في كتابه "أليس الصبح بقريب" الذي أَلَّفَهُ في بواكير حياته والذي دل على عقلية تربوية فذة، كما أضاف للدراسة مواد جديدة كالكيمياء والفيزياء والجبر، وأكثر من دروس الصرف وأدب اللغة (2).

(١) المرجع السابق ، ص: ١٦٤

(٢) إياد خالد الطباع : **محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه** ، ط١ ، دار القلم ، دمشق ، ٢٠٠٥م، ص : ٧٨- ٨٠

إن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور يعد أحد الأعلام الإصلاحيين الذين اتخذوا التجديد والاجتهاد والإصلاح منهجا وسبيلا في فكرهم وحياتهم، وما تفسيره إلا نتاجات هذه الحركة التجديدية (١).

وللشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور مؤلفات كثيرة في اللغة والأدب والحديث والتفسير والفقه وأصوله والتاريخ والتراجم والعلوم الإسلامية، ومن أشهر مؤلفاته تفسير التحرير والتنوير (موضوع الدراسة الحالية)، وكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، وكتاب أليس الصبح بقريب، وكتاب أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وغيرها الكثير .

ولما كان تفسير "التحرير والتنوير" يزخر بالأفكار الإصلاحية التربوية المتناثرة في كل أجزائه، فقد وجد الباحث أنها جديرة بأن يلم شتاتها وتدرس وتحلل حتى يمكن الاستفادة منها .

إن الفكر الإصلاحي التربوي عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير " يمكن إبرازه ودراسته وتحليله من خلال البحث حول مقصدين عظيمين للقرآن الكريم وفق الاتجاه المقاصدي الذي يتبناه الإمام ابن عاشور في منهجه التفسيري ووفق ما ورد في إحدى مقدمات تفسيره، فالمقصد الأول هو المقصد الأعلى من القرآن الكريم، وقد حدده في صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية (٢)، والمقصد الثاني هو المقاصد الأصلية

---

(١) سامر عبد الرحمن رشواني : الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور ، **مجلة إسلامية المعرفة** ، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة السادسة ، العدد ٢٣، ٢٠٠٠م ، ص : ٨٣- ١١٥

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م، ج١،ص:٣٨

التـي تنـدرج تحـت المقصـد الأعـلى، وهـي إصـلاح الاعتقـاد، وتهـذيب الأخلاق، والتشريع، وسياسة الأمة، والقصص وأخبار الأمـم السـالفة للتـأسي بصالح أحوالهم والحذر من مساوئهم، والتعلـيم بـما يناسـب عصرـ المخـاطبين، والمواعظ والإنذار والتحذير والتبشير [1] .

ولهذا فقد جاء تفسير " التحرير والتنوير" للإمام محمد الطاهر ابن عاشور حافلا بالأفكار الإصلاحية التربوية، ومن هنا تبدو أهمية الدراسة الحالية .

مشكلة الدراسة :

في ظل واقعنا التربوي يرى الباحث أنه لابد من مواجهة التحديات والمشكلات التي تعوق منظومة التربية المعاصرة وتحول دون تحقيق أهدافها بالكم والكيف المطلوبين .

فثمة حاجة إلى فلسفة تربوية واضحة وراسخة تَثْبُت في وجه التحديات والمشكلات المعاصرة وتعالجها، هذه الفلسفة تتمثل في الفكر التربوي الإسلامي الأصيل النابع من القرآن الكريم والسنة النبوية وما أنتجته عقول مفكري الأمة، ولذلك شعَر الغيورون على مصلحة هذه الأمة بضرورة وضع منهج موضوعي حيّ وفعّال للتربية الإسلامية الحقة ؛ للخروج من أزمات التربية المعاصرة ومحاولة إصلاحها (٢).

---

(١) المصدر السابق ، ج١، ص : ٤٠ - ٤١

(٢) راجع كلا من :

- عبد الرحمن النحلاوي: <u>**أصول التربية الإسلامية وأساليبها**</u>، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٣ه ،ص : ٩
- محمد عبد المحسن عبد الكريم : **حقيقة الوجود البشري وانعكاساتها التربوية في ظل قصة خلق آدم عليه السلام في القرآن الكريم** ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٦هـ ، ص : ٨

١- وللإمام محمد الطاهر ابن عاشور جهود وآراء تربوية إصلاحية تمثل لبنة من لبنات الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، حيث صاغ رؤية تربوية شاملة لإصلاح منظومة التعليم العربي الإسلامي عامة والتعليم الزيتوني بتونس خاصة.

ويمكن تلخيص مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيس التالي :

ما ملامح الإصلاح التربوي المعاصر عند ابن عاشور من خلال تفسيره "التحرير والتنوير" ؟

ويتفرع من هذا التساؤل عدة تساؤلات تحاول الدراسة الحالية الإجابة عنها :

٢- ما أهم العوامل التي شكَّلت شخصية وفكر الإمام ابن عاشور ؟

٣- ما أهم الأسس التي بنى عليها ابن عاشور فكره الإصلاحي التربوي ؟

٤- ما أهم الملامح الإصلاحية في منظومة التربية عند ابن عاشور وفقا لتفسيره ؟

٥- كيف يمكن الإفادة من ملامح الإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور لإصلاح واقع التربية المعاصرة ؟

أهداف الدراسة :

١- التعرف على سيرة الإمام محمد الطاهر ابن عاشور وجهوده العلمية والإصلاحية ، والتعريف بتفسيره " التحرير والتنوير " ، وبيان أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل شخصيته وفكره .

٢- بيان أهم الأسس التي بنى عليها ابن عاشور فكره الإصلاحي التربوي.

٣- بيان أهم الملامح الإصلاحية في منظومة التربية عند ابن عاشور وفقا لتفسيره "التحرير والتنوير" .

٤- الخروج بمجموعة من النتائج والتوصيات والمقترحات في ضوء ملامح الإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور، والتي يمكن الإفادة منها في إصلاح الواقع التربوي المعاصر .

أهمية الدراسة :

تكتسب الدراسة الحالية أهميتها من خلال ما يلي :

١- تستمد الدراسة الحالية أهميتها من أهمية ودور الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في مجال الفكر الإسلامي، وكذا أهمية تفسيره"التحرير والتنوير"

٢- يمكن أن تقدم هذه الدراسة للمهتمين بتكوين نظرية تربوية إسلامية ما يفيدهم في بناء هذه النظرية، ففكر الإمام ابن عاشور التربوي المعاصر هو جزء من الإطار العام للفكر التربوي الإسلامي، فإذا أضيفت أفكاره التربوية إلى غيره من مفكري الأمة فإن هذا يؤدي إلى بناء نظرية تربوية إسلامية متكاملة .

٣- يمكن أن يستفيد من هذه الدراسة الدعاة والمهتمون بتأصيل العلوم التربوية، والموجهون والمعلمون وأولياء الأمور والقائمون على المناهج المختلفة والمهتمون بتربية الجيل المسلم، فالمتتبع لمعالم التربية وأساليبها عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في كتبه عامة والتحرير والتنوير خاصة سيجد فيها ما يفيد في تطوير الأساليب التربوية .

٤- هذه الدراسة محاولة للكشف عن الجوانب التربوية في حياة وفكر أحد علماء ومفكري الأمة الإسلامية البارزين في العصر الحديث الذين يدعون إلى أصالة المنطلق في النظريات والآراء التربوية ؛ مما يساهم في تأصيل التربية المعاصرة والرجوع بها إلى مصدرها الأصلي، الكتاب والسنة وتراث العلماء المسلمين .

٥- إن التعرف على الفكر التربوي للإمام محمد الطاهر ابن عاشور يمكن أن يعطينا صورة عن بعض الأحوال والظروف التي عاش فيها، ففكر الإنسان يتأثر كثيرا بالظروف والعوامل المختلفة المحيطة به .

٦- هذه الدراسة تلفت النظر إلى طريقة التربية والتعليم التي سلكها الإمام محمد الطاهر ابن عاشور مع تلاميذه وخالف فيها معاصريه من المعلمين الآخرين، مما يشجع على الأخذ بطريقته ؛ لتطوير أساليب التعليم السائدة في مدارسنا ومعاهدنا الدينية وجامعاتنا .

حدود الدراسة :

لما كان موضوع الدراسة هو : ملامح الإصلاح التربوي المعاصر في تفسير ابن عاشور " التحرير والتنوير"، فقد اقتصرت على تحليل واستنباط أهم ملامح الإصلاح التربوي وأسسه في كتابه " التحرير والتنوير" (المطبوع)، كما تقتصر الدراسة أيضا على مجال الإصلاح التربوي في العملية التعليمية.

منهج الدراسة :

استخدم الباحث المنهج الوصفي الذي يهتم بالتعرف على الاتجاهات والآراء وتحليلها، كما استخدم المنهج الأصولي القائم على استنباط المبادئ والأسس النظرية للتربية الإسلامية وما يتصل بها من أهداف وقيم وطرائق تربوية وتعليمية، ويقوم هذا المنهج على خطوات ثلاث، هي استقراء النصوص

المتصلة بالموضوع استقراء تاما، والتحليل العلمي للنصوص، ثم الاستنباط الذي يمثل الهدف المقصود من العملية البحثية الأصولية [1]، وقد قام الباحث باستقراء النصوص والكتابات المتعلقة بالإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور وتحليلها ثم استنباط ما تضمنته هذه النصوص من أفكار تربوية إصلاحية .

مصطلحات الدراسة :

◊ **الإصلاح** :

إن مادة "صلح وأصلح" تدوران حول إزالة الفساد، فقد ورد في المعجم الوجيز أن "صلح صلاحا" أي زال عنه الفساد، و "أصلح إصلاحا" أي أزال فساد الشيء (٢).

وقد تناول ابن عاشور في تفسيره كلمة "الإصلاح" من الناحية اللغوية، فقال: إن الإصلاح موضوع للقدر المشترك بين إيجاد الشيء صالحا، وبين جعل الضار والفاسد صالحا بالتهذيب أو بالإزالة (٣).

ويقول أيضا : الإصلاح جعل الشيء صالحا أي ذا صلاح، والصلاح ضد الفساد وهو كون شيء بحيث يحصل به منتهى ما يطلب لأجله، فصلاح الرجل

---

(١) راجع كلا من :

- **علي خليل أبو العينين : منهجية البحث في التربية الإسلامية** ، رسالة الخليج العربي ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، **الرياض ، العدد ٢٤ ،السنة الثامنة ، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م ، ص : ١٢ ، ٢١**
- **سعيد إسماعيل علي** : أصول التربية الإسلامية ، **مرجع سابق ، ص : ٤٩ – ٥٠**

(٢) المعجم الوجيز ، **مجمع اللغة العربية ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص : ٣٦٨**

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص : ١٧٥ .

صدور الأفعال والأقوال الحسنة منه، وصلاح الثمرة كونها بحيث ينتفع بأكلها دون ضر، وصلاح المال نماؤه المقصود منه، وصلاح الحال كونها بحيث تترتب عليها الآثار الحسنة، والصلاح هو استقامة الأعمال وطهارة النفس (١).

◊ **الإصلاح التربوي المعاصر** :

إن مفهوم الإصلاح التربوي المعاصر يقصد به تغيير مقصود بهدف تحسين النظرية في الممارسة التربوية (٢).

ويعرفه البعض بأنه النظر إلى النظام التربوي القائم بما في ذلك النظام التعليمي ومناهجه، من خلال إجراءات تقويمية، ثم البدء في عملية التطوير وفق مقتضيات المرحلة الراهنة والرؤى المستقبلية للنظام التربوي، مع الأخذ في الاعتبار الاتجاهات العالمية ومظاهر التجديد التربوي (٣).

ويرى الدكتور حامد عمار أن حركة الإصلاح قد تتخذ توجهات رئيسية تعبر عن طبيعة المفهوم، وهي (٤) :

- تحريك الحاضر كي يتطابق مع توجهات ماضوية قد اختفت ويراد إحياؤها وتنشيطها .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ٣٥٥ – ٣٥٦ ، ج ٣ ، ص : ٢٤٧

(٢) شوقي السيد الشريف : **معجم مصطلحات العلوم التربوية** ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ٢٠٠٠م ، ص: ٢١٢

(٣) أحمد اللقاني ، علي الجمل : **معجم المصطلحات التربوية المعرفية في المناهج وطرق التدريس** ، ط٢ ، دار عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص : ٣٢

(٤) راجع كلا من :

- حامد عمار : **الإصلاح المجتمعي** ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٦م ، ص : ٢٢
- سامية أحمد فرغلي : **توجيهات سياسات الإصلاح التربوي في التعليم ما قبل الجامعي في مصر منذ تسعينيات القرن العشرين** ، رسالة دكتوراة ، ٢٠٠٩م ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، ص : ٥٦

- وقد تكون حركة ترميم أو تجميل للحاضر وبعض التوجهات الراهنة في محاولة لصيانتها واستمرارها .
- وقد تُطلِق عملية الإصلاح تغييرا استراتيجيا مختلفا عن الأحوال والمسارات المجتمعية الراهنة .

◊ **التفسير** :

كلمة التفسير في اللغة مصدر فَسَّر، والفَسْر هو الإيضاح والإبانة والكشف لمدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المَفَسَّر عند السامع(1).

أما في الاصطلاح، فهو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع، وموضوعه ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه(2)، أو هو علم يبحث عن مراد الله تعالى من القرآن الكريم بقدر الطاقة البشرية، وهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد (3).

ويعرفه البعض أيضا بأنه ذلك العلم الذي يتم من خلاله فهم مراد الله تعالى من القرآن وبيان معانيه وما يستفاد منها، والكشف عن الأحكام الواردة ومقاصدها وغاياتها ورفع الغموض عن ألفاظ الآيات القرآنية (4).

ويعرف الباحث الإصلاح التربوي في تفسير "التحرير والتنوير" إجرائيا، بأنه مجموعة الأفكار الإصلاحية التربوية في تفسير ابن عاشور، والمتعلقة بمجال

---

(1) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج1 ، ص : 10

(2) المصدر السابق ، ج1 ، ص : 12

(3) **محمد حسين الذهبي** : التفسير والمفسرون ، **ج 1 ، ط7 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 2000م ، ص : 12، 14**

(4) رضوان جمال الأطرش ، نشوان عبده خالد : الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم ، **مجلة الإسلام في آسيا** ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، العدد الخاص الأول ، مارس 2011م ، ص : 191

إصلاح الفرد والمجتمع، وإصلاح المنظومة التربوية من حيث الأهداف، والعلوم، والمعلم، والمتعلم، وأساليب التربية وطرق التعليم والتعلم، والمراحل التعليمية، والتقويم، وفقا للرؤية المقاصدية القرآنية .

الدراسات السابقة :

يوجد العديد من الدراسات السابقة في مجال الفكر التربوي الإسلامي لدى مفكري وعلماء الأمة الإسلامية من خلال كتاباتهم، إلا أن الباحث لم يجد – على حد علمه واطلاعه في هذا المجال – دراسات سابقة تناولت الآراء والأفكار الإصلاحية التربوية عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه " التحرير والتنوير "، رغم وجود دراسات حول مؤلفاته الأخرى، ودراسات حول تفسيره من الجوانب غير التربوية .

ويمكن عرض بعض الدراسات التي تتعلق بالفكر التربوي عند بعض المفسرين، وكذا عرض الدراسات والمؤتمرات التي تتعلق بفكر الإمام ابن عاشور وإصلاحاته، وكتابه " التحرير والتنوير " عرضا موجزا، **وتقسم الدراسات على النحو الآتي :**

أولا : دراسات حول الفكر التربوي لدى بعض المفسرين :

١ – دراسة " علي حسين فهد " (١٤١٢هـ)[1]، وهدفت الدراسة إلى التعرف على حياة الإمام الرازي وعصره، والتعرف إلى المفاهيم التربوية التي ضمّنها كتابه، ثم تقويم هذه المفاهيم وبيان مدى قدرتها على تأصيل التربية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وقد استخدم الباحث المنهج التاريخي والاستنباطي، ومن أهم النتائج : أن التربية الإسلامية كانت هي السائدة في

(١) علي حسين فهد : **المفاهيم التربوية عند الإمام فخر الدين الرازي من خلال كتابه التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب** ، رسالة ماجستير ، ١٤١٢هـ ، جامعة أم القرى ، كلية التربية ، ص : ٩ ، ٣٢٢ – ٣٢٩

عصر الإمام الرازي مع خلوها من أي فكر دخيل، وأن للتربية الإسلامية قدرة على الإبداع والبناء الحضاري، وأن التربية الإسلامية ذات تميز واستقلالية، وقد أوصى الأسرة المسلمة بالاستفادة من التربية عند الإمام الرازي، كما أوصى المعلمين بالاستفادة من التراث التربوي الإسلامي .

٢- دراسة " زكريا أحمد عبد الرحيم رابايعة " (٢٠٠٠م)(١)، وهدفت الدراسة إلى إبراز الفكر التربوي عند السيوطي، وما يتعلق بآرائه في آداب العالم والمتعلم وتربية النفس والعقل، واستخدم الباحث المنهج الوصفي، ومن **أهم النتائج**: انطلاق الإمام السيوطي بالكتابة والتأليف من حاجات المجتمع، والمحافظة على التراث، والاهتمام بالعقل، وأوصى بإجراء دراسات حول علماء المسلمين لإبراز فكرهم .

ثانيا : دراسات تتعلق بفكر ابن عاشور المقاصدي وإصلاحاته وتفسيره:

١-دراسة "محمد حسين" (٢٠٠٣م)(٢)، وقد اشتملت هذه الدراسة على التعريف بشخصية وفكر الإمام محمد الطاهر ابن عاشور الذي من الواجب علينا كمتعلمين أن نلتفت إليه ونعتنى بإنتاجه الفكري ونقبل على دراسته والاستفادة منه، وإذا نظرنا إليه باعتباره مفكرا إسلاميا فإننا ملزمون بالاحتفاء به ؛ لأنه يعد ممن أسهموا بقوة في دفع التفكير الإسلامي قدما إلى الأمام، ومن نتائج هذه الدراسة : أن قيام علم المقاصد الشرعية ضرورة

---

(١) زكريا أحمد عبد الرحيم رابايعة : **الفكر التربوي عند الإمام السيوطي** ، رسالة ماجستير ، ٢٠٠٠م، جامعة اليرموك ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ص : ٢ ، ص : ١٢٣ - ١٢٤

(٢) محمد حسين : **التنظير المقاصدي عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة"** رسالة دكتوراه ، ٢٠٠٣م ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإسلامية، ص: ٢ – ٣ ،ص: ٢٧٨ - ٢٧٩

تقتضيها الحاجة إلى تنظيم حياة المجتمع المسلم، وأن الضبط المقاصدي يساعد على بناء قواعد شرعية تسهم في تنظيم حياة المسلمين ؛ لأنها تمكن من حسم المشاكل التي تطرحها المعاملات، كما أن معرفة المقاصد واعتبارها عند صياغة القواعد الشرعية هي السبيل الأمثل لصيانة حرمة الشريعة وتمكين المسلمين من التطور .

٢-دراسة " أحمد بن محمد بن قاسم مذكور " ٢٠١١م "[1]، وقد ذكر أن العلامة محمد الطاهر ابن عاشور يُعدُّ من العلماء الأجلاء المتأخرين، وله مؤلفات ورسائل كثيرة وإسهامات شتى في فنون مختلفة ؛ مما يدل على علوِّ مرتبته ومبلغ علمه ومدى تفنُّنه، وهذا بدوره أَضفى على تفسيره عمقاً في المعلومات وتحقيقًا في الأقوال وتمحيصًا وتوثيقًا للنصوص ومباحث وفوائد لم يُسبق إليها، ويُعدُّ تفسير التحرير والتنوير من كتب التفسير الجامعة، عظيم النفع ؛ لما فيه من المباحث المتقنة والردود المحررة، وفيه كذلك استدراكات وتعقبات على من سبقه وهي كثيرة جدا، فالكتاب فيه خلاصات قيِّمة، وجمع لكثير مما كُتب قبله من التفاسير .

٣-دراسة " مشرف بن أحمد جمعان الزهراني " ١٤٢٧هـ "[2]، وقد ذكرت هذه الدراسة أن تفسير ابن عاشور من التفاسير المهمة في العصر الحديث ؛ لما تميز

---

(١) أحمد بن محمد بن قاسم مذكور : **استدراكات ابن عاشور على الرازي والبيضاوي وابن حيان في تفسيره التحرير والتنوير** ، رسالة دكتوراه ، ٢٠١١م ، كلية الدعوة وأصول الدين ، جامعة أم القرى ، ص : ٦

(٢) مشرف بن أحمد جمعان الزهراني : **أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير** ، رسالة دكتوراه ١٤٢٧هـ، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ص : ٧ – ٨

به هذا التفسير بشمولية النظرة وعمقها وميلها إلى أصالة المعالجة، والأخذ بحظ وافر من طرق الأقدمين في استخلاص الفوائد وتقييد الفرائد، مع وضوح الشخصية في البحث والاستنتاج ورصانة العبارة وجودة الإشارة وقوة السبك وروعة الأسلوب .

٤-دراسة " جمال محمود أبو حسان " (١٩٩١م)[١]، وقد ذكر في نتائج دراسته أن أهم ما جاء في هذا التفسير وأبدعه على الإطلاق تلك المقدمات التي وضعها الشيخ في بداية تفسيره وهي تشتمل على مقدمات في علوم القرآن، كما يتميز تفسيره بكثرة مصادره وتنوعها، وبالأسلوب العلمي اللغوي القوي، ومن نتائج الدراسة أيضا بروز شخصية الإمام " ابن عاشور " في تفسيره .

٥-دراسة "رانيه جهاد الشوبكي" (٢٠٠٩م)[٢]، وقد ذكرت هذه الدراسةفي نتائجها: أن الإمام "ابن عاشور" إمام فذّ سطّر لنا في تفسيره الفوائد القيمة والفرائد النادرة التي قلّ أن يوجد لها نظير في تفسير آخر، لذلك نستطيع أن نسميه صفوة التفاسير، بل موسوعة التفاسير، فقد اشتمل على العلوم الإنسانية مع الإشارات العلمية التي تتعلق بجانب الإعجاز العلمي .

٦-من المؤتمرات العلمية التي عقدت حول الإمام محمد الطاهر ابن عاشور : المؤتمر الدولي الذي دار حول " الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، رؤية معرفية منهجية "،

---

(١) جمال محمود أبو حسان : **تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية ونقدية** ، رسالة ماجستير ، ١٩٩١م ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، ص : ٢٥٤ - ٢٥٥

(٢) رانية جهاد الشوبكي : **الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسير التحرير والتنوير (المعاني والبديع)** ، رسالة ماجستير ٢٠٠٩م ، كلية الآداب ، الجامعة الإسلامية ، غزة ، ص : ٤٠٧

٧-هذا المؤتمر نظمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة الدراسات الإسلامية، يومي ٢ - ٣ مايو ٢٠٠٩م، وقد قُدم في هذا المؤتمر عدة أوراق بحثية حول فكر الإمام ابن عاشور من خلال بعض مؤلفاته، مثل كتاب : أليس الصبح بقريب، والتحرير والتنوير، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ومقاصد الشريعة الإسلامية، **ومن هذه الأوراق البحثية** :

أ - تقويم تدريس علوم الشريعة دراسة في فكر الشيخ ابن عاشور، للدكتور عمار جيدل، وقد ركز في هذه الورقة البحثية على كتاب الإمام ابن عاشور " أليس الصبح بقريب".

ب- المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، للدكتور خالد الطرودي، حيث تناول في بحثه - من خلال كتاب أليس الصبح بقريب - مجالات الإصلاح في التعليم .

ج - تأصيل القيم العالمية الكبرى عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، للدكتور صحراوي مقلاتي .

د - موقع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في الفكر الإسلامي، للدكتور سليمان الشواشي.

هـ - المكافحة المنهجية عند ابن عاشور لفساد المجتمع ومجالات الإصلاح والتجديد، للدكتور علي جمعة الرواحنة .

وقد أوصى البيان الختامي للمؤتمر بضرورة استلهام تراث المفكرين والمصلحين في أرجاء العالم الإسلامي لصياغة مشاريع تجديدية، وخاصة في مجال إصلاح التعليم وتجديد دراسة العلوم الإنسانية، كما أوصى بتوجيه اهتمام

الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى أبحاث ودراسات تهتم بأعلام الإصلاح الفكري والاجتماعي المعاصرين [1].

ويمكن - من خلال ما سبق من دراسات وغيرها - استنتاج ما يلي :-

- بروز الإمام ابن عاشور وازدهار مواهبه كمفكر وصاحب اتجاه إصلاحي .
- اتصاف فكره بالشمولية وتعدد الجوانب والاهتمامات سواء في مجال الأدب والاجتماع والتربية والتعليم والعلوم الإسلامية واللغوية،مما جعل له مكانة علمية مرموقة وأثنى عليه علماء عصره في حياته وبعد وفاته .
- اهتمامه بقضية إصلاح التعليم في العالم العربي عامة والتعليم الزيتوني بتونس خاصة، ونقده للمعلمين في عصره، وكذا طرق تدريسهم، ونقده للعلوم الإسلامية في تأخرها، كل ذلك من خلال كتابه " أليس الصبح بقريب " .
- انطلاقه – في أغلب ما طرحه من أفكار وإصلاحات – من الاتجاه المقاصدي، فهو المفهوم المفتاحي لأفكاره وإصلاحاته .
- سلك الإمام " ابن عاشور " في تفسيره "التحرير والتنوير" منهجا متميزا، فجاء تفسيره محتويا على مزايا عظيمة ومتضمنا علوما كثيرة وفوائد جمة، وبدأ بمقدمات رائعة بينت منهجه التفسيري .

---

(١) بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر رؤية معرفية ومنهجيه ، ط١ ، تحرير : فتحي حسن ملكاوي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠١١م ، ص : ٤٨١- ٥٥٦

- اعتناء الإمام " ابن عاشور " في تفسيره باستنباط الفوائد وربطها بحياة المسلمين، واشتمال تفسيره على قضايا إصلاحية اجتماعية وعلمية، كما اشتمل على بعض القضايا الخلافية في المجالات والعلوم المختلفة .

وأخيرا يرى الباحث أن الدراسات السابقة التي تناولت الإمام " محمد الطاهر ابن عاشور " ومؤلفاته لم تتطرق إلى استجلاء الآراء الإصلاحية التربوية في "التحرير والتنوير" لذا يرى الباحث أن الدراسة الحالية تتميز بجديتها وحداثتها .

فصول الدراسة :

تشتمل الدراسة على الفصول الآتية :

المقدمة، وتتضمن مشكلة الدراسة، وأهدافها، وأهميتها، وحدودها، ومنهج البحث فيها، ومصطلحاتها، والدراسات السابقة، وفصول الدراسة .

الفصل الأول، وهو بعنوان "ابن عاشور مفكرا ومصلحا تربويا" ويعرض فيه الباحث نبذة عن مدرسة الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، والتي لها الأثر الكبير في فكر ابن عاشور، كما يتناول الباحث سيرة ابن عاشور وجهوده العلمية والإصلاحية والتعريف بتفسيره، وبيان أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل شخصيته وفكره .

الفصل الثاني، وهو بعنوان " أسس الفكر الإصلاحي التربوي عند ابن عاشور " ويتناول فيه الباحث أهم أسس الفكر الإصلاحي التربوي لدى ابن عاشور وفقا لتفسيره كالاعتماد على الفكر المقاصدي وشمولية الرؤية الإصلاحية التربوية لديه والتي تشمل نمط الإصلاح الفردي من حيث إصلاح الاعتقاد والتفكير والعمل بما يتوافق مع الفطرة الإنسانية، أو نمط الإصلاح

الاجتماعي الذي يعتمد على مقومات وأسس كثيرة سماها ابن عاشور " نظام سياسة الأمة "، وأهمها المواساة، والتسامح، والحرية، والمساواة، والشورى .

الفصل الثالث، وهو بعنوان " أهم الملامح الإصلاحية في منظومة التربية عند ابن عاشور" ويتناول فيه الباحث أهم الملامح التربوية الإصلاحية في تفسير ابن عاشور من حيث الأهداف التربوية وارتباطها بالمقاصد القرآنية، وأقسام العلوم، وأدوات المعرفة، وأساليب التربية وطرق التعليم والتعلم، وآداب المعلم، وآداب المتعلم، والمراحل التعليمية ومتطلباتها، والتقويم .

الفصل الرابع، وهو بعنوان " نتائج الدراسة وتوصياتها ومقترحاتها "، ويعرض فيه الباحث - بعد النتائج والتوصيات – تصورا مقترحا لإصلاح الواقع التربوي المعاصر في ضوء الملامح الإصلاحية التربوية في تفسير ابن عاشور .

الفصـل الأول
ابن عاشور مفكرا ومصلحا تربويا

لما كان موضوع الدراسة الحالية يدور حول الفكر الإصلاحي التربوي لدى أحد أعلام الفكر الإسلامي وهو الإمام ابن عاشور فقد رأى الباحث أن يتناول بشكل موجز أبرز ملامح الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي لدى رموز المدرسة الإصلاحية المعاصرة والتي تركت بصماتها الواضحة في شخصية وفكر ابن عاشور، وبذلك يمكن لنا ربط فكر ابن عاشور بالسياق المجتمعي والفكري العام، كما أن هذا يعد تمهيدا للحديث عن حياته وجهوده العلمية والإصلاحية .

أولا : مدرسة الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر:

لعل أهم ما تميزت به مدرسة الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر سواء في المشرق العربي أم المغرب العربي هو طرح مفاهيم دينية جديدة تربط الدين بالحياة وتمزج المادي بالروحي، وضرورة إصلاح العلوم الإسلامية، والمراهنة على إصلاح التعليم، إذ هو أساس رقي الأمة وتطورها (١) .

وهذا الإصلاح الديني والتربوي الذي قام به المصلحون المعاصرون بعزائمهم الواعية وجهودهم الفكرية لتسييرها في فروع الحياة الإسلامية عامة منطلقة بسيرها ذلك من أصل الحياة وقوامها – فإنه يقوم على التفكير الديني السليم (٢).

---

(١) فتحي حسن ملكاوي : **مستخلصات من بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ، رؤية معرفية ومنهجيه** ، ط١ ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠١١م ، ص : ٦٣٤ – ٦٣٥

(٢) محمد الفاضل ابن عاشور : **التفسير ورجاله** ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، الكتاب الثالث عشر، السنة الثانية ، مايو ١٩٧٠م ، ص : ١٤٦

ولقد بدأت ملامح هذا الفكر الإصلاحي تظهر على الساحة الفكرية الإسلامية بدءا من الشيخ حسن العطار ثم رفاعة الطهطاوي، ثم أخذت تنمو وتزدهر مع السيد جمال الدين الأفغاني ثم الإمام محمد عبده، وعبد الله النديم، وعبد الرحمن الكواكبي، والشيخ محمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان، وعبد العزيز جاويش، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ مصطفى عبد الرازق، وأحمد حسن الزيات ...

وسوف يلقي الباحث الضوء على بعض الشخصيات ودورها في إصلاح وتجديد الفكر الإسلامي المعاصر:

١- الشيخ حسن العطار (١٧٦٦م - ١٨٣٥م)

لم يعرف الأزهر مجلسا أكبر من مجلس الشيخ العطار، ولم يتوافر لغيره ما توافر له، حيث أتيح له وقبل أن يصبح شيخا للأزهر أن يطلع على آلات الفلك والرصد وقت وجود الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، ويذكر لنا الشيخ العطار في مقامة له أنه اطلع عند الفرنسيين على كتب كثيرة في العلوم الرياضية والأدبية [١].

(١) راجع كلا من :

- محمد عبد الغني حسن : **حسن العطار**، القاهرة ، دار المعارف ، سلسلة نوابغ الفكر العربي ، ١٩٦٨م، ص : ٧٠
- سعيد إسماعيل علي : موقع المسألة التعليمية في مدرسة المنار ، **ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي الحديث** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومركز الدراسات المعرفية ، ٨- ٩ أكتوبر ٢٠٠٢م، القاهرة ، ص : ١٩٠ - ١٩١

ولقد ثارت في عقل الشيخ العطار علامات استفهام كبرى حول الواقع الذي تحياه الأمة، واقتنع الرجل بضرورة التغيير، فأطلق صيحته " إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها "، وقرر أن يرعى كوكبة من النابهين أمثال رفاعة الطهطاوي ، وقد عمل على نقل خبراته ومعارفه وحصيلة احتكاكه بعلماء الحملة الفرنسية لتلاميذه، وبذلك حاول الإسهام في تكوين الجيل الذي ينهض بمهام الإصلاح والتجديد(١) .

وبذلك نجح الشيخ العطار في تأسيس أول مدرسة فكرية تجمع بين الأصالة والمعاصرة في سياق واحد، حيث نبَّه تلاميذه إلى ضرورة تزويد حياتنا الثقافية بالمعارف الأوربية الحديثة، وإصلاح حال المجتمع وتطهيره من الجهل والخرافات، وتعديل مناهج التعليم بالأزهر، وكان له الفضل في استحداث نظام البعثات في حكم محمد علي (٢) .

٢- رفاعة الطهطاوي (١٨٠١م – ١٨٧٣م)

لقد رشح الشيخ حسن العطار تلميذه رفاعة الطهطاوي للمشاركة في أول بعثة طلابية سافرت إلى فرنسا عام ١٨٢٦م، وكان رفاعة إماما لها، وقد أفاد من هذه البعثة إفادات عظيمة، منها : أنه أتقن اللغة الفرنسية، واكتشف أسرار

---

(١) محمد عمارة : رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث ، ط٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٧م، ص : ٢٥ – ٢٦.

(٢) راجع كلا من :

- عصمت نصار : الفكر المصري الحديث بين النقض والنقد ، ط١ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ٢٠٠٧م ، ص : ١٥٦ – ١٥٧
- محمد عبد الغنى حسن : حسن العطار ، مرجع سابق ، ص : ٧٦

النهضة والتقدم، واكتسب معارف جديدة دعا من خلالها إلى بناء مجتمعات متطورة، كما دعا إلى الأخذ بالعلوم الرياضية والطبيعية، وكان قصده من هذه الدعوة الإصلاحية حث المسلمين في الشرق على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس واكتساب المنافع، وقد عَبَرَت آراؤه الإصلاحية حدود مصر من خلال كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز"(١) .

ويبين رفاعة الطهطاوي دور التربية في تقدم الأمم بقوله : " إن الأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها يتقدم فيها أيضا التمدن على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها .. فالتربية هي أساس الانتفاع بأبناء الوطن"(٢).

ولذلك عندما أرسى محمد علي باشا قواعد التعليم الحديث في مصر تحت إشراف الدولة ناصره رفاعة الطهطاوي من خلال رسالة "المرشد الأمين للبنات والبنين " (٣).

٣- مدرسة الإصلاح والتجديد في المشرق العربي (مدرسة المنار):

برزت هذه المدرسة في القرن الثالث عشر الهجري "التاسع عشر الميلادي" بقيادة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨م –١٨٩٧م)، وتلميذه محمد عبده (١٨٤٩م – ١٩٠٥م)، والشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥م – ١٩٣٥م)، **وترتكز دعوة الأفغاني على جانبين، هما**(٤) :

---

(١) محمد الحبيب ابن الخوجة: **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص : ٦٢- ٦٤.

(٢) محمد عمارة : **رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث** ، مرجع سابق ، ص : ٣٦٧.

(٣) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ١٨٧

(٤) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ١٩

١- الجانب السياسي، وخاصة الدعوة لإقامة حكم إسلامي أساسه الشورى .

٢- الجانب العقائدي والاجتماعي، حيث يعتبر الدين ضرورة بشرية لازمة للإنسان، وأن كل حضارة ورقي أساسهما الدين، وكل تقهقر وتخلف إنما جاء عن طريق الإلحاد والمذاهب الهدامة .

ولقد برز مفهوم "الجامعة الإ سلامية" مع حركة التجديد والتغيير التي تبناها السيد جمال الدين الأفغاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي؛ ردا لما كان يتعرض له العالم الإسلامي من تمزق وتفرقة، فكانت هذه الفكرة ' الجامعة الإسلامية ' التي رفع لواءها الأفغاني بمثابة تيار متميز في ساحة العمل من أجل النضال الإسلامي (١).

إن إيمانه بالقضية الإسلامية دفعه إلى تحريك العقول وإلهاب العواطف والتأكيد على مراجعة النفوس وعلاجها وتنقيتها من أسباب الضعف والوهن وتوجيهها إلى أسباب القوة، ومن آثار آرائه ظهور اتجاه إصلاحي يقوم على التربية والتعليم والاستنارة الفكرية (٢).

---

(١) راجع كلا من :

- زكي الميلاد : تطورات الفكر الإسلامي ومساراته المعاصرة ، **مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث** ، العدد ٢٧ ، ٢٠١١م ، ص : ٨٦

- محمد عمارة : **جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام** ، ط٢، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، ص : ٢٦

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة : **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص : ٦٨ – ٧١

هذه الآراء الإصلاحية للأفغاني سرت في العالم الإسلامي من خلال جريدة العروة الوثقى ومن خلال محاضراته وتنقلاته بين البلدان الإسلامية .

ويود الباحث الإشارة إلى أن ابن عاشور كان من الـداعين لفكـرة الجامعـة الإسلامية التي تبناها الأفغاني، وقد تناول هذه القضية في كتابه "أصـول النظـام الاجتماعي في الإسلام" وتفسيره "التحرير والتنوير".

أما الشـيخ محمـد عبـده فقـد شـاهد الصراع الـذي تعرضـت لـه الحركـة الإصلاحية والمعاناة الشديدة التي واجهتهـا، ففضَّـل مـنهج الإصـلاح الـديني والتربوي والاجتماعي مسجلا بذلك منعطفا خطيرا في المنهج الإصـلاحي لهـذه الدعوة، فالأفغاني يرى الإصلاح عن طريق السياسـة، ومحمـد عبـده يـراه عـن طريق الإصلاح التربوي الاجتماعي (١).

لقد أدرك الشيخ محمد عبده أن سبب البلاء في عصره هـو ضـعف التعلـيم وفوضى المحاكم، ولذلك اتجه ضمن خطتـه الإصـلاحية التجديديـة الدينيـة إلى إصلاح التعليم الأزهري وشئون الأوقاف والمحاكم الشرعية، وكانـت عنايتـه بالفقه عانية فائقة ظهرت فيها نزعة اجتهادية، وبذلك أعـاد للأمـة روح انتمائهـا لدينها، فالإسلام مع كونه دينا وعقيدة ومنهج حياة يتضمن أمرين عظيمين، هما استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر (٢).

وكان اهتمام الإمام محمد عبده بإصلاح التعليم الديني الأزهري؛ لرؤيته أنه لا سبيل لنهضة الأمة إذا لم تؤسس نهضتها على الدين، ولا سبيل لهذه النهضة

---

(١) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ١٨٦ – ١٨٧

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة ، مرجع سابق ، ص : ٧٦ – ٧٩

إلا بإصلاح معاهد الدين 'الأزهر الشريف'، كما دعا إلى وحدة الشخصية التعليمية للأمة بدلا من الانفصام والانفصال إلى تعليم مدني وآخر تعليم ديني[1].

وعلى ذلك فمفهومه للتربية والتعليم كان يرتبط بحسه الديني الإسلامي، أي تربية تقوم على صحيح الدين، مع الأخذ بالعلوم الحديثة التي يمكن بها ترقية حال الأمة صناعيا وزراعيا وتجاريا، فإصلاح الذات وتربية النفس أولا هو الطريق المستقيم لتجاوز الكبوة وتحقيق النهضة[2].

ولقد حرص الإمام محمد عبده على تمييز منهاجه في الإصلاح بسمة الوسطية الإسلامية الجامعة، وبذلك قد خالف في دعوته إلى منهجه الإصلاحي جحود طلاب علوم الدين وطلاب العلوم الغربية لمنهاج الوسطية الإسلامية في الإصلاح والنهوض[3].

أما الشيخ محمد رشيد رضا، فمنذ أن اتصل بالإمام محمد عبده واقتنع بآرائه الإصلاحية عمل على نشرها والذود عنها، وأنشأ خلفا لمجلة العروة الوثقى مجلة المنار التي ظلت لسان الحركة الإصلاحية أكثر من ثلث قرن توضح معالم الإصلاح الإسلامي وتشرح أهدافه وتحمي الدعوة من كيد الأعداء وتقاوم

(١) محمد عمارة: **الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين**، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨م، ص: ٥٤

(٢) راجع كلا من :

- محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده**، ج ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢م، ص : ١٥٨
- سعيد إسماعيل علي : **موقع المسألة التعليمية في مدرسة المنار**، مرجع سابق، ص : ١٩١

(٣) محمد عمارة : **المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده**، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص : ٤١

البدع والخرافات وتحارب التعصب وتحض على التسامح والوحدة .

لذلك دعا إلى تأسيس منظمة يناط بها ثلاثة أعمال، هي: تلافي البدع ومقاومتها، وإصلاح الخطابة، والدعوة إلى الدين، وكان يدعو إلى توحيد البلاد وجمع كلمتها، وسبيل ذلك –كما يرى– هو التعليم الديني والدنيوي الصحيح(١).

ولقد تحدث عن طرائق التعليم وأساليبه والعلوم التي ينبغي الأخذ بها مع التعليم الديني، وكان بينه وبين كثير من المصلحين والمفكرين التونسيين معارك فكرية على صفحات مجلة المنار، وقد أثنى على كتاب ابن عاشور " نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم " لعلي عبد الرازق (٢).

كما كانت له رؤية تجديدية في التفسير، وهي تقوم على فكرة إبراز المقاصد القرآنية، حيث قال : " والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له وأداة أو وسيلة لتحصيله"(٣).

لقد عالج رجال مدرسة المنار بعض القضايا الاجتماعية بروح عصرية، حتى أطلق على هذه المدرسة اسم المدرسة العقلية الاجتماعية، وقد دعوا إلى

---

(١) محمد الحبيب ابن الخوجة ، مرجع سابق ، ص : ٨٢

(٢) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ٢٦ – ٢٧

(٣) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، ج١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص : ١٧

الحرية السياسية المتمثلة في الشورى، والحرية من العبودية لغير الله، وحرية العقيدة [1].

وكانت أهم ميادين ومجالات الإصلاح والتجديد لدى هذه المدرسة تتمثل في تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، وبذلك يكون الدين صديقا للعلم وباعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة [2].

من كل ما سبق يمكن استخلاص القواسم المشتركة التي انطلقت منها مدرسة المنار ممثلة في جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا - رغم الاختلاف في لغة الخطاب عند كل منهم - والتي دارت حول ضرورة إحياء الفكر الإسلامي الصحيح، والاستفادة من تراثنا العلمي وإسهام المسلمينفي مجال العلوم، ونشر الثقافة الإسلامية، وإصلاح المؤسسات التعليمية، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، والأخذ من الحضارة الغربية بعد معايرتها بمعاييرنا الاجتماعية والثقافية الإسلامية [3].

---

(١) محمد إبراهيم عبد الرحمن : مدرسة المنار التفسيرية ملامحها – آثارها – نقدها ، **ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي الحديث** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومركز الدراسات المعرفية، مرجع سابق ، ص : ٢١

(٢) راجع كلا من :

- محمد عمارة : **أزمة الفكر الإسلامي المعاصر** ، سلسلة الإسلام دين الحياة، الكتاب الخامس ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص : ٧٣ – ٧٤
- محمد عمارة : **الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين** ، مرجع سابق، ص : ٤٧ – ٥٠

(٣) عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب : الإصلاح الفكري بين مدرسة المنار ومدرسة إسلامية المعرفة ، **ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي الحديث** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومركز الدراسات المعرفية ، مرجع سابق ، ص : ١٠٢

٤- المدرسة الإصلاحية في المغرب العربي

لقد اكتسبت الحركة الإصلاحية في المغرب العربي صبغة علمية في مبدئها وتطورت على يد كوكبة من العلماء، **منهم** :

١- الشيخ محمود قبادو (١٨٠٢م – ١٨٦١م)، وهو شخصية إصلاحية ذات شأن في حركة التجديد، فقد عمل على نشر الوعي الديني، وحَضَّ الطلاب في الزيتونة على أن يجمعوا إلى علومهم الدينية والعربية علوم الرياضيات، رابطا بين تقدم المسلمين وإقبالهم على جميع العلوم وبين تأخرهم وإهمالهم للرياضيات وعلوم الدنيا، ورأى أن الحكم الشوري هو حجر الزاوية في الإصلاح (١).

٢- الوزير خير الدين باشا التونسي (١٨١٠م – ١٨٩٠م)، رائد الإصلاح التونسي الأول، وقد تأثر بآراء رفاعة الطهطاوي وبعض المفكرين الغربيين، كما تأثر بنظريات ابن خلدون، وقد صدر له كتاب " أقوم المسالك في معرفة أحوال المالك "، وكان الكتاب عبارة عن صيحة فزع في المجتمع التونسي لاستنهاض الهمم ونقد أساليب الحكم وضرورة الاقتباس من أساليب الغرب، ودعا إلى دراسة عوامل تأخر المسلمين وتقدم غيرهم من الأمم، ولهذا كانت حركته الإصلاحية لها أثر عميق في فكر ابن عاشور (٢).

---

(١) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ٢٠

(٢) راجع كلا من :

- المرجع السابق ، ص : ٢٣
- محمد محفوظ : **تراجم المؤلفين التونسيين** ، ج٢ ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص : ٢٧١- ٢٧٩

٣- الشيخ سالم بو حاجب (١٨٢٧م – ١٩٢٤م) أحد أهم شيوخ ابن عاشور، وقد استعان به الوزير خير الدين باشا في تحرير كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " وقد عُيِّن في لجان متعددة لضبط الإصلاحات الأساسية كتأسيس المدرسة الصادقية وإحداث إدارة الأوقاف (١).

أما المنابع التي انطلق منها تيار الإحياء والتجديد في المشرق والمغرب قد تمثلت فيما يأتي (٢):

١- مبادئ الإسلام النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية .

٢- ثوابت التراث العربي الإسلامي .

٣- كل ما أبدعه العقل الإنساني في مختلف الحضارات .

ولقد اتضح مما سبق أن من أهم مجالات الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ذلك المشروع الإصلاحي المتعلق بالتربية والتعليم، فمع تطور الأحداث السياسية والاجتماعية في العالم العربي أصبح هذا الفكر الإصلاحي التربوي مسئولية عظيمة، فمنذ أكثر من قرن ونصف والمشروع الإصلاحي التربوي يحتل المكانة الأولى لدى هذه النخبة من العلماء المصلحين والمجددين الذين اختلفت مفاهيمهم ومرجعياتهم وتواصلت جهودهم

---

(١) الصادق الزمرلي : أعلام تونسيون ، ط١ ، تقديم : حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص : ١٧٢

(٢) محمد عمارة : أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، مرجع سابق ، ص : ٧١- ٧٢

وتسابقت من أجل انتشال الشعوب العربية والإسلامية من الوهن الذي أصابها في عصور التخلف والركود [1].

وقد تأثر ابن عاشور بالحركات الإصلاحية التجديدية في عصره، فالحركتان الإصلاحيتان المشرقية والمغربية قد تحولتا إلى مدرسة واحدة، ولا سيما بعد أن اقتصرتا على الإصلاح الديني والتربوي، ومن ثم فإن مشروع ابن عاشور الإصلاحي هو امتداد ومواصلة لجهود السابقين وحلقة من حلقات الحركة الإصلاحية التي قادها محمود قبادو وخير الدين التونسي وسالم بو حاجب في المغرب العربي، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا في المشرق العربي، ولكنه تميز عنهم بتفرده بوضع برنامج إصلاح التعليم الزيتوني، حيث يعد ابن عاشور أول من وضع برنامجا تطبيقيا عمليا لإصلاح التعليم الديني في تونس جمع فيه بين العلوم الشرعية والعربية والعلوم العصرية[2]، وبذلك أضفى على عمله صبغة تجديدية أكثر انفتاحا ومواكبة للعصر [3]، كان ذلك من خلال

---

(١) راجع كلا من :

- الطيب الغزي : قراءة في الفكر الإصلاحي للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، تونس ، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٢ مارس ٢٠٠٧م، ص : ١
- خالد الطرودي : المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، مرجع سابق ، ص : ٥٥٤

(٢) سليمان الشواشي : موقع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في الفكر الإصلاحي، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، مرجع سابق ، ص : ٧٩

(٣) الطيب الغزي : قراءة في الفكر الإصلاحي للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص:٤

كتابه " أليس الصبح بقريب"، ولم يتقصر اتجاه ابن عاشور على إصلاح التعليم فقط، بل صاغ رؤية إسلامية معاصرة لإصلاح الفرد والمجتمع، وكان ذلك من خلال كتابه " أصول النظام الاجتماعي في الإسلام "، واهتم اهتماما عظيما بقضية مقاصد الشريعة الإسلامية من خلال كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية"، ثم مؤلفه العظيم "التحرير والتنوير" الذي حوى الكثير من هذه القضايا بروح عصرية.

وسوف يذكر الباحث عند الحديث عن العوامل التي شكلت شخصية وفكر ابن عاشور في هذا الفصل - مدى تأثره بفكر الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا تحديدا ؛ لما لهما من دور عظيم في تشكيل فكره الإصلاحي التجديدي، بالإضافة إلى شيوخه التونسيين الذين أثروا فيه .

ثانيا : سيرة ابن عاشور وجهوده العلمية :

ولد العلامة محمد الطاهر ابن عاشور بالمرسى، وهي ضاحية جميلة من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية، تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتبعد عشرين كيلو مترا عن مدينة تونس، وكانت ولادته عام (١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م) بقصر جده لأمه الصدر الأعظم محمد العزيز بوعتور[١]، وقد توفي يوم الأحد الثالث عشر من رجب عام ١٣٩٣ هـ الموافق الثاني عشر من أغسطس عام ١٩٧٣م [٢].

(١) بلقاسم الغالي : من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم ، مرجع سابق ، ص : ٣٧

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة : شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور ، ج١ ، مرجع سابق ، ص : ١٦٣

أما عن نسبه فهو الأستاذ الشيخ الإمام العلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، وأمه فاطمة بنت الشيخ الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن محمد بن محمد بوعتور، وقد اشتهرت أسرة آل عاشور بالعلم والفضل في " تونس "، وهي أسرة أندلسية الأصل، انتقلت إلى مدينة "سلا" ببلاد المغرب سنة (١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م)، ثم إلى مدينة "تونس" سنة (١٠٦٠ هـ / ١٦٤٨م)، وكان أول من دخلها من أفراد الأسرة، هو أبو عبد الله محمد بن عاشور الحسني[١].

وقد نشأ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في رحاب العلم والجاه، فقد خُصّ منذ نشأته بعناية فائقة من والده الذي كان رئيسا لجمعية الأوقاف، وأيضا من جده للأم الوزير العالم محمد العزيز بوعتور (المتوفى سنة ١٩٠٧م)، وكانت هذه الصلة بين الجد العالم والحفيد النبيه تزداد وثوقا على مر الأيام[٢].

وقد بدأ تعلم القرآن الكريم في سن السادسة من عمره، فقرأه وحفظه على المقرئ الشيخ محمد الخياري بمسجد أبي حديد المجاور لدار جده بنهج الباشا في مدينة تونس، ثم حفظ مجموعة من المتون العلمية، كمتن الآجرومية في النحو، وابن عاشر في الفقه المالكي وغير ذلك، كما تلقى المبادئ الأولى في قواعد اللغة على الشيخ أحمد بن بدر الكافي[٣].

---

(١) المرجع السابق ، ص : ١٤٧

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٤٧– ١٤٨

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٤٨

ولما بلغ أربعة عشر عاما التحق بجامع الزيتونة عام(١٣١٠هـ / ١٨٩٣م)، وشرع ينهل من معينه في تَعَطُّش وحب للمعرفة بتوجيه من والده وجده للأم وأساتذته، وكان لا يقتصر على التلقي، بل كان ينتقد ما يتلقاه بالنقد الحصيف المتمرس حتى ثقلت ملكته، وقد درس في هذه المرحلة من دراسته بجامع الزيتونة علوما شتى، منها النحو والصرف والبلاغة والمنطق من جهة، وعلوم المقاصد كتفسير القرآن والقراءات والحديث ومصطلح الحديث والكلام والفقه وأصول الفقه والفرائض من جهة ثانية [١].

وبعد تخرجه وحصوله على شهادة التطويع عام ١٣١٧هـ، ١٨٩٩م، عاد إلى حضور دروس الشيخ محمد النخلي، فقرأ عليه الوسطي في العقيدة، وشرح المحلى على جمع الجوامع في أصول الفقه، والمطول في البلاغة، والأشموني في النحو، كما حضر مع صديقه الشيخ محمد الخضر حسين [٢] درس الأستاذ عمر ابن الشيخ في تفسير البيضاوي، ودرس الأستاذ محمد النجار لكتاب المواقف، ودرس الشيخ سالم بو حاجب لكتابي البخاري والموطأ بشرحيهما [٣].

---

(١) راجع كلا من :

- بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص ٣٧ – ٣٨
- محمد الحبيب ابن الخوجة ، مرجع سابق ، ص: ١٤٨

(٢) محمد الخضر حسين ، ولد بتونس سنة ١٢٩٣هـ ، ١٨٧٣م ، من أسرة علم وصلاح ، كان من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة ، وممن تولى مشيخة الأزهر (توفي : ١٣٧٧هـ ، ١٩٥٨م) . انظر (خير الدين الزركلي : **الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء** ، ج٦ ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص : ١١٣)، وانظر (محمد خير رمضان يوسف : **معجم المؤلفين المعاصرين** ، ج٢ ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، ٢٠٠٤م ، ص: ٥٨٤)

(٣) محمد الحبيب ابن الخوجة ، مرجع سابق ، ص: ١٥٢ - ١٥٣

ولقد خلّف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عدداً كبيراً من المؤلفات في مختلف نواحي العلم والمعرفة، في الحديث، والتفسير، واللغة، والنحو، والبلاغة، والأدب والدراسات الإسلامية عموما، والتاريخ وغير ذلك، وهذه المؤلفات تنبئ عن عظيم مكانته في العلم ورفعة شأنه،

وقد بلغت هذه المؤلفات حوالي أربعين كتابا تأليفا وتحقيقا، أهمها ما يأتي (١):-

١- تفسير "التحرير والتنوير"، طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م .

٢- النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح، طبعة الدار العربية للكتاب بتونس وليبيا، ١٩٧٩م .

٣- كشف المغطَّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، طبعة الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٥م .

٤- مقاصد الشريعة الإسلامية، ط٢، طبعة دار النفائس، عمان، ٢٠٠١م .

٥- أصول التقدم في الإسلام، طبعة الشركة التونسية للتوزيع، (د . ت) .

٦- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ط٢، طبعة الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٥م .

---

(١) راجع كلا من :

- بلقاسم الغالي، مرجع سابق، ص : ٦٨- ٧١
- إياد خالد الطباع : **محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه**، مرجع سابق، ص : ٩٥ – ١٥٥
- أحمد بن محمد بن قاسم مذكور: **المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران**، رسالة ماجستير، ٢٠٠٨م ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، كلية الدعوة وأصول الدين ، ص : ٥٧ - ٥٩

٧- أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية،ط٢، طبعة دار السلام بالقاهرة، ودار سحنون بتونس، ٢٠٠٦م.

٨- تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة، طبعة الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٥م.

٩- نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٤هـ.

١٠- أصول الإنشاء والخطابة، طبعة الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م .

ويعد تفسير "التحرير والتنوير" من أهم الأعمال العلمية الإسلامية، لا على مستوى تونس والشمال الإفريقي فحسب، بل على مستوى العالمين العربي والإسلامي، ولذلك انتهت إلى الشيخ ابن عاشور الرئاسة العلمية في شمال إفريقيا ممثلة في الجامعة الزيتونية [1].

إن تفسير التحرير والتنوير يَنُمُّ عما يتميز به صاحبه من تَبَحُّر في العلم ودقة في معالجة الموضوعات وتوضيحها، كما يعد صاحبه من كبار مفسري القرآن الكريم في العصر الحديث، وقد احتوى تفسيره "التحرير والتنوير" على خلاصة آرائه الاجتهادية والتجديدية[2].

(١) محمد صلاح المستاوي : القيمة العلمية لتفسير الإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، **مجلة البلاغ** ، العدد ٧ ، ١٩٨٤م ، ص : ٤٨

(٢) راجع كلا من :

- الصادق الزمرلي : **أعلام تونسيون** ، مرجع سابق ، ص : ٣٦٦
- أحمد بن محمد بن قاسم مذكور : **المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران** ، مرجع سابق، ص:٥٤

فهو تفسير عصري يعكس بصدق توجهات العصر، فقد حوى مادة علمية مكثفة في مجال التفسير وعلومه كانت في قوامها ومجموعها دراسة أصلية للفظ والمعنى والمحتوى والقضايا الثقافية المتنوعة، وهي دراسة جديدة في معطياتها ومعالجتها، وقد أضافت كثيرا، فمن "التحرير والتنوير" يمكن أن نستخرج كتبا ودراسات عديدة قيِّمة في علوم متنوعة (١)، وبذلك يصدق أن نسمي هذا التفسير بأنه تفسير إصلاحي (٢).

ومما لوحظ في تفسير ابن عاشور أنه كان يحرص على إظهار الآداب التي توحي بها الآيات، والمعاني التي تحملها لتربية النفوس وتهذيبها، وهو بهذا يبرز الجانب التربوي في الآيات الذي يعدّ من أهم الجوانب التي تظهر بها وظيفة القرآن الأولى وهي الهداية (٣).

لقد سلك ابن عاشور في تفسيره منهجا متميزا، فجاء محتويا على مزايا عظيمة ومتضمنا علوما كثيرة وفوائد جمة وربما كانت عزيزة، وقد بذل في هذا التفسير قصارى جهده، واستجمع قواه العقلية والعلمية، فتجلت فيه مواهبه المتعددة، وتبين من خلاله علوّ كعبه، ووفرة اطلاعه، وعلميته الفذة النادرة،

---

(١) هيا ثامر مفتاح العلي: **الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير**، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٤م، ص: ٥١٣

(٢) فتحي حسن ملكاوي: **مستخلصات من بحوث ومناقشات المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص: ٦٣٥

(٣) هيفاء بنت عثمان فدا: منهج ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، متاح على موقع جامعة أم القرى: http://uqu.edu.sa/page/ar

ومنهجه التربوي، ونظراته الإصلاحية، وقد بيَّن ابن عاشور منهجه بإجمال، **ويمكن حصر ذلك بما يلي** [(١)]:-

- بدأ تفسيره بمقدمات عشر ؛ لتكون عونا للباحث في التفسير، وتغنيه عن مُعاد كثير، وهذه المقدمات تضمنت علما غزيرا عظيما.
- عنى باستنباط الفوائد وربطها بحياة المسلمين .
- حرص على استلهام العبر من القرآن ؛ لتكون سببا في النهوض بالأمة .

هكذا كان الشيخ ابن عاشور متميزا في منهجه التفسيري، مظهرا ثقافة إسلامية عقلية تنبه الغافلين وتوقظ النائمين وتستلهم من هدي القرآن وأثره في النفوس ما يدفع الأمة الإسلامية إلى التطور حتى يستعيد المسلمون بهدايته سيرتهم الأولى في القوة العلمية والسياسية ويتحقق بذلك منهج الشيخ ابن عاشور في الإصلاح التربوي [(٢)] .

كما أن العلامة محمد الطاهر ابن عاشور أدرك أن إصلاح التعليم هو المقوم الأساسي في كل دعوة جادة والمعبر أو الجسر الوحيد الأكيد لكل أمة تسعى إلي المدنية والنهوض، وقد عجب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور للمصلحين كيف تركوا هذا الأمر المهم الخطير، وتوجهوا بإصلاحهم الي معالجة قضايا لا تبلغ شأو هذا العنصر الايجابي المؤثر [(٣)].

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٨ – ٩
- محمد بن إبراهيم الحمد : **مدخل لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور** ، ط١ ، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م ، ص : ٣٧

(٢) بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص : ٨٦

(٣) محمد مسعود جبران : منهج محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التليم الإسلامي ، **مجلة كلية الدعوة الإسلامية بليبيا** ، العدد الخامس ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٨٨م ، ص : ٢١٠

ويمكن إجمال الإصلاحات التي قام بها ابن عاشور تجاه التعليم الزيتوني فيما يلي [1]:

١- إصلاحات ذات صبغة عملية .

٢- إصلاحات ذات صبغة علمية .

٣- إصلاحات ذات صبغة تربوية .

وقد قام ابن عاشور بذلك اقتناعا منه بالمهمة التاريخية الملقاة على عاتقه، فقد بذل كل ما في وسعه لإصلاح التعليم الزيتوني وتطويره وتنشيط الدروس في كافة الفروع الزيتونية المنتشرة داخل البلاد، وسرعان ما أسفرت جميع تلك الجهود عن النتائج المنشودة، وأكبر دليل على ذلك الزيادة السريعة في عدد الطلبة المتجهين إلى جامع الزيتونة من كل صوب وحدب لمزاولة دراستهم واستحقاق الشهادات العلمية الممنوحة لهم [2].

ونظرا لما سبق من أعمال ابن عاشور الإصلاحية وجهوده العلمية وموقعه المتميز في دائرة تجديد الفكر الإسلامي المعاصر فقد أثنى عليه كثير من علماء عصره وتلاميذه، فيقول عنه الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة : كانت وجوه تصرفاته ومختلف نواحي أنشطته وأعماله متسمة بالرصانة العلمية والاستقلالية الفكرية والالتزام بأحكام الشريعة والدين والبصر بآيات الله في الكون والتفتح على ما يجري بأطراف العالم وحب الخير للكافة وبذل الجهد فيما ينفع الناس .نلمس ذلك كله في حياته العلمية والإدارية والقضائية وفي إنتاجه المتنوع الوفير

(١) بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص : ٥٨ - ٦١

(٢) الصادق الزمرلي ، مرجع سابق ، ص : ٣٦٢- ٣٦٣

وقد ارتفعت به همته العالية إلى العناية بجملة من الفنون كان موفقا في الوقوف على دقائقها، بارزا في استخلاص مقاصدها، متعاملا مع مصادرها تعامل من تعددت مواهبه واتسع أفقه الفكري، وكان قديرا لا على الإحاطة بالمادة والكتاب بترديد ما علمه من ذلك فحسب، بل على النظر والمشاركة والنقد أيضا لكل ما يقع تحت يده، وذلك بما خصَّه الله تعالى به من سعة العارضة وقوة الذاكرة ودقة المقارنة والمناظرة بين مختلف المراجع والأقوال والآراء العلمية [1]

ويقول محمد الطاهر الميساوي في مقدمة كتاب " مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور " : إن ابن عاشور ليس اسما عاديا في محيط الثقافة الإسلامية، بل إن اسمه وجهاده قد ارتبطا ارتباطا وثيقا بواحدة من أهم مؤسسات هذه الثقافة وبرمز من أبرز رموزها في النصف الأول من القرن العشرين، ألا وهي جامعة الزيتونة، ولقد عرفت الزيتونة محمد الطاهر ابن عاشور طالبا نابها متميزا في تحصيله العلمي، وخبرته أروقتها مدرسا متحمسا مقتدرا، وعهده طلابها وأساتذتها داعية لإصلاح التعليم الزيتوني وحاملا للوائه وعاملا في سبيله من مواقع مختلفة، كما عرفت تونس ابن عاشور شيخا لجامعها الأعظم – الزيتونة – وخبرته قاضيا ومفتيا يتوخى تحقيق العدل والالتزام بالحق في أقضيته وفتاويه [2].

ثالثا : أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل شخصية وفكر ابن عاشور :

لقد تعددت العوامل والظروف التي شكَّلت الفكر الإصلاحي عند ابن عاشور، **ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى عوامل موضوعية، وأخرى ذاتية:**

---

(١) محمد الحبيب ابن الخوجة ، مرجع سابق ، ص: ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) محمد الطاهر الميساوي : **الجزء الأول من كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور** ، ط٢ ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠١م ، ص : ١٨- ١٩

١ - العوامل الموضوعية

تدور العوامل الموضوعية حول مدى تأثر ابن عاشور بأسرته وشيوخه، وتعدد روافد الفكر الإصلاحي لديه، **وسوف يتناول الباحث هذه العوامل بشيء من التفصيل فيما يأتي : -**

أ- الاتجاه العلمي لأسرة ابن عاشور

من خلال ما سبق من عرض لترجمة ابن عاشور ومكانة أسرته من ناحية، ولمراحل حياته العلمية من ناحية أخرى نستطيع أن نكشف عن الأبعاد التي تتبلور فيها شخصيته العلمية، وأهمها الأسرة، حيث ظهر دور الأسرة في الحياة التونسية عامة، وبالتالى سيكون أثرها في ابنها وسليلها أقوى من باب الأَوْلَى، فأقرب أجداده لأبيه إليه - محمد الطاهر - الجد الأدنى - هو الذي تولى خطة الإفتاء وقضاء الجماعة وتصدر للتدريس بالجامع الأعظم، ولم يهجر الاجتهاد ولا مال إلى التقليد، فهو لا يذكر فقهًا إلا مرجحًا بدليل له، ويقول:"لا يعجبني أن أقول هكذا قال الفقهاء، وما يمنعني أن أعلم الدليل كما علموه"(١)، وليس من الغريب أن ترى مخايل هذه الصفات العلمية في محمد الطاهر ابن عاشور - الحفيد - من تحرر الفكر واستقلال الشخصية، فليس من مجرد المصادفة إذن أن نجد ابن عاشور الحفيد ينظر في نسخ دلائل الإعجاز وينتقدها، بل ويشرح الكتاب ويعلق عليه بتعاليق ما تزال مخطوطه تنتظر من يخرجها إلى النور(٢).

---

(١) محمد الخضر حسين : **تونس وجامع الزيتونة** ، جمعه وحققه : علي الرضا التونسي ، ط١، المطبعة التعاونية، دمشق ، ١٩٧١م ، ص: ١١١ .

(٢) مشرف بن أحمد جمعان الزهراني : **أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير** ، مرجع سابق ، ص : ٣١

وأما جده لأمه، فلعل له أعظم الأثر في شخصيته العلمية، حيث يُعَدُّ شيخه الأول، إذ تولى رعايته منذ الرضاعة، فقد نقله منذ ولادته إلى الجناح الخاص به في قصره، وظل يتعاهده أستاذًا ومربيًا حتى وفاته، وهذا الجد هو الشيخ الأستاذ الوزير محمد العزيز بوعتور، الذي تلقى العلوم الدينية والعربية – بعد حفظه للقرآن الكريم – على كبار علماء الزيتونة، وله إلى جوار ذلك أسانيده العالية الجامعة [1].

وقد مارس الشيخ الوزير التدريس في جامع الزيتونة بإجازة من شيوخه، فتحدثنا المصادر أنه درس كتبًا عديدة، منها شرح المختصر للسعد التفتازاني في البلاغة، والملاحظ أن ابن عاشور – الحفيد – قد درسه أيضًا بعد ذلك، ولعل من الأدلة على علو همته العلمية أنه كان يحضر الدروس العليا بجامع الزيتونة وهو يومئذ وزير ومن كبار رجال الدولة [2]، ولا شك أن هذه الهمة العالية إلى جانب أخلاقه التي استرعت انتباه المسئولين كانت وراء حرصهم على تقليده أرفع المناصب، ابتداءً من رئاسة رتبة وزارة المال إلى رتبة أمير اللواء، ثم أمير الأمراء، ثم وزير المالية، ثم مشاركته في تنظيم التدريس بجامع الزيتونة، إلى أن توج ذلك كله بتقليده منصب الوزارة الكبرى سنة ١٣٠٠هـ [3].

---

(١) هيا ثامر مفتاح العلي: **الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ص: ١٢٠

(٢) محمد محفوظ: **تراجم المؤلفين التونسيين**، مرجع سابق، ج٣، ص: ٣٥٥

(٣) مشرف بن أحمد جمعان الزهراني: **الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ص: ٣١

ويكفي من إجلال أعلام عصره له - لرسوخه في العلم - أن أعضاء المحكمة الشرعية العليا وقضاتها إذا اختلفوا في فهم بعض النصوص أو القواعد أو تطبيقها على مستجدات العصر رفعوا إليه ما يجري بينهم من الخلاف، فيكون رأيه هو حسم المسألة (١).

إن الحديث عن الجد للأم يشعرنا بأننا نتحدث عن ابن عاشور نفسه (الحفيد)، لا عن جده الوزير ؛ لتشابه ما بينهما حتى في ما توليا من المناصب، وليس هذا غريبا فشخصية الجد واضحة في شخصية الحفيد، وقد نوَّه ابن عاشور بفضل جده مرارا وذكره في مساق الاعتزاز كثيرا في تفسيره " التحرير والتنوير " (٢).

ومن هنا كان لهذا الجد الوزير الدور العظيم في التنشئة العلمية للحفيد، والتي أقلُّها أنه نسخ له كتاب مفتاح العلوم للسكاكي بيده وأهداه إليه، ونسخ له متن البخاري في جزء فريد، وجمع له في دفتر كبير نصوصًا من عيون الأدب وأمهات الكتب، فكان المرشد الأمين والموجه القدير في شتى المجالات العلمية والأدبية والإصلاحية (٣).

ومن ثم تُعَدّ نشأة ابن عاشور من خلال هذه الأسرة نشأة صالحة وعميقة الجذور، بحيث كان لها الأثر الأبقى والأعمق في هذه الشخصية .

---

(١) محمد الخضر حسين : **تونس وجامع الزيتونة** ، مرجع سابق ، ص: ٩١

(٢) مشرف بن أحمد جمعان الزهراني : **الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير** ، مرجع سابق ، ص : ٣٢

(٣) بلقاس الغالي ، مرجع سابق ، ص: ٤٢

ب – أثر شيوخه في تكوينه العلمي :

إن الاستعداد الفطري والهمة العالية مثلما لقَّحتها أسرة الشيخ ابن عاشور فيه منذ بدايات تكوينه، فقد نمَّتها جماعة من شيوخه الذين درس عليهم العلم، واكتسب منهم صفات ميزتهم بجانب علمهم، فالتلميذ الواعي هو الذي يأخذ عن شيخه أخلاقه وسمته وشخصيته مثلما يأخذ علومه ومعارفه، ولعل من أبرز هؤلاء الشيوخ بعد جده الوزير شيخه الجليل عمر بن أحمد بن علي بن قاسم المعروف بـ ابن الشيخ (١٢٣٩هـ – ١٣٢٩هـ)، وقد نشأ نشأة تعليمية باهتمام والده وتحت رعاية شيوخه حتى باشر التدريس بجامع الزيتونة بإلحاح من شيوخه، واستمر مرتبطا بهذه الجامعة مدرسا وناظرًا حتى أواخر حياته وهي فترة نحو الخمسين عامًا، ومن أشهر تلامذته في هذه الفترة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ محمد مخلوف صاحب كتاب (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية)[1].

ولعل محمد الطاهر ابن عاشور قد تأثر بدروس هذا الشيخ، حيث شكَّلت فيه جانبا مهما سواءً في معارفه أو في طريقة بحثه ودروسه، إذ تلقى عليه كتاب (الشرح المطول على متن التلخيص) وهو عينه الذي درَّسه ابن عاشور للطلاب حين تولى التدريس، وتلقى عليه أيضا شرح كتاب " المحلي على جمع الجوامع " وشرح كتاب " المواقف "[2].

(١) راجع كلا من :

- محمد الخضر حسين : **تونس وجامع الزيتونة** ، مرجع سابق ، ص : ١١٣
- مشرف بن أحمد جمعان الزهراني : **الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير** ، مرجع سابق ، ص : ٣٤

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٤

وأما تأثره بطريقة شيخه عمر بن الشيخ في المباحثة والشرح، فيكفي أنه أشار بنفسه إلى إعجابه بذلك، إذ يقول : " ما رأيت في علم علماء الزيتونة من يسلك في دروسه غير طريقة الإلقاء إلا الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ مصطفى رضوان، مع أنهما معترف لهما بقوة العلم وخاصة الشيخ عمر بن الشيخ "[1].

كما تلقى ابن عاشور العلم بفروعه المختلفة على أساتذة وعلماء أجلاء آخرين، منهم[2]:

١- **الشيخ أحمد جمال الدين**[3]، وقد قرأ عليه ابن عاشور قطر الندى في النحو، والدردير في الفقه المالكي .

٢- **الشيخ سالم بو حاجب**، وقد قرأ عليه ابن عاشور صحيح البخاري بشرح القسطلاني، والموطأ بشرح الشيخ الزرقاني .

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب التعليم العربي الاسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية** ، ط٢ ، دار السلام بالقاهرة ، ودار سحنون بتونس ، ٢٠٠٦ م ، ص : ٢٠١

(٢) راجع كلا من :

- إياد خالد الطباع : **محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه** ، مرجع سابق ، ص : ٣٠ - ٣٩
- محمد الحبيب ابن الخوجة : **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص: ١٥٥ - ١٥٦

(٣) أحمد جمال الدين – الفقيه – ولد ببني خيار ، وتلقى العلم بجامع الزيتونة ودرَّس به ، وكان من أبرز تلاميذه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، ومن مؤلفاته : بلوغ الأدب في مآثر الشيخ الذهب ، ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته إلا أنه كان حياً سنة ١٣٢٣ هـ . (انظر : محمد محفوظ : **تراجم المؤلفين التونسيين** ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص : ٥٠) ، (وانظر : محمد خير رمضان : **معجم المؤلفين المعاصرين** ، ج١ ، مرجع سابق ، ص : ١٨٤)

٣- **الشيخ : محمد صالح الشريف**(١)، وقرأ عليه ابن عاشور كتاب شرح الشيخ خالد الأزهري،وقطر الندى لابن هشام،والمكوديّ على الخلاصة في النحو، والسلم في المنطق، ومختصر السعد على العقائد النسفية .

٤- **الشيخ عبد القادر التميمي**(٢)، وقد تخرج عليه ابن عاشور في تجويد القرآن الكريم، وعلم القراءات .

٥- **الشيخ عمر بن عاشور**(٣)، وقد أخذ عنه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور لامية الأفعال وشروحها في الصرف، ومختصر السعد في البلاغة، والدردير في الفقه، والدرة في الفرائض .

٦- **الشيخ محمد بن عثمان النجار**(٤)، وقد درس عليه ابن عاشور كتاب المكودي على الخلاصة في النحو،ومختصر السعد في البلاغة،والمواقف في علم الكلام.

---

(١) ولد الشيخ محمد صالح الشريف عام ١٢٨٥هـ ، وأصل أسرته من الجزائر ، وتخرج على يد كوكبة من العلماء ، أمثال عمر بن الشيخ وسالم بو حاجب وغيرهما ، وانتصب للتدريس بالجامع الأعظم بعد حصوله على شهادة التطويع عام ١٣٠٤ هـ ، وشارك في سنة ١٣١٦ هـ في لجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة ، توفى ١٣٣٨هـ / ١٩٢١م ، (انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : **تراجم الأعلام** ، الشركة التونسية للطباعة والنشر ، ١٩٧١م ، ص : ٢١٢) .

(٢) لم أقف له على ترجمته .

(٣) هو عمر بن محمد بن العربي الملقب بعاشور ، فقيه مالكي متصوف ، درس الطاهر ابن عاشور على يده النحو والصرف والبلاغة والفقه والفرائض ، توفى سنة ١٣١٤هـ .(انظر: **الأعلام للزركلي** ، ج٥، مرجع سابق، ص: ٦٥) ، (وانظر : محمد الحبيب ابن الخوجة : **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، ج١ ، مرجع سابق ، ص : ١٥٥) ، (وانظر : محمد خير رمضان : **معجم المؤلفين المعاصرين** ، ج١ ، مرجع سابق ، ص : ٤٧٦) .

(٤) ولد ١٢٤٧ هـ ، وكان مدرسا في جامع الزيتونة ، ومن مؤلفاته : مجموع الفتاوي ، وبغية المشتاق في مسائل الاستحقاق ، وشمس الظهيرة ، وفقه أبي هريرة ، وتحرير المقال . (انظر : محمد محمد مخلوف : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، دار الكتاب العربي ، د . ت ، ص: ٤٢٢)

٧- الشيخ محمد النخلي[1]، وقد قرأ عليه ابن عاشور قطر الندى، والمكودي على الخلاصة، ومقدمة الإعراب في النحو، ومختصر السعد في البلاغة، والتهذيب في المنطق .

ج – تعدد روافد الفكر الإصلاحي عند ابن عاشور لتشمل ما يأتي :-

- **تأثره بالشيخ محمد عبده**

لقد أثر المنهج التربوي للشيخ محمد عبده [2] في فكر ابن عاشور، حيث يرى الإمام محمد عبده أن الإصلاح العام يكون عن طريق الإصلاح التربوي والاجتماعي؛ لذلك عوَّل على إنجاح هذا المنهج، فكانت زيارته الأولى إلى تونس التي وجد فيها نخبة إصلاحية حققت ما كان يطمح إليه وعلق عليها آمالا عريضة، ثم كانت زيارته الثانية إلى الجزائر وتونس، حيث قام بِتَعَهُّد ما بثَّ من أفكار إصلاحية، وتوطدت علاقته مع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ولقبه

(١) الشيخ محمد النخلي من أشهر علماء جامع الزيتونة ، ولد بالقيروان عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩م ، وكان الشيخ من أشهر دعاة الإصلاح في تونس ، فكان عضوا بالجمعية الخلدونية ، والمدرسة الصادقية والجمعية الزيتونية ، ومن مؤلفاته : رسالة في الفقه المالكي ، ورسالة في المرأة المسلمة ، وتوفي عام ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤م .(انظر : عبد المنعم النخلي : **آثار الشيخ محمد النخلي سيرة ذاتية وأفكار إصلاحية** ، تحقيق : حمادي الساحلي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م، ص: ١٨ – ٤٠).

(٢) هو الأستاذ الإمام محمد عبده حسن خير الله ، ولد سنة ١٨٤٩م ، وتوفي سنة ١٩٠٥م ، وهو فقيه أزهري ، تخرج من الجامع الأحمدي بطنطا ، ومن الأزهر في القاهرة ، ويعد السيد جمال الدين الأفغاني أستاذا له ، وقد حصل الشيخ محمد عبده على العالمية وتفوق على أقرانه ، وبدأ حياته العملية بالتدريس بالأزهر ، كما عين في وظائف القضاء والإفتاء ، وقد تعددت آثاره وتنوعت منشوراته ، وهو يعد من أشهر الرواد المصلحين والمجددين سواء في التعليم أو النواحي الاجتماعية وغيرها . انظر كتاب (**شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، مرجع سابق، ص : ٧٢-٧٤) .

بسفير الدعوة، وكان الشيخ ابن عاشور معجبا بآراء الأستاذ الإمام محمد عبده وبنقده للعلوم الإسلامية وبتجديده فيها، وكان على صلة وثيقة بما ينشر من آراء إصلاحية حول التعليم الأزهري في مصر من خلال مجلة المنار[١] .

- **صلته بالشيخ محمد رشيد رضا:**

يعد الشيخ محمد رشيد رضا [٢] امتدادا للدعوة التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ؛ لذلك كانت العلاقة بينه وبين ابن عاشور قائمة على منهج إصلاحي واحد، دعمها الأستاذ الإمام محمد عبده في حياته، وغذتها مقالات ابن عاشور على صفحات مجلة المنار، فقد كانت العلاقة مبنية بينهما عن طريق التراسل وتقريظ الكتب والرسائل [٣].

- **مناقشاته العلمية لمعاصريه :**

لقد تعددت مناقشات ابن عاشور العلمية، ومنها مناقشته لعلي عبد الرازق[٤]، حول كتابه "الإسلام وأصول الحكم" وقد ألف كتابا في نقده للكتاب السابق وهو بعنوان " نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم " [٥].

---

(١) بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص: ١٨٣

(٢) محمد رشيد بن علي رضا ، ولد سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م ، وتوفي سنة ١٣٥٤هـ – ١٩٣٥م ، أحد رجال الإصلاح الإسلامي ، وهو عالم وكاتب وأديب . انظر (**الأعلام** للزركلي ، ج٦ ، مرجع سابق ، ص : ١٢٦) وانظر أيضا (محمد خير رمضان : **معجم المؤلفين المعاصرين** ، ج ٢، مرجع سابق ، ص : ٥٩٢).

(٣) بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص : ٥١

(٤) علي عبد الرازق ، درس بالأزهر ، وكان قاضيا بالمحاكم الشرعية المصرية ، توفى سنة ١٩٦٦م.

(٥) بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص : ٥٢

• **حوار الفلاسفة :**

لم يقتصر ابن عاشور على الاستلهام من المصلحين والمجتهدين فحسب، بل اجتمع ببعض مفكري العالم الغربي وفلاسفته، ومن ذلك اجتماعه بالمستشرق "أبنهايم" المعروف بمباحثه الفلسفية والدينية ومقارنة الأديان والمذاهب الفكرية، فقد حلّ هذا العالم بتونس عام ١٩٠٥م [١].

• **المدرسة العقلية الحديثة وأثرها في فكره :**

لقد كان للمدرسة العقلية الحديثة أثرها في فكر ابن عاشور التي تشكلت في ظل الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقد كان رجال التفسير الذين أخذ عنهم ابن عاشور في معظمهم ينتمون إلى المدرسة العقلية في التفسير التي تعتمد على التفسير بالرأي، بدءاً من الرازي، فالزمخشري ، وانتهاءاً بالأستاذ الإمام محمد عبده في العصر الحديث [٢].

• **ظروف العصر ومتغيراته :**

كان عصر الشيخ ابن عاشور عصر اضطرابات وفتن، فالبلاد التونسية ترزح تحت وطأة الديون الخارجية، وكان العبث والفساد والارتشاء قد عم حكم البلاد وأثقل كاهل التونسيين بالضرائب، وضعف نفوذ الخلافة العثمانية التي انحلت دويلات هزيلة لا همّ لحكامها إلا التبذير والإسراف والجري وراء المكاسب الرخيصة، وقد تعطل العمل بعهد الأمان [٣]، وتوغل النفوذ الأجنبي

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٥٦.

(٢) فهد الرومي: منهج المدرسة العقلية في التفسير ، ج١، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٩٧هـ،ص:٦٨

(٣) عهد الأمان هو دستور صدر بتونس سنة ١٨٥٨م .

داخل البلاد، واختل الأمن، فنشط قطّاع الطرق، وكثر النهب والإغارة، وتنازع الأمراء على السلطة، وتحركت العصبية القبلية من جديد، فبدأ الناس يتنادون بالعروشية ويقتتلون لأتفه الأسباب، فتسفك الدماء وتهتك الأعراض وتفتك الأرزاق، وقد تفشى الجهل في المجتمع التونسي وعمت الفوضى، وساءت الأحوال الاقتصادية للأفراد والدولة، وفرَّ أحد الوزراء بأموال الشعب إلى فرنسا (١).

وهذه الفوضى انعكست على الجانب الاجتماعي والاقتصادي والديني والأخلاقي والعلمي، حيث سيطرت الخرافات والأباطيل والبدع على أذهان العامة، كما سيطرت الطرق الصوفية ورجال الزوايا على عامة الناس، وسلبتها أموالها باسم الدين (٢).

وبدأت أطماع الاستعمار في تونس ظاهرة للعيان، حيث تَدَخَّل في شئون الدولة بدعوى حماية الرعايا الأجانب من اليهود وغيرهم، ووضع الميزانية التونسية تحت الرقابة الأجنبية ؛ لضمان حسن التصرف حتى تتمكن من خلاص الديون الخارجية، ورغم الدعوات الإصلاحية التي تنادي بالنهضة في جميع شئون المجتمع إلا أن هذه الدعوات سرعان ما اصطدمت بأنواع من الصعوبات

---

(١) بلقاسم الغالي : **من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص : ١٧ – ١٨

(٢) رانية جهاد الشوبكي : **الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسير التحرير والتنوير** ، مرجع سابق ، ص : ٧

الداخلية والخارجية سقطت بسببها البلاد في حالة من الدمار والخراب والفوضى وأحاطت بها عوائق الحرب الأهلية والمجاعات والأوبئة [1].

هذه هي الحالة العامة، أما في مجال التعليم خاصة فكان وزير المعارف فرنسيا، وله التصرف المطلق في التعليم العام، فإليه يرجع النظر في جميع المعاهد العلمية، ومديرو المدارس الحكومية كلهم فرنسيون، وقد عملت حكومة الاحتلال على تضييق دائرة التعليم ما استطاعت، فلم توجد في تونس آنذاك كلية للطب ولا للهندسة ولا مدرسة للصنائع أو الكيمياء أو الطبيعيات إلا الذين يرحلون إلى أوربا ويحوزون على الشهادات العليا من إحدى الجامعات هناك، ومن العجيب أن تكون المدارس القرآنية الأهلية تابعة لوزير المعارف الفرنسي، كما بقي جامع الزيتونة مدة تابعا في إدارته لوزير المعارف الفرنسي،ثم ألحقه بوزارة الداخلية، وقد حارب الفرنسيون اللغة العربية بضراوة، وجعلوا حظها في التعليم بمدارس الحكومة دون حظ اللغة الفرنسية [2].

وفي ظل هذه الأوضاع والظروف المتردية ولد، ونشأ، وتربى، وتعلم، وتكوّن، ودعا، ووعظ، وأرشد، وكتب، وناظر.الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ، وبسبب تردي الأوضاع وخطورتها على الوجود الحضاري والإسلامي

---

(١) بلقاسم الغالي : **من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص : ١٨

(٢) راجع كلا من :
- محمد الخضر حسين : **تونس وجامع الزيتونة** ، مرجع سابق ، ص : ١٤٠
- جمال محمود أبو حسان : **تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية ونقدية** ، مرجع سابق ، ص : ٢

انبرت الحركات الإصلاحية في جميع الأقطار تحرك الهمم، وتوقظ الضمائر، وتنير الطريق، فاجتمعت عوامل النهوض الداخلية والخارجية لتصنع الرجال المصلحين والعلماء المجددين أمثال محمد الطاهر ابن عاشور [1].

إن ابن عاشور عاصر مرحلة الاستعمار الفرنسي لبلاده، ولم يكن بعيدا عن سهامه وسهام الحاقدين عليه والمخالفين لمنهجه الإصلاحي التجديدي، فتعرض الشيخ لمحنة قاسية، عرفت بمحنة التجنيس [2].

---

(١) أحمد عيساوي : العلامة المجدد والداعية المصلح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وأثره في الحفاظ على التراث العربي والإسلامي ، **مجلة آفاق الثقافة والتراث** ، تصدر عن قسم الدراسات بمركز الماجد للثقافة والتراث ، دبي ، العدد الثالث ، ٢٠٠٣ م، ص : ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ملخص هذه المحنة أن الاستعمار الفرنسي أصدر قانونا في أكتوبر سنة ١٩١٠م ، عرف بقانون التجنيس ، يتيح لم يرغب من التونسيين التجنس بالجنسية الفرنسية ، ثم أصدر قانونا آخر في ديسمبر سنة ١٩٢٠م ، متضمنا إغراءات مادية لمن يتجنس بالفرنسية ، فتصدي الوطنيون التونسيون لهذا القانون واعتبروا القائم بهذا العمل (المتجنس) مرتدا عن الإسلام يعامل كما يعامل المسلم المرتد ؛ لذا منعوا المتجنسين من الدفن في مقابر المسلمين ، ووقعت مصادمات بين السلطة الفرنسية وبين العناصر الوطنية الإسلامية ؛ فلجأت السلطات الفرنسية إلي الحيلة لاستصدار فتوى تضمن للمتجنس التوبة، وذلك عن طريق سؤال وقع التوجه به إلي المجلس الشرعي ، وكان ابن عاشور يتولى مشيخة الإسلام ورئاسة المجلس الشرعي لعلماء المالكية آنذاك ، فأفتى المجلس صراحة بأنه يتعين على المتجنس عند حضوره لدى القاضي أن ينطق الشهادتين ، ويتخلى في نفس الوقت عن جنسيته التي اعتنقها ، ورغم حجب هذه الفتوى من قبل المقيم العام الفرنسي بتونس آنذاك (منصورون) ؛ لعدم استجابتها لمطامحه فإن الشيخ ابن عاشور أتهم تهمة لوثت سمعته ، وشككت في دينه ووطنيته ، ونالت من نزاهته وإخلاصه ، وجعلته في صعيد واحد مع المتواطئين مع المستعمر ، فابتلى الشيخ بهذه المحنة ، ولكنه صبر على هذا الامتحان العصيب الذي امتد على مدى ثلاثة عقود أو أكثر ، ولم يهن عزمه ولم يضعف ولم ينجر إلى منطق المشاحنات والاتهامات الصبيانية التي وجهت إليه . انظر (بلقاسم الغالي : **من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص : ١٣٨ – ١٤٥)

وبعد الاستقلال عن الاحتلال اضطلع ابن عاشور في هذه المرحلة بمسئوليات عديدة ؛ لأنها صادفت تفوقه العلمي ونضجه الفكري، وهي مرحلة اتسمت بتحولات خطيرة على الصعيد الفكري والاجتماعي، فقد شهدت صراعات كبيرة جرَّاء التبعية الثقافية والدسائس السياسية، التي كانت ترمي إلى فصل تونس عن كيانها العربي الإسلامي، الأمر الذي حتّم على الطبقة العلمية الدينية الإسلامية الدخول في صراع شديد وعنيد ؛ لحمل الحكم التونسي في عهد الحبيب بورقيبة على احترام الواقع التاريخي والاجتماعي لتونس، وكان الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، في هذه المرحلة من الأعلام الذين أسندت لهم مهمة حمل عبء هذا الصراع، وقيادة النضال في هذا الاتجاه [1].

لقد كانت مسيرة ابن عاشور لوحة غنية للحياة الثقافية والفكرية والسياسية في عصره، وكانت مرآة صادقة انعكست عليها أحداثه وتياراته وصراعاته على مدى مراحل عدة احتدمت فيها هذه الصراعات، واندلعت حروب، وقامت ثورات، وأُنْجِزت اكتشافات في العلوم والأفكار، وظهرت مذاهب، وتيارات في السياسة والإصلاح كما في الآدب والفنون والعلوم الإنسانية، فكان لهذه الأحداث مكانها البارز في تفكير هذا المصلح، ففي هذه البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية نشأ العالم محمد الطاهر ابن عاشور [2].

٢- العوامل الذاتية :

تدور العوامل الذاتية لدى ابن عاشور والتي كان لها الدور العظيم في تشكيل فكره الإصلاحي حول ما يأتي : -

---

(١) محمد حسين: **التنظير المقاصدي عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق ، ص: ٣٦

(٢) بلقاسم الغالي ، مرجع سابق ، ص : ١٧ – ١٨

أ - الاستعداد الفطري والهمة العالية والقدرات الذهنية :

إن العناية والرعاية من قِبَل الأسرة لو لم تصادف بذرة صالحة في ابنها وحفيدها لما آتت أكلها أو أينعت وأزهرت، ولكنها صادفت نبتة طيبة التلقي، حسنة الاستعداد بما وهب لها الله سبحانه من فطرة سليمة وذهن ثاقب وقَّاد [1].

ولعل هذا الاستعداد كان من أهم عوامل التكوين العلمي لابن عاشور، حيث شغف بالعلم وظهرت همته فيه عالية منذ بدايات طَلَبِه، وقد نَتَجَ عن ذلك أنه حصَّل النهايات العظمى في المواد التي اختبر فيها في جامع الزيتونة ليحصل على شهادة التطويع [2].

وقد اهتم ابن عاشور أيضا بنهل العلم من مصادره الأصلية، ولذلك ذخرت مكتبته الخاصة بنوادر المخطوطات التي نسخ بعضها، وتميز بعضها بأنه عزيز لا يوجد في أكثر المكتبات، وقد أشار إلى ذلك كله الدكتور "علي العطار" الذي زار مكتبته الخاصة، واعتنى بالاطلاع على هذه الذخائر، فيقول : "وبنظرة في فهرس مكتبته وجدت المخطوطات أكثر من المطبوعات، وهي مخطوطات نادرة جدا سواءً منها ما كان مغربيا أو مشرقيا أو أندلسيا، وقد أمدنا بقطع نادرة من تراثنا لم يكن لها نظير في الشرق والغرب" [3].

وهذا الشغف لا يكشف فقط عن طموح وهمة عالية في درس العلم، وإنما يكشف أيضا عن نبوغ فطري غذته عوامل شتى حتى أوقدت فيه شعلة النشاط

---

(١) هيا ثامر مفتاح العلي : **الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره**، مرجع سابق ، ص: ٣٠

(٢) محمد علي العطار : **الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير**، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٩١م ، ص : ٥١

(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٨ - ٦٩

العلمي إلى أواخر حياته، حتى إنه رفض أن يوضع له المحلول المغذي في آخر حياته عن طريق الحقن في يده اليمنى على الرغم من ثقل اليسرى من كثرة الحقن فيها، ولا سبب لذلك الرفض عنده إلا أن هذه اليد هي التي يكتب بها، فهو يكتب حتى آخر أنفاسه وأنابيب الغذاء موصلة بجسمه [1].

ويؤيد ذلك ما ذكره الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجه عن ابن عاشور من أنه انفرد بمنهجه التربوي الإصلاحي المتميز الذي حذا فيه حذو المصلح الشهير الأستاذ الإمام محمد عبده، وهو إلى ما قبل وفاته بيوم لم يفارق المطالعة ولا الإصلاح ولا التعقيب [2].

وقد عبر ابن عاشور نفسه عن هذه المعاني في كلمته التي ألقاها يوم أسندت إليه جائزة الحبيب بورقيبة سنة ١٩٦٨ م، إذ يقول: وإني أحمد الله على أن أودع فيَّ محبة العلم، والتوق إلى تحصيله وتحريره، والأنس بدراسته ومطالعته، سجية فُطِرت عليها فخالطت شغاف قلبي وملأت مهجتي ولُبِّي، وغرزت فيَّ غريزة نمَّتها التربية القويمة التي أخذني بها مشايخي – طيب الله ثراهم وطهر ذكراهم – حتى أصبحت لا أتعلق بشيء من المناصب والمراتب تعلقي بطلب العلم، ولا آنَسُ برفقة ولا حديث مثل أُنْسِي بمسامرة الأساتذة والأصدقاء في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حُبب إليَّ شيء ما حُبِّبت إليَّ الخلوة إلى الكتاب والقرطاس [3].

---

(١) مشرف بن أحمد جمعان الزهراني : **الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ص : ٣٣

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة : في الراحلين الخالدين، **مجلة الكلية الزيتونية**، تونس، السنة الثانية والثالثة، العدد ٢، ٣، ١٩٧٤م، ١٩٧٥م، ص : ٢٢٥– ٢٢٦

(٣) هيا ثامر مفتاح العلي، مرجع سابق، ص : ٣٠

ولقد قال عنه صديقه الشيخ محمد الخضر حسين : شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقّادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم، ولما كان بيني وبينه من الصداقة النادرة المثال كنا نحضر دروس بعض الأساتذة جنبا لجنب .. وكنت أرى شدة حرصه على العلم ودقة نظره متجليتين في لحظاته وبحوثه، وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضاف إلي غزارة العلم وقوة النظر صفاء الذوق وسعة الاطلاع في آداب اللغة، وقد انعقدت بيني وبينه سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف صداقة بلغت في صفاتها ومتانتها الغاية التي ليس بعدها غاية، وصداقة بهذه المنزلة تقتضي أن نلتقي كثيرا، وأن يكون كل منا يعرف سريرة صاحبه ما يعرف من سريرته، فكنت أرى لسانا لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيىء، وهمة طمّاحة إلي المعالي، وجدًّا في العمل لا يمسه كَلَلٌ، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم [1]، فهذه شهادة زميل له في الدراسة أَعْرَفُ بإمكاناته الفكرية من أي مصدر آخر .

ب – وظائفه العلمية، وأهمها [2]:

- العمل بمجال التدريس .
- التحق بمجلس إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، فكان عضوا به عام ١٩١٠م .

---

(١) محمد الخضر حسين : شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس ، **مجلة الهداية الإسلامية** ، القاهرة ، عدد شوال ١٣٥١ هـ ، ص ١١٨ (بتصرف) .

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة : **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور** ، مرجع سابق ، ص : ١٥٨ – ١٦٢

- عين عضوا في سنة ١٩١١م بمجلس الأوقاف الأعلى .
- عين عضوا في مجلس الإصلاح الثالث عام ١٩٢٤م .
- عين عضوا بمجلس الإصلاح الرابع عام ١٩٣٠م .
- عين عضوا في النظارة العلمية بحكم وظيفته الشرعية .
- عين شيخا للجامع الأعظم سنة ١٣٥١هـ، ١٩٣٢م .
- عاد إلى مباشرة مهامه على رأس مشيخة الجامع الأعظم سنة ١٩٤٥م – ١٩٥٢م
- بعد استقلال البلاد عين عميدا للجامعة الزيتونية سنة ١٩٥٦م – ١٩٦٠م .
- انتخب الشيخ – رَحِمَهُ اللَّهُ – عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٠م، وفي المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٥ م، وكانت له كتابات وتحريرات في مجلتيهما وفي غيرهما من المجلات العلمية بالشرق كالموسوعة الفقهية بالكويت ومجلة الهداية الإسلامية بالقاهرة وغيرها .

أهم الوظائف القضائية الشرعية :

- عين قاضيا مالكيا بالمجلس الشرعي سنة ١٩١٣م إلى ١٩٢٣م .
- عين مفتيا في رجب ١٣٤١هـ، مارس ١٩٢٣م .
- عين مفتيا ثانيا مكلفا بخطة باش مفتي سنة ١٩٢٤م .
- ارتقى بعد ذلك إلى خطة كبير أهل الشورى سنة ١٩٢٧م، ثم شيخ الإسلام المالكي سنة ١٩٣٢م .

وأخيرا يمكن القول بأن المنهج الإصلاحي التربوي للإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره " التحرير والتنوير " يدور حول مقاصد وجوانب تربوية

إصلاحية كثيرة، منها : أثر العقيدة في سلوك المسلم، والاعتناء بالعلوم المختلفة كالحديث والفقه والمقاصد والنحو والصرف والبلاغة والتاريخ والجغرافيا وبعض مسائل الطب والإعجاز العلمي وعلم الفلك والحيوان والمعادن وغير ذلك، والاعتناء باستنباط الفوائد وربطها بحياة المسلمين، واستلهام العبر من القصص القرآني ؛ ليكون سببا في نهوض الأمة، كما اعتنى في تفسيره بالعبادات وأثرها، ومكارم الأخلاق وأصول الفضائل والتحذير من المساوئ، كما اعتنى بمعالم الإصلاح العامة، والاهتمام بأصول التربية والتعليم، كما تناول العلم والعلماء، ووسائل التربية، والآداب والأساليب التي ينبغي أن يلتزم بها العلماء والمتعلمون، وغير ذلك من الأفكار والمقاصد الإصلاحية التربوية التي يحاول الباحث إظهارها في الفصول اللاحقة إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني
أسس الفكر الإصلاحي التربوي عند ابن عاشور

تتمثل القواعد المنهجية للفكر الإصلاحي التربوي عند ابن عاشور في مركزية القرآن في إنتاج المعرفة، وأخلاقية الرؤية الإسلامية من خلال المقاصد، ومركزية الإنسان في النظر الإسلامي، وأهمية المجتمع من خلال إعادة الاعتبار للنظام الاجتماعي، وأولوية البناء من خلال إصلاح نظام التعليم (١).

ويمكن إيجاز هذه القواعد المنهجية للإصلاح التربوي عند ابن عاشور في أساسين جامعين بينهما ارتباط وثيق، هما(٢):

الاعتماد على الفكر المقاصدي، سواء المقاصد القرآنية أم مقاصد الشريعة الإسلامية .

شمولية الرؤية الإصلاحية التربوية للفرد والمجتمع .

وسوف يتناول الباحث هذين الأساسين بشيء من التفصيل فيما يأتي : -

الأساس الأول : الاعتماد على الفكر المقاصدي :

إن اعتماد ابن عاشور في رؤيته الإصلاحية التربوية على الفكر المقاصدي يبرز من خلال عدة ملامح، أهمها :-

أ – كون مفهوم المقاصد هو الأكثر ورودا في تفسيره مع دعوته للكشف عنها :

---

(١) فتحي حسن ملكاوي : <u>مستخلصات من بحوث ومناقشات المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي</u> ، مرجع سابق ، ص : ٦٣٤

(٢) المرجع السابق ، ص : ٦٣٤ – ٦٣٥

لقد تعددت المعاني اللغوية لكلمة "المقاصد"، ففي المعجم الوجيز قصد الطريق قصدا أي استقام، وقصد له وإليه أي توجه إليه عامدا، وقصد في الأمر أي توسط فلم يفرط ولم يفرط، وقصد في النفقة أي لم يسرف ولم يقتر، والقاصد من الأسفار أي السهل(١).

وفي المصباح المنير المقصد يُجمع على مقاصد، وقصد في الأمر قصدا أي توسط وطلب الأَسَدّ ولم يجاوز الحد، ويقال : هو على قَصْدٍ أي رُشْد، ويقال طريق قصد أي سهل، ويقال قصدت قصده أي نحوه [٢].

وقد جاء لفظ (قصد) ومشتقاته في القرآن الكريم في ستة مواضع [٣]، وهي كالآتي :

- اقصد، في قوله تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ...﴾ [سورة لقمان:١٩]، فالقصد هنا: الوسط العدل بين طرفين، فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب [٤].
- قَصْد، في قوله تعالى:﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ ...﴾ [سورة النحل:٩]، والقصد هنا: استقامة الطريق، فيقال طريق قاصد أي مستقيم، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة [٥].

---

(١) **المعجم الوجيز**، مرجع سابق ، ص : ٥٠٣

(٢) أحمد بن محمد الفيومي : **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي** ، ط١ ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص : ١٩٢

(٣) **محمد فؤاد عبد الباقي** : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، **ط١ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ ، ١٩٤٥م ، ص : ٥٤٥**

(٤) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ٢١ ، ص : ١٦٨**

(٥) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ١٤ ، ص : ١١٢**

- قاصداً، في قول الله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ...﴾ [سورة التوبة:٤٢]، فقاصدا أي وسطا في المسافة غير بعيد (١).
- مقتصد، في قول الله ﷻ: ﴿... فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ...﴾ [سورة لقمان:٣٢]، والمقتصد هو الفاعل للقصد وهو التوسط بين طرفين (٢).
- مقتصد، في قوله ﷻ: ﴿... فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ...﴾ [سورة فاطر:٣٢]، فالمقتصد هو غير الظالم نفسه (٣).
- مقتصدة، في قوله تعالى : ﴿... مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ...﴾ [سورة المائدة:٦٦]، ويطلق المقتصد على المطيع، كما يطلق على المعتدل في الأمر ؛ لأنه مشتق من القصد وهو الاعتدال وعدم الإفراط (٤).

ويُلاحَظ من المعاني السابقة عند ابن عاشور أن هذه الكلمة ومشتقاتها تدل على التوسط، والاستقامة، وعدم الظلم .

أما مفهوم مقاصد القرآن، فقد جاء عند الإمام العز بن عبد السلام في كتابه "قواعد الأحكام"، فيقول : "معظم مقاصد القرآن هي الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها " (٥).

---

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج ١١ ، ص : ٢٠٨

(٢) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج ٢١ ، ص : ١٩١

(٣) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج ٢٢، ص : ٣١٢ - ٣١٣

(٤) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج ٦ ، ص : ٢٥٤ - ٢٥٥

(٥) **العز بن عبد السلام** : قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، تحقيق : **محمود الشنقيطي ، ج١ ، ط١ ، دار المعارف ، بيروت ، د . ت ، ص: ٧**

وقد عرف عبد الكريم حامدي المقاصد القرآنية بأنها الغايات التي أنزل الله القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد [1]، أو هي الأسرار والحِكَم والغايات التي نزل القرآن لأجل تحقيقها جلباً للمصالح ودفعاً للمفاسد، وهي واضحة في جميع القرآن أو معظمه[2].

إن الإمام ابن عاشور ذكر كلمة المقاصد أو المقصد أو المقصود في تفسيره كثيرا، ومنها ما ذكره في المقدمة الرابعة من مقدمات تفسيره، وهي بعنوان " فيما يكون عليه غرض المفسر"، فقال: "فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله "[3].

ولقد دعا ابن عاشور في تفسيره إلى الكشف عن المقاصد القرآنية ومعرفتها، فالتفسير المقاصدي للقرآن الكريم يعتبر نوعاً مهماً لعرض هدايات القرآن الكريم ويكشف عن أسراره التي تقود العقل والقلب إلى مصدرية القرآن الربانية، ويبين كيف جاء القرآن لمراعاة الصلاح للبشر ودفع الفساد[4].

---

(١) عبد الكريم حامدي : مقاصد القرآن الكريم من تشريع الأحكام ، ط١ ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص: ٢٩

(٢) رضوان جمال الأطرش ، نشوان عبده خالد قائد : الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص : ١٩٦

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج١ ، ص: ٤٢

(٤) رضوان جمال الأطرش ، نشوان عبده خالد : الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم، مرجع سابق ، ص : ٢٢٠

إن العجب كل العجب أن يعيش الناس بلا مقاصد أي بلا أرواح، فالفقه بلا مقاصد فقه بلا روح، والفقيه بلا مقاصد فقيه بلا روح إن لم نقل إنه ليس بفقيه، والمتدين بلا مقاصد متدين بلا روح، والدعاة إلى الإسلام بلا مقاصد هم أصحاب دعوة بلا روح (١).

ولكن ليس كل مكلف بحاجة إلى معرفة المقاصد ؛ لأن معرفة المقاصد نوع دقيق من العلم، فحق العامي أن يتلقى الشريعة بدون معرفة المقصد ؛ لأنه لا يحسن ضبطه ولا تنزيله، ثم يُتوسع للناس في تعريفهم بالمقاصد بمقدار ازدياد حظهم من العلوم الشرعية ؛ لئلا يضعوا ما يُلَقَّنون من المقاصد في غير مواضعه فيعود بعكس المراد، وحق العالم فهم المقاصد، والعلماء في ذلك متفاوتون على قدر القرائح (٢).

وتتجلى أهمية معرفة المقاصد القرآنية والتشريعية والكشف عنها فيما ذكره ابن عاشور من أن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة؛ رحمة لهم ولتبليغهم مراد الله تعالى .. فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بيِّنا وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه، فقال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩]، فمقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة، فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس

---

(١) أحمد الريسوني : مدخل إلى مقاصد الشريعة ، ط١ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٠م ، ص: ١٤

(٢) ابن عاشور : مقاصد الشريعة الإسلامية ، تحقيق : محمد الطاهر الميساوي ، ط٢، دار النفائس ، عمان ، الأردن ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ص : ١٨٨

في عصور انتشار العلوم في الأمة، وقد قال السلف : " القرآن لا تنقضي عجائبه " أي معانيه [1].

كما يرى ابن عاشور أن الألفاظ القرآنية تحتمل الكثير من المعاني المرادة ، وهذا الأساس الذي أقره ابن عاشور يساير المدرسة العقلية التي تدعو للتفسير بالرأي المحمود، حيث يؤكد على هذا المعنى بقوله : وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها وقد جعل الله القرآن كتاب الأمة كلها وفيه هديها، ودعاهم إلى تدبره وبذل الجهد في استخراج معانيه، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء:٨٣] ، وقوله ﷻ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[سورة العنكبوت:٤٩]، ولكننا بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن [2].

ويقول أيضا مبينا فضل الباحث عن المقاصد القرآنية عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٣]: في هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بينوا

---

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥

(٢) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج١ ، ص : ٩٣ – ٩٤

السنن ووضحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خلقه(1).

لقد رأى ابن عاشور أن من مقاصد القرآن الكريم ما يدعو إلى الاستنباط والبحث والتنقيب عن العلوم والأحكام، وأول هذه المقاصد كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين، وثانيهما هو تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء هذه الأمة بالتنقيب والبحث واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة – في كل زمان – لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة، من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم تبعا لاختلاف مراتب العصور (2).

ولا أدل على نظرته المقاصدية في تفسير القرآن الكريم من المقدمة الرابعة التي بيّن فيها غرض المفسر من التفسير، وبيَّن فيها أيضا المقاصد العليا والأصلية للقرآن الكريم (3).

---

(1) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج24 ، ص : 289**

(2) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج 3 ، ص : 158

(3) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج 1 ص : 41 – 42**

إن عمل المفسر وفهمه إنما يجب أن يدور مع المقصد، ومع كل ما يمكن أن يسهم في إيضاحه وجلائه، فالمقصد القرآني هو قطب الرحى في حركة المفسر بمختلف نواحيها ومستوياتها، فبحوث المفسر وتحليلاته اللغوية أو البلاغية أو الكلامية أو التشريعية أو الاجتماعية، كل ذلك يجب أن يَصُبَّ في خدمة المقصد القرآني أساساً (١).

وقد وظَّف ابن عاشور العلوم المختلفة لخدمة المقاصد القرآنية في تفسيره كالتشريع، والمسائل العلمية، وأسباب النزول، والقصص القرآني، وترتيب الآيات ومناسبتها، والإعجاز القرآني من حيث النظم والبلاغة (٢).

ولقد أراد من ذلك أن يتجه الذهن في "التقصيد" إلى ضبط نوعين من المقاصد في القرآن الكريم، هما : مقاصد الشارع من خطابه، ومقاصده من أحكامه، بالإضافة إلى الاستدلال على الأحكام الشرعية (٣).

ويرى "طه جابر العلواني" أنه ينبغي أن يكون الهدف الأخير والأهم من دراسة علم المقاصد هو بناء العقل المقاصدي الغائي التعليلي القادر على إدراك مقاصد الشارع الحكيم وربط ذلك بالسنن الكونية وقوانين الخلق وغايات الوجود (٤).

---

(١) سامر عبد الرحمن رشواني: الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور، مرجع سابق،ص ٨٩-٩٠

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج١ ، ص : ٤٦ وما بعدها

(٣) إسماعيل الحسني : نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، ط١ ، صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن،فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م، ص: ١٣٣ ، ١٨٩

(٤) المرجع السابق ، ص : ٥

وانطلاقاً من رؤية ابن عاشور المقاصدية التجديدية يمكن القول إن الخيط الذي يجمع فكر ابن عاشور في نسق واحد أو " المفهوم المفتاحي " الذي يتخلل في ثنايا كتاباته هو مفهوم " المقاصد "، فقلما يعالج ابن عاشور موضوعاً – أيّ موضوع كان – في مقالة أو كتاب دون أن يَرِدَ لمفهوم " المقاصد " ذِكْر، أو أن يكون له دور في بناء فكرة الموضوع وتطويرها، بل يمكن القول – بقليل من المجازفة – إن مفهوم " المقاصد " هو من أكثر المفاهيم والمصطلحات تواردا وتواتراً في نصوص ابن عاشور (١).

وهكذا يتضح لنا الاتجاه المنهجي المقاصدي الذي سلكه ابن عاشور في تفسيره ، والذي يعد ركيزة من الركائز التي اعتمدها كمصدر منهجي في تفسيره يراه الناظر بعين الدقة والتفحص (٢)، ويمكن القول بأن فكرة المقاصد أخذت عليه فكره وجُل اهتمامه حين كان يفسر الآيات، حتى ليكاد نطلق عليه التفسير المقاصدي للقرآن الكريم (٣).

وللتأكيد على ذلك يحاول الباحث ذكر نماذج تؤكد نظرية المقاصد في تفسير ابن عاشور من خلال بيان ما التزم به في منهجه التفسيري من حيث عرض أغراض ومقاصد كل سورة قبل البدء في تفسير آياتها، **وسيقتصر الباحث على ما يأتي :-**

---

(١) سامر عبد الرحمن رشواني ، مرجع سابق ، ص : ٨٦

(٢) نشوان عبده خالد : ابن عاشور ومنهجه في تفسير التحرير والتنوير ، متاح على موقع الوفاق الإنمائي للدراسات والبحوث : www.wefaq dev.net

(٣) رضوان جمال الأطرش ، نشوان عبده خالد قائد : الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص : ٢١٥

١- مقاصد فاتحة الكتاب :

تشتمل محتويات سورة الفاتحة على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة: الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه من جميع النقائص ولإثبات تفرده بالألوهية وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الفاتحة:٢] إلى قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [سورة الفاتحة:٤]، والأوامر والنواهي من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ...﴾ [سورة الفاتحة:٥]، والوعد والوعيد من قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ...﴾ [سورة الفاتحة:٧] إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله وغيرها تكملات لها ؛ لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين .. كما أنها تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحِكَم النظرية والأحكام العملية، فإن معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها وإما أحكام يقصد منها العمل بها، فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص، والأحكام إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب – أي العقول – وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام .. فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة – تصريحا وتضمنا – علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض [(١)].

٢- مقاصد سورة البقرة :

هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، فقد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ١٣٣ – ١٣٤

محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين : قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم [1].

٣- مقاصد سورة الكهف :

هذه السورة لها أغراض متعددة، ولكن نذكر منها القصص القرآني الذي له دلالة تربوية قيمة، واعتبار أسلوب القصة من أهم أساليب التربية الإسلامية؛ لذا تعرّض ابن عاشور لهذا القصص بالتفسير، حيث قال : " تقدم على قصة ذي القرنين قصة أهم منها، وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام ؛ لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف، فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم"[2].

٤- مقاصد سورة الحجرات :

تتعلق أغراضها بحوادث كانت سببا لنزول ما فيها من أحكام وآداب، وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في معاملته وخطابه وندائه ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقا وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، كما تطرقت السورة إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتَخْلُص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم[3].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٢٠٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٦ ، ص : ٢٤٦

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص : ٢١٤

٥- مقاصد سورة العلق :

إن أهم مقاصد هذه السورة تلقين سيدنا محمد - ﷺ - الكلام القرآني وتلاوته، إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل، والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر ؛ لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداءً، وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم، وتوجيهه إلى النظر في خلق الله للموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقا عجيبا مستخرجا من علقة، فهذا مبدأ النظر (١).

وتأكيدا لمبدأ المقاصد واستخدامه في الإصلاح التربوي أيضا، يقول ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى : ﴿... وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ...﴾ [سورة النور:٣٣]: أمر الله السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم ؛ تحقيقا لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة، ولمقصدها من إكثار النسل في الأمة، ولمقصدها من تزكية الأمة واستقامة دينها (٢).

ويقول أيضا في تفسير قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة المائدة:١] : إن هذه الآية قرّرت أصلاً من أصول الشريعة، وهو أن مقصد الشارع من العقود تمامها، فالأمر بالإيفاء بالعقود يدل على وجوب ذلك، فتعيّن أنّ إيفاء العاقد بعقده حقّ عليه ؛ لأنّ العقود شرعت لسد حاجات الأمة، فهي من قسم المناسب الحاجيّ، فيكون إتمامها حاجيّا (٣).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٤٣٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص : ٢١٩

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٦ ، ص: ٧٥ - ٧٦

ولأجل هذا نجد بعض الباحثين والدارسين يؤلفون كتبا في أغراض السور في تفسير ابن عاشور، ومنهم : محمد بن إبراهيم الحمد، فقد ألف كتابا، بعنوان "مدخل لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور" تضمن بيان أغراض السور في التحرير والتنوير(١).

ب – ربط الفكر الإصلاحي التربوي بالمقاصد القرآنية:

إن القرآن كتاب جاء لهدي الناس والتشريع لهم، وهذا الهدي قد يكون واردا قبل الحاجة، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية والحكمة في ذلك أن يكون وعي الأمة لدينها سهلا عليها، وليُمَكِّن تواتر الدين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط (٢).

فالقرآن هو الجامع لمصالح الدنيا والدين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، وفيه كليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق(٣) .

فلو أن المسلمين أضاعوا كل أثارة من علم – والعياذ بالله – ولم يبق بينهم إلا القرآن لاستطاعوا الوصول به إلى ما يحتاجونه في أمور دينهم فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال،

---

(١) انظر : محمد بن إبراهيم الحمد : **مدخل لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور** ، مرجع سابق ،ص : ١٤٧ وما بعدها

(٢) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج١ ص : ٥٠**

(٣) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج١ ص : ٥**

وهي: الضروريات والحاجيات والتحسينات، أما الخارج عن القرآن من الأدلة - وهو السنة والإجماع والقياس - فقد نشأ عن القرآن أيضا (١).

إن تجلية المقاصد القرآنية العامة والكلية ليس الهدف منها إلغاء ما جاءت به الآيات القرآنية من الأوامر والنواهي ؛ لأن ما جاءت به يعد من المقاصد الأصلية الصالحة لكل زمان ومكان، وإنما الهدف فهم الجزئيات بالاستناد إلى الكليات، وإبراز تكامل ما نزل به القرآن الكريم مع ما نزل لأجله من المقاصد العامة والكلية، وذلك من أجل الكشف عن الرؤية العامة والكلية للمبادئ الإسلامية والاستفادة من الاجتهاد المقاصدي في المستجدات وبناء التصور الحضاري (٢).

إن علم المقاصد علما أخلاقيا موضوعه الصلاح الإنساني؛ لأن الرؤية المقاصدية عند ابن عاشور تقوم على تحقيق أمرين مهمين ومتلازمين، **أولهما** : تغيير الأحوال الفاسدة وإعلان فسادها، وهو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ ...﴾[سورة البقرة:٢٥٧]، وفي قوله تعالى : ﴿... وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة المائدة:١٦]، والتغيير قد يكون إلى شدة على الناس ؛ رعيا لصلاحهم، وقد يكون إلى تخفيف ؛ إبطالا لغلوهم، **أما ثانيهما**: فتقرير أحوال

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، بتصرف ، ج٦ ، ص : ١٠٣

(٢) **علي أسعد** : **مقاصد قرآنية يناط بها التمكين الأسري** ، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، **المجلد ٢٦، العدد الثاني، ٢٠١٠م ،ص: ٤٨١**

صالحة قد اتبعها الناس، وهي الأحوال المُعَبَّر عنها بالمعروف في قوله تعالى : ﴿...يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٧]، وإذا تفقدنا الأشياء التي انتحاها البشر منذ القدم وأقاموا عليها قواعد المَدَنِيَّة الإنسانية نجدها أمورا كثيرة من الصلاح والخير تُوُورِثَتْ من نصائح الآباء والمعلمين والمربين والرسل والحكماء والحكام العادلين حتى رسخت في البشر (١).

إن الرؤية المقاصدية عند ابن عاشور التي تقوم على الأمرين السابقين، تشمل أيضا إصلاح التعليم كوجه أساسي من أوجه الإصلاح التربوي العام، وقد ذكر محمد الطاهر الميساوي – محقق كتاب مقاصد الشريعة لابن عاشور – أن ابن عاشور كان يصدر آراءه الإصلاحية عن رؤية تاريخية وحضارية شاملة لمصائر الاجتماع الإسلامي بما في ذلك العلوم والمعارف وعلى ذلك فإن آراء ابن عاشور في إصلاح مناهج التعليم وبيان كيفيات إصلاح الخلل في المعارف والعلوم الإسلامية، مثل علم الكلام والتفسير واللغة والمنطق والفقة وأصوله –

(١) راجع كلا من :

- **ابن عاشور** : مقاصد الشريعة الإسلامية ، **مرجع سابق ، ص : ٣٤٠ – ٣٤١**
- **بدران بن لحسن : ابن عاشور وإعادة الاعتبار للقول الكلي في الفكر الإسلامي ،** بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر رؤية معرفية ومنهجيه ، **مرجع سابق ، ص: ٦١٨**

لهي إضافة جليلة في طريقة فهم المنطق الداخلي لتلك العلوم والسعي لتجديدها، من خلال نظر كلي مثمر يربطها بهموم عصر المتعاطين لها ومن هنا يتضح لنا الدور الحيوي الذي تقوم به " فكرة المقاصد " بحسبانها قضية جوهرية في سبيل الإصلاح [١].

وقد أظهر "الميساوي" الربط بين فكرة المقاصد وبين كيفيات إصلاح العلوم الإسلامية لدى ابن عاشور، مع إبراز محورية تلك الفكرة لديه أيضا في إحداث علوم إجتماعية أو استئناف علوم جديدة تسعى لحل مشكلات الأمة الإسلامية وإصلاح مؤسسات التعليم وطرائق إنتاجها للعلوم [٢].

وعلى هذا فالاتجاه المقاصدي عند ابن عاشور ينطلق من الوعي باكتمال شئون الحياة خارج النص لا من داخله، فالله سبحانه جعل الإنسان خليفة في الأرض وأناط به إعمارها وتدبير شئونها، وركب فيه العقل الذي هو الآلة الوحيدة لذلك التدبير، وذهب بناءً على ذلك إلى أن الإنسان سلطان العالم الأرضي من حيث إعمال عقله ومسئوليته عن فعله وسعيه لتمكين سلطانه في الأرض [٣].

---

(١) إبراهيم محمد زين : قراءات ومراجعات في مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ ابن عاشور بتحقيق محمد الطاهر الميساوي ، مجلة إسلامية المعرفة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة السادسة ، العدد الثالث والعشرون ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م ، ص : ١٣٠

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٣١ – ١٣٢

(٣) فتحي حسن ملكاوي : مستخلصات من بحوث ومناقشات المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي ، مرجع سابق ، ص : ٦٣٧

ويلاحظ من خلال ما سبق اعتماد ابن عاشور على فكرة المقاصد، وهي الفكرة التي تربط بين جلّ جهوده الإصلاحية ومؤلفاته، كما يُفُهَم أيضا أن من أهمية معرفة المقاصد القرآنية هو معرفة مراد الله تعالى من القرآن الكريم، وبيان أوجه الإصلاح المتعددة للإنسانية.

ويمكن القول بأن أهمية الكشف عن المقاصد القرآنية ومعرفتها تكمن في حاجة التربية المعاصرة للمقاصد القرآنية والتشريعية ؛ لبناء فلسفتها ونظمها وأهدافها ومنهاجها عليها، والبعد عن الفلسفات والنظم ذات التوجهغير الإسلامي .

الأساس الثاني : شمولية الرؤية الإصلاحية التربوية للفرد والمجتمع :

إن رؤية ابن عاشور الإصلاحية التربوية تتسم بالشمولية للفرد بجميع جوانبه وللمجتمع بكل قيمه وأسس انتظامه، وبذلك يكون للإصلاح التربوي عند ابن عاشور نمطان، هما الإصلاح الفردي والإصلاح الاجتماعي، وقبل أن يعرض الباحث نمطي الإصلاح ينبغي أولا بيان قواعد الإصلاح التربوي، وشروط المصلح التربوي كما يراها ابن عاشور.

قواعد الإصلاح التربوي عند ابن عاشور :

لقد وضع ابن عاشور عدة قواعد يجب اتباعها عند القيام بعملية الإصلاح التربوي، أهمها :

١ – أن التشريع الإسلامي هو أساس كل إصلاح، فقد جعل الله تعالى أسس هذا الدين متباعدة عن ذميم العوائد في الأمم حتى الأمة التي ظهر بينها، وكانت أصوله مبنية على الفطرة، بمعنى ألا تكون ناظرة إلا إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب [1].

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص : ١٩٣

إن مراد الله تعالى مما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد، وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم، وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتريه خلل، وهذا يعد من أهم أسس الإصلاح الإسلامي (١).

٢ - بيان أوجه القصور للعمل على إصلاحها، فقد رأى ابن عاشور أنه على المصلح أولاً بيان الأسباب التي أفادت المسلمين نهوضا ساميا في بادئ أمرهم، وما مهده لهم الدين القويم من أسباب الرقي وانتشار العمران، ثم يتبعه ببيان الأسباب التي رجعت بهم عن ذلك التقدم الباهر، ثم يعقبهما بالبحث عن وسائل إصلاح أحوالهم حتى يعودوا كما بدءوا من كمال الارتقاء (٢).

٣ - البدء بإصلاح الفرد وخاصة إصلاح اعتقاده، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [سورة الحج:٧٧]، ففي هذا الترتيب إيماء إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال (٣).

٤ - يحتاج الإصلاح إلى العمل المنهجي والعلمي في مكافحة الفساد، لأن ردود الأفعال للمواقف السلبية لا تؤدي إلى نتيجة بقدر ما تجدد الفساد بلون آخر وبصفة معقدة التركيب، وقد نقد ابن عاشور المشتغلين بالدعوة والإصلاح في زمانه، لكونهم لم يتبعوا المنهج العلمي السليم في المكافحة أو الإصلاح

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، بتصرف ، ج١ ، ص : ٣٧١

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٧ ، ص : ٣٤٦

وأن جهودهم واهتماماتهم لم ترق إلى مستوى الطموح في العرض أو المضمون، فغلبوا على أمرهم وبان عَوَرهم ونقص وعيهم بالغرض والغاية(١).

٥ - توجيه الغير إلى العمل الصالح والتعاون لآدائه، قال تعالى : ﴿...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ...﴾ [سورة المائدة:٢]، يقول ابن عاشور: "إن فائدة التعاون تيسير العمل وتوفير المصالح وإظهار الاتحاد والتناصر ؛ حتى يصبح ذلك خلقا للأمة " (٢).

٦ - إن قوام الصفات الفاضلة والفطرة السليمة هو الاعتدال في الأمور، وأنَّ النزوع إلى طرفي الغلو والتقصير أو الإفراط والتفريط إنما ينشأ عن انحراف في الفطرة يحدو إليه الهوى المحذر منه، فتتكلف النفس الانحراف تكلفا يُحَسِّنُه إليها الهوى أو دعاة الهوى وتَلَذُّ به لِمَا تأمل من جراء أخرياته من نفع عاجل حاصل أو غير حاصل .. فالاعتدال إذن هو الكمال، وهو إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص (٣).

٧ - عمومية الإصلاح ليشمل الأحوال الفردية والمجتمعية والعمرانية .

الشروط الواجب توافرها في المصلح التربوي:

---

(١) علي جمعه الرواحنة : المكافحة المنهجية عند ابن عاشور لفساد المجتمع ومجالات الإصلاح والتجديد ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي ، رؤية منهجية معرفية** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تحرير : فتحي حسن ملكاوي ، مرجع سابق ، ص : ٨٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٦ ، ص : ٨٨

(٣) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٢٣ - ٢٤

لقد وضع ابن عاشور عدة شروط يجب أن تتوافر في القائم بعملية الإصلاح التربوي، أهمها :

١ - ألا يكون المصلح من شأنه الفساد ؛ لأن من كان من شأنه الفساد والسفك لا يصلح للتعمير لأنه إذا عمر نقض ما عمره [١].

٢ - إن من يقوم على عملية إصلاح الغير لابد أن يتوافر فيه صلاح الاعتقاد والنفس والعمل أولا ؛ حتى يكون قدوة لغيره، وقد ذم القرآن الكريم من يأمر الناس بالبر ولا يفعله قال تعالى : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة:٤٤]، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارهم ومبلغ سوء حالهم، فهم قد صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ؛ ليستحقوا بذلك ما يعوضون عليه من مراتب ورواتب، فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس [٢]، وقد قيل أنه من كان على صلاح دعاه إلى صلاح آخر، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ؛ لأن كل شيء يُجرُّ إلى شكله [٣].

٣ - إرادة الإصلاح وتعيين الحق، وهذا ما فهم من كلام ابن عاشور في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٥]حيث قال:"فالظاهر أن إرادة الإصلاح عائد إلى الحكمين؛

---

(١) ابن عاشور : <u>التحرير والتنوير</u> ، ج١ ، ص : ٤٠٢

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص : ٤٧٤

(٣) ابن عاشور : <u>التحرير والتنوير</u> ، ج٣٠ ، ص: ٢٢٩

لأنهما المسوق لهما الكلام، واقتصر على إرادة الإصلاح ؛ لأنها التي يجب أن تكون المقصد لولاة الأمور والحكمين، فواجب الحكمين أن ينظرا في أمر الزوجين نظرا منبعثا عن نية الإصلاح، فإن تيسر الإصلاح فذلك، وإلا صارا إلى التفريق، وقد وعدهما الله بأن يوفق بينهما إذا نويا الإصلاح، وهذه الآية أصل في جواز التحكيم في سائر الحقوق "(1).

٤ - أن يحرص المصلح على دوام الحق في الناس ؛ لأنه لمّا كان من شأن أهل الحق والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم كان من مكملات ذلك أن يحرصوا على دوام الحق في الناس متبعا مشهورا، فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خلفا عنهم في الناس بأن لا يحيدوا عن طريق الحق ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه، فإن حصوله يكون بمجاهدة النفوس ومرور الأزمان(2).

٥ - الاهتمام بعملية الإصلاح واتباع عدة طرق لها، فلا ينبغي ترك استقراء نواحي الإصلاح عند الاشتغال بغيرها ولو ظنه الأهم، وليس الإصلاح بسلوك طريقة واحدة بأخذ قواعد كلية منضبطة تشبه قواعد العلوم يطبقها في الحوادث ويغضي عما يعارضها بأن يسرع إلى ترجيح القوي على الضعيف مما فيه صفة الصلاح، بل شأن مقوم الأخلاق أن يكون بمثابة الطبيب بالنسبة إلى الطبائع والأمزجة فلا يجعل لجميع الأمزجة علاجا واحدا، بل الأمر يختلف باختلاف الناس(3).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٥ ، ص : ٤٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٧٢٧

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص : ١٠٩

أنماط الإصلاح التربوي عند ابن عاشور:

لقد تضمنت عملية الإصلاح التربوي عند ابن عاشور في تفسيره نمطين أساسيين، هما الإصلاح الفردي، الإصلاح المجتمعي، **وسوف يتناولهما الباحث بالتفصيل فيما يأتي :-**

أ - الإصلاح الفردي :

إن الإسلام أعطى الإنسان ما به كماله من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة، وإصلاح الفرد والمجتمع، وما يتقوّم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة، فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرية حياة، واستقامة أحوال العيش حياة (١).

ويؤكد ابن عاشور أن الإصلاح الفردي يبدأ بإصلاح الاعتقاد، حيث ابتدئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ...﴾ [سورة الإسراء:٢٣]؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح ؛ ولأن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل، إذ لا يشاق العقل إلى طلب الصالحات إلا إذا كان صالحا (٢).

ويتضمن الإصلاح الفردي أيضا إصلاح العمل، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى:﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]،

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٠ ، ص : ٣١٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص : ٦٧

فقال : " فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال " (١).

والباحث يرى من خلال ما سبق أن مقومات الإصلاح الفردي في تفسير ابن عاشور هي :

١- إصلاح الاعتقاد :

إن الناس منذ النشأة قد جالت عقولهم بالبحث عن أسباب تكوينهم ؛ لأن بحث العاقل عن علة وجوده أمر مرتكز في الفطرة، فلا جرم أن كان الاستدلال على وجود الصانع أمرا فطريا (٢).

ويؤكد ابن عاشور ذلك في تفسير قول الله ﷻ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢]، فقد خلق الله تعالى في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية، وجعل في فطرة حركة تفكيره التطلع إلى إدراك ذلك وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها، فإذا نشأ على الاعتقاد المصيب ارتاض عقله بقوانين الفكر المصيب، وإذا نشأ على ضد ذلك سخَّر عقله لأَتْباع طرائق الخطأ في التفكير وقبول التعاليم الضالة ثم اختراع تعاليم أخرى إلى أن تتراكم عليه الضلالات والخرافات (٣).

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج٢ ، ص : ١٣٢

(٢) ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، مرجع سابق، ص : ٤٦ – ٤٧

(٣) راجع كلا من :

- ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج٩ ، ص : ١٦٨
- ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٤٧

وإصلاح الاعتقاد أمر بالغ الأهمية بوأه الشيخ ابن عاشور المنزلة الأولى في بناء المجتمعات الإسلامية ؛ لأن الاعتقاد الصحيح يرتفع بالفرد عن الأوهام الضالة ويقيم البنية الاجتماعية للأمم على أسس متينة، وهو في هذا الرأي ينسجم مع المقولات التي تعطي الاعتقاد أهمية بالغة في حياة الإنسان(١).

وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام وأكثر ما تعرض له ؛ وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح، ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة خوفا من لا شيء وطمعا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي ؛ لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه، وينشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي عزة النفس، وأصالة الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل، وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارا لا يشبهه فيه دين آخر، بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلا (٢).

ويدلل ابن عاشور على أن إصلاح الاعتقاد أساس كل إصلاح بما ابتدأ به قوله سبحانه : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ...﴾ [سورة الأنعام:١٥١]، حيث ابتدأت الآية بالنهي عن الإشراك ؛ لأن إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل والفلاح في الآجل " (٣).

ولأهمية إصلاح الاعتقاد أولا ثم إصلاح العمل ثانيا فقد أمر شعيب عليه السلام قومه بثلاثة أمور، أولها إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر،

---

(١) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ١٦٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٩٤

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٨ ، ص : ١٥٨

وثالثها صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض، ووَسَّطَ بينهما الثاني وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي ؛ لأن إقدامهم عليه كان فاشيا فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان .

فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنه أصل الصلاح ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان، وهي مفسدة عظيمة لأنها تجمع خصلتي السرقة والغدر، لأن المكتال مسترسل مستسلم، فنهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان، وعزَّزه بالأمر بضده وهو إيفاؤهما (١).

إن الاعتقاد السليم يبنى على الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد ونبذ عبادة كل ماعداه، وأن جميع المخلوقات عبيده ﷻ، ويعبر عن ذلك بالتوحيد الذي هو مبنى الخير كله، وهو أكبر أصول عقيدة الإسلام، ويرتبط بالاعتقاد السليم المبني على التوحيد لله تعالى الإيمان الكامل بصفات الله تعالى، فهو تكملة إصلاح الاعتقاد ؛ لأن تصور الإله موصوفا بصفات غير كاملة يفيت المقصود من إثبات وحدانيته ووجوده، قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٨٠]، وهذه العقيدة هي التي تقبلها النفوس والعقول المستنيرة ولا تجافيها الفلسفة الحقة، ولأجلها كان المسلمون معصومين من الكفر فلا يغويهم الشيطان (٢).

وكما أن صلاح الاعتقاد يقوم أساسا على الإيمان بالله تعالى الواحد لأنه مبدأ الاعتقادات كلها فيقوم أيضا على الإيمان بالنبي – ﷺ – فمن لم يؤمن برب

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص : ١٣٦ – ١٣٧

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ٤٩ – ٥٠

واحد لا يصل إلى الإيمان بالرسول ؛ إذ الإيمان بالله هو الأصل وبه يصلح الاعتقاد وهو أصل العمل، ومن كمال إصلاح الاعتقاد أيضا الإيمان باليوم الآخر، فهو الوازع والباعث في الأعمال كلها، وفيه صلاح الحال العملي [1].

كما أنه من ضروريات الاعتقاد السليم، الإيمان بعدم وجود ممانع لإرادة الله تعالى مع الأخذ بالأسباب، يقول ابن عاشور : لا يجهل مؤمن أن الله إذا قدر نصر أحد فلا راد لنصره، وأنه إذا قدر خذله فلا ملجأ له من الهزيمة، فإن مثل هذا المعنى محقق في جانب الله لا يجهله معترف بإلهيته مؤمن بوحدانيته، وهل بعد اعتقاد نفي الشريك عن الله في ملكه مجال لاعتقاد وجود ممانع له في إرادته، وفي ضمن ذلك تنبيه إلى أن نَصْر الله قوما في بعض الأيام وخذله إياهم في بعضها لا يكون إلا لحكم وأسباب، فعليهم السعي في أسباب الرضا الموجب للنصر وتجنب أسباب السخط الموجب للخذل، كما أشار إليه قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [سورة محمد:٧] [2].

وعلى ذلك فالإيمان هو المصدر الرئيس لتحقيق الأمن للمجتمع، وبدونه لا تستقر ولا تنتظم حياة أي مجتمع من المجتمعات ولا تطمئن نفوس أفراد هولا تستقيم علاقاتهم على وجه يحقق لهم السعادة والترابط ويُمَكِّنهم من تحقيق مفهوم الخلافة على وجهها الصحيح ؛ إذن فالإيمان له تأثير قوي على الدوافع التي تؤثر على سلوك الإنسان وتصرفاته، حيث يوجه الإيمان أخلاق الإنسان للخير، بعكس الإنسان ضعيف الإيمان فإنه عبد شهوته ونزواته الشيطانية [3]،

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٢٦٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص : ١٥٢

(٣) خالد بن حامد الحازمي : **أصول التربية الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص : ١١٠

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد:٢٨] .

ولكن كيف يقوى الاعتقاد الصحيح ؟ يرى ابن عاشور أن الاعتقاد يقوى بالتصريح؛ لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحس، ولأن في التصريح بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليما له للناس[1].

وقد أحاط الإسلام إصلاح العقيدة ودوام صلاحها بأمرين عظيمين، هما : التفصيل، والتعليل، فأما التفصيل فهو بأمور ثلاثة، أولها بتمام الإيضاح لسائر المسلمين، وبإعلان فضائح الضالين في العقيدة، وبسد ذرائع الشرك واجتثاث عروقه، أما التعليل فذلك باستدعاء العقول إلى الاستدلال على وجود الله تعالى وعلى صفاته التي دل عليها تنزيهه، وأعظم ذلك هو الاستدعاء إلى النظر في النفس، فهو أصل الحكمة[2]، قال تعالى:﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات:٢١].

إن مقصد آيات العقيدة هو إصلاح الاعتقاد، وبإصلاحه يصلح التفكير والعمل، ولن يكون الإصلاح إلا بالتعليم؛ لأنه يطهر القلب عن الأوهام والخرافات ويعلم النفس عدم الخضوع لغير الله أوالإذعان لغير ما قام عليه دليل[3].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ص : ٥٧

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**،مرجع سابق،ص٤٩ – ٥٠

(٣) علي أسعد : **مقاصد قرآنية يراد بها التمكين الأسري** ، مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ٤٦٧

ولا يمتري أحد في أن مهمة إصلاح الاعتقاد تقع على عاتق الوالدين في المقام الأول، ودل على ذلك قول النبي ﷺ : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء "(1) ؛ ذلك أنهما أول من يتولى تأديب المولود وتثقيفه، وهما أكثر الناس ملازمة له في صباه، فهما اللذان يُلقيان في نفسه الأفكار الأولى، فإذا سلم من تضليل أبويه فقد سار بفطرته شوطاً، ثم هو بعد ذلك عرضة لعديد من المؤثرات فيه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، واقتصر النبي ﷺ على الأبوين ؛ لأنهما أقوى أسباب الزجّ في ضلالتهما وأشد إلحاحاً على ولدهما (2).

وقد أكد القرآن الكريم ذلك من خلال دعوة لقمان لابنه بعدم الشرك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان:١٣]، يقول ابن عاشور : لعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه، فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أبى ابنه متابعته فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد، لذا ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله ؛ لأن النفس المُعَرَّضَة للتزكية والكمال يجب أن يُقَدَّم لها قبل ذلك تخليتُها عن مبادئ الفساد والضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل، وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدهرية والإشراك، فكان قوله " لا تشرك بالله " يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته وجملة " إن الشرك لظلم عظيم " تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق وظلم المرء لنفسه، إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، كما أنه ظلم لأهل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، رقم (٢٦٥٨).

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٤٢٥ – ٤٢٦

الإيمان الحق، إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها، وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة، وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس (1).

إن من أسباب فساد الاعتقاد والعمل تطرق الخذلان إلى الأمم، فقد رأى ابن عاشور أن الأمم إذا تطرق إليها الخذلان يفسد اعتقادهم ويختلط إيمانهم ويصير همهم مقصورا على تدبير عاجلتهم، فإذا ظنوا استقامة العاجلة أغمضوا أعينهم عن الآخرة، فتطلبوا السلامة من غير أسبابها، فأضاعوا الفوز الأبدي وتعلقوا بالفوز العاجل فأساءوا العمل فأصابهم العذابان العاجل بالفتنة والآجل بالعقاب (2).

ولذلك حرص الإسلام من خلال إصلاح الاعتقاد على تربية المسلم على الخضوع لله تعالى وحده دون غيره، وعلى تربيته أيضا على عدم الخوف من أي مخلوق أو عدم التقرب لأي مخلوق ؛ لأن الله تعالى هو المتصرف في شئون خلقه، وعلى هذا فإن مسئولية غرس عقيدة التوحيد لله وحده في النفوس تقع على عاتق الأسرة والمربين في المؤسسات التعليمية ودور العبادة، كما أن التربية الإيمانية على عقيدة التوحيد هي الأساس لإصلاح تفكير الفرد وأخلاقه، كما تدفعه دائما للحفاظ على العبادات، وهذا بدوره يؤدي لبناء مجتمع إسلامي قوي العزيمة موحد ومتماسك .

٢ - إصلاح التفكير :

لا جرم أن العقيدة أساس التفكير، فإذا رُبِيَ العقل على صحة الاعتقاد تنزه عن مخامرة الأوهام الضالة، فشب على سبر الحقائق والمدركات الصحيحة ونَبَا

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١، ص : ١٥٤– ١٥٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٦ ، ص : ٢٧٦

عن الباطل وتهيأ لقبول التعاليم الصالحة والعمل الحق، والأمة التي ينشأ اعتقاد دينها على هذه الأصول تنشأ لا محالة على عزة النفس، والاهتمام بالاعتماد على استجلاب الأشياء من أسبابها، ورجاء الإعانة والبركة من الخالق، وذلك يدرب على قوة الإرادة والشعور بالرفعة عن التضليل والأوهام[1].

إن الله تعالى لما خلق نوع الإنسان أراده ليكون أفضل الموجودات في هذا العالم الأرضي فلا جرم أن يكون خلقه على حالة صالحة للكمال والخير، قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين:٤]، فآدم خلق في أحسن تقويم يليق بالذَّكَر جسما وعقلا، وألهمه معرفة الخير واتباعه ومعرفة الشر وتجنبه، فكانت آراؤه مستقيمة تتوجه ابتداءً لما فيه النفع وتهتدي إلى ما يحتاج للاهتداء إليه وتتعقل ما يشار به عليه فتميز النافع من غيره، ويساعده على العمل بما يهتدي إليه فكره جسد سليم قوي متين، وحواء خلقت في أحسن تقويم يليق بالأنثى خلقا مشابها لخلق آدم، إذ أنها خلقت كما خلق آدم، فكانت في انسياق عقلها واهتدائها وتعقلها ومساعدة جسدها على ذلك على نحو ما كان عليه آدم، ولا شك أن أقوى عنصر في تقويم البشر عند الخلقة هو العقل المستقيم، فبالعقل تَأَتَّى للبشر أن يتصرف في خصائصه وأن يضعها في مواضع الحاجة إليها، هكذا كان شأن الذكر والأنثى، فما ولدا من الأولاد نشأ مثل نشأتهما في الأحوال كلها، ألم تر كيف اهتدى أحد بني آدم إلى دفن أخيه من مشاهدة فعل الغراب الباحث في الأرض، فكان الاستنباط الفكري والتقليد به أُسّ الحضارة البشرية[2].

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص : ٥١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج٢، ص : ٣٠٣

لقد أكمل الله تعالى عقول أفراد هذه الأمة بما تنشأ عليه عقولهم من الاعتياد بالعقائد الصحيحة ومجانبة الأوهام السخيفة التي ساخت فيها عقول الأمم، ومن الاعتياد بتلقي الشريعة من طرق العدول وإثبات أحكامها بالاستدلال استنباطا بالنسبة للعلماء وفهما بالنسبة للعامة، فإذا كان الأمر كذلك فإنه يلزم من معنى قوله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ...﴾[سورة البقرة:١٤٣] أن عقول أفراد هاته الأمة عقول قيمة وهو معنى كونها وسطا، ثم هذه الاستقامة تختلف بها يناسب كل طبقة من الأمة وكل فرد، فمجموع الأمة لا يقع في الضلال لا عمدا ولا خطأ، أما التعمد فلأنه ينافي العدالة، وأما الخطأ فلأنه ينافي الخلقة على استقامة الرأي، فإذا جاز الخطأ على آحادهم لا يجوز توارد جميع علمائهم على الخطأ [1].

إن إصلاح عقل وتفكير الإنسان هو إصلاح جميع خصاله، ويجيء بعده الاشتغال بإصلاح أعماله، وعلى هذين الإصلاحين مدار قوانين المجتمع الإسلامي [2].

وإصلاح التفكير، هو التفكير فيما يرجع إلى الشئون في الحياة العاجلة والآجلة لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنجاح في الحياتين كي يسلم صاحبه من الوقوع في مهاوي الأغلاط في الحياة العاجلة وفي مهاوي الخسران في الحياة الآخرة، وبهذا يمكن القول بأن إصلاح التفكير من أهم ما قصدته الشريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الأفراد، وبهذا نفهم وجه اهتمام القرآن

---

(١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص : ١٩ – ٢٠

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٤٥

الكريم باستدعاء العقول للنظر والتذكر والتعقل والعلم والاعتبار، فالغفلة عن الحقائق والخطأ في إدراكها من أكبر المصائب في العاجل والآجل ؛ لأنه يوقع صاحبه في مهواة الضلالة من حيث يتطلب الهدي والنجاة، أو يضيع عليه مدة من نفيس عمره حتى يفيق من ضلاله (١).

وقد حثنا القرآن الكريم على تعمق النظر والفكر وعدم الانخداع بظواهر الأمور، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [سورة البقرة:٢٠٤]، يقول ابن عاشور : وفي هذه الآية معان من معاني أدب النفوس ومراتبها وأخلاقها تعلم المؤمنين واجب التوسم في الحقائق ودواخل الأمور، وعدم الاغترار بالظواهر إلا بعد التجربة والامتحان، فإن من الناس من يغر بحسن ظاهره وهو منطو على باطن سوء، ويعطي من لسانه حلاوة تعبير وهو يضمر الشر والكيد (٢).

كما أن المقصود من قوله تعالى : ﴿... وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ...﴾ [سورة البقرة:٢١٦] هو الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن (٣).

إن الحق والهدى يحتاج إلى عقول سليمة ونفوس فاضلة وتأمل في الصالح والضار وتقديم الحق على الهوى والرشد على الشهوة ومحبة الخير للناس، فهذه

(١) المرجع السابق ، ص : ٥١ – ٥٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ص : ٢٧٤

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص : ٢٨٧

صفات إذا اختل واحد منها تطرق الضلال إلى النفس بمقدار ما انثلم من هذه الصفات، واجتماعها في النفوس لا يكون إلا عن اعتدال تام في العقل والنفس، وذلك بتكوين الله وتعليمه وهي حالة الرسل والأنبياء، أو بإلهام إلهي كما كان أهل الحق من حكماء اليونان وغيرهم من أصحاب المكاشفات وأصحاب الحكمة الإشراقية أو الذوق، أو عن اقتداء بمرشد معصوم كما كان عليه أصحاب الرسل والأنبياء وخِيرَة أممهم (١).

إن القرآن الكريم يحتوي نماذج كثيرة لأصحاب التفكير الصالح، وكذا لأصحاب التفكير الضال، فقصة نوح - عليه السلام - مع قومه تعد صورة واضحة من تفكير أهل العقول السخيفة التي ران عليها الضلال الذي قلب أفكارها إلى اعوجاج فظيع، وهي الصورة التي تتمثل في الأمم التي لم يثقف عقولَها الإرشادُ الديني فغلب عليها الانسياق وراء داعي الهوى وامتلكها الغرور بظن الخطأ صوابا وعدمت الوازع النفساني، فلم تعبأ إلا بالصور المحسوسة ولم تهتم إلا باللذات وحب الذات ولا تزن بمعيار النقد الصحيح خلوص النفوس من دخل النقائص (٢).

إن للتفكير درجات متصاعدة تصاعدا مناسبا لمقادير إفهام المفكرين ومقادير احتياجهم إلى التفكير، ففي الناس عالم ومتعلم وعامي، وفي كل صنف من هؤلاء مراتب متفاوته في وصفه، فكل فرد مأمور بصحة التفكير في دائرة ما

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص : ٢٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص: ٦٣

يحتاجه من الأعمال تفكيرا يعصمه من الوقوع في مهاوي الأخطاء، وذلك فيما يصدر عنه من الأعمال على اختلافها [1].

ومن سبل إصلاح العقل والتفكير عدم الاستناد لأدلة موهومة، فهذا أدب خلقي عظيم كما يرى ابن عاشور، وهو أيضا إصلاح عقلي جليل يُعَلِّم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضا إصلاح اجتماعي جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جراء الاستناد إلى أدلة موهومة[2].

إن ابن عاشور يؤكد دائما على قيمة إصلاح التفكير لدي أفراد الأمة، ويرى أن الأمة التي يزجي بها دينها إلى صحة التفكير في كل النواحي العارضة في الحياة العقلية والعلمية لهي جديرة بما تناله من سيادة العالم إذا كانت أخلاقها الدينية غير مشوبة بخليط الخطأ في فهمه [3].

أما عن نواحي ومجالات إصلاح التفكير، فيرى ابن عاشور أن نواحي إصلاح التفكير الواردة في الإسلام ثمان نواحٍ من أصول نجاح المرء والجماعة في المجتمع، هي: تلقي العقيدة، وتلقي الشريعة، والعبادة، وتحصيل النجاة، والحزم، والمعاملة، والأحوال العامة، ومصادفة الحق في المعلومات [4].

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٥٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص : ١٠١

(٣) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٦٣

(٤) المرجع السابق ، ص : ٥٣

أما التفكير في العقيدة فلأنها أصل الإسلام، فالدعوة إلى تصحيح التفكير فيها تأصيل للتفكير عند المسلم في أول تلقيه للإسلام، أما التفكير في العبادة فيكون بتعليم المسلمين أن العبادات كلها تعود عليهم بالخير عاجلا وآجلا، ولا تعود على المعبود بنفع ولا ضر، والتفكير في المعاملة بين الناس ينبني على الشعور بما لأجله احتاج المرء إلى المعاملة مع الناس، وعلى الإنصاف من النفس .

أما التفكير في مصادفة الحق في المعلومات، فيرى ابن عاشور أن الأهم في صلاح التفكير والمقدم في نظر الشرع هو العلوم الشرعية بأقسامها الراجعة إلى ما فيه صلاح الأمة، ويرى أيضا أن أكبر أسباب الخلل والضلال في العلم تنجَرُّ من محاولة إرغام الحق والعلم على أن يكون وفق هوى ذي الهوى وعلى حسب شهوته، وأكبر أسباب النجاح والهدى جعل الحق والعلم رائدين في القول والعمل وإن خالف المشتهى، فإن العلم الصحيح عبارة عن إظهار الحقائقفي صورة جامعة لها وتسهيل إدراكها لمريده، أما المعلومات العقلية والأدبية فما كان منها له اتصال بالعلوم الشرعية من حيث تحتاج الأمة إليه في تقويم ما جاء الإسلام لأجله فله من حكم الحض عليه والتحذير من الغلط فيه ما تأخذه الوسيلة من حكم المقصد، وما كان منها بعيدا عن ذلك فهو والمعلومات الفنية والصناعية لم يتصد الإسلام للحث على الإتقان فيها ؛ لأن داعي المرء إلى الإتقان فيها باعث من النفس، ولأن الخطأ فيها يفيت على المرء الانتفاع بما قصده منها [1].

(١) ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام،مرجع سابق،ص ٥٣ - ٦٣

وهذا لا يعني أن ابن عاشور ينكر العلوم الأخرى غير الشرعية، على أنه نفسه كان له باع طويل أشاد به معاصروه في بعض العلوم الأخرى كالتاريخ وعلوم الطبيعة والطب.إضافة إلى إصلاحاته التعليمية في جامع الزيتونة بإدخاله علوم عصرية متنوعة

ويتضح مما سبق أن الإسلام يحث على الفكر والتعقل واستخدام ملكات العقل ؛ لأن من مقتضيات الفطرة القدرة على الإحاطة والإلمام بجزيئات الحياة، والتشريع لا يمكن أن يكون متحداً إلا إذا قام على أساس عقلاني، والتطور لا يحدث إلا بالتفكير (١).

وعلى هذا الأساس فإنه على التربية الإسلامية أن تعمل على تنمية العقل واستغلال طاقاته في الإبداع والإبتكار، وأن تزود الأفراد بأسس التفكير العلمي السليم، وتدربيهم على كيفية ربط الفكر بالسلوك، وكيفية حل المشكلات الفردية والجماعية، وأن تجعل الفرد في النهاية يقيم إسلامه على أساس من التفكير السليم، وهذا يتطلب تعريف الأفراد بنعمة العقل وأنه تكريم من الله للإنسان، وهذا يتطلب العمل على اتخاذ أساليب لحمايته والبعد عن كل ما يذهبه، مع إتخاذ وسائل تقوية المدارك العقلية واتخاذ التفكير المنطقي الإسلامي في الوصول إلى الحقيقة سواء كانت مادية أو معنوية، ومن معجزة الإسلام أن هذا لا يتعارض مع تربية الإنسان على التسليم بكل ماجاءت به الأصول الإسلامية (٢).

---

(١) محروس سيد مرسي : **التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية** ، ط١، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، ص : ٢٥٧

(٢) منى علي السالوس : **دور التربية الإسلامية في تنمية المجتمع** ، دار الثقافة ، الدوحة ، ومكتبة دار القرآن ، الشرقية ، مصر ، ٢٠٠٨م ، ص : ١٧١

فينبغي على المؤسسات التربوية المعاصرة إرساء أساليب تربوية بعيدة عن التلقين والحفظ إلا عند الضرورة، بل ينبغي عليها إتاحة المجال لإبداع المتعلمين من خلال أساليب متعددة كأسلوب حل المشكلات والتعلم الإبداعي .. فهذا ليس فيه صلاح للأفراد فحسب، بل فيه صلاح عظيم للمجتمع كله .

٣ - إصلاح العمل:

إن صلاح العمل من أخطر القضايا التي تخص المجتمع الإسلامي، وقد تناولها الشيخ ابن عاشور من زاوية فلسفية وعبر المذاهب [١].

والعمل الصالح هو العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحا لا يشوبه فساد، وهو الجاري على وفق ما جاء به الدين، وهو ما وُصِف به المؤمنون في قوله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٠] [٢].

إن إصلاح العمل يتوقف على إصلاح الاعتقاد بترك الشرك، قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [سورة الإسراء:٢٢]، فخلاصة أسباب الفوز هو ترك الشرك ؛ لأن ذلك هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح، فهو أول خطوات السعي لمريد الآخرة، ولأن الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول [٣].

---

(١) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ١٦٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٤ ، ص : ٢٨٨

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٦٤

ويؤكد ابن عاشور على قيمة الأعمال وأهميتها في التشريع الإسلامي؛ لأن لها المرتبة الثانية بعد الإيمان والإسلام، ولأنها مكملةٌ المقصدَ، ولا ينازع في هذين - أي كونها في الدرجة الثانية وكونها مقصودة - إلا مكابر، ومما يؤيد هذا أكمل تأييد ما ورد في الصحاح في حديث معاذ بن جبل أن النبي - ﷺ - كان قد بعثه إلى اليمن، فقال له : " إنك ستأتي قوما أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"[١]، فلولا أن للإيمان وللإسلام الحظ الأول لَمَا قدّمه النبي ﷺ، ولولا أن الأعمال لا دخل لهافي مسمى الإسلام لما فرّق بينهما [٢].

إن أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، فجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة، لذلك كان أسلوب الإسلام في الأمر بالأعمال الصالحة والنهي عن أضدادها أن يبتدئ بإصلاح العقيدة، وفي الحديث، أن أبا عمرة الثقفي، قال : قلت يا رسول الله : قل ليفي

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا ، رقم (١٤٢٥) .

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٢٧٢- ٢٧٣

الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك، قال : " قل آمنت بالله ثم استقم "[1]، فإصلاح العمل هو الاستقامة[2].

إن قاعدة أداء الأعمال أو عدمه هي الاستطاعة، فنحن إذا رجعنا إلى تحكيم الفطرة العقلية وجدنا من أنفسنا استطاعة بها نفعل وبها ندع .. ونحن أيضا نجد من الفطرة في أنفسنا أننا مخلوقون لله تعالى واستطاعتنا منه تعالى، فالاعتقاد الصحيح أن لنا كسبا واستطاعة يكون بهما الميل إلى الفعل والانكفاف عنه، وأن وراءنا تيسيرا بالتوفيق أو بالخذلان تخف به الأفعال الصالحة على النفس تارة وتثقل تارة أخرى، وهذا يروض المسلمين ويعلمهم الافتقار إلى الله تعالى في طلب التوفيق والعصمة من الخذلان، وبذلك ينشأ عاملان لابد منهما في استقامة الأعمال، هما السعي الكامل بكل قواهم، وتطلب الكمال فيما يتجاوز قوته من واهب القوى ومفيض السعادة y[3]، ويؤكد ذلك قولهﷻ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة ٥ :٦].

إن إنزال الناس منازلهم المناسِبة لهم ومعرفة أقدارهم يحقق الغاية من تصنيفهم وإحلال كل فرد منهم في مكانه الذي يمكنه الإنتاج فيه، فهذا من العوامل ذات الأثر المحمود في بناء المجتمع، فوضع الشيء في موضعه هو عين الحكمة، لهذا لا يجوز أن نضع السفلة من الناس في موضع الرئاسة ؛ لأنه لا خُلُق

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام ، رقم (٣٨) .

(٢) ابن عاشور : <u>أصول النظام الاجتماعي في الإسلام</u> ، مرجع سابق ، ص : ٦٣

(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٧ – ٦٨

لهم يرجعون إليه ولا أصل يحافظون عليه، كذلك لا يجوز إحلال الجهلة محل المفكرين المبدعين[(1)].

فمن منحه الله القدرة المالية والغنى أناط به واجب الإنفاق على من تحت رعايته وعلى الفقراء والمساكين ومن حرم نعمة المال، ومن أتاه الله القوة والجاه والسلطان والقدرة على التغيير والاستصلاح والتأثير في سلوك الآخرين وتعديله أناط به واجب التغيير والإصلاح بين الناس وإيصال الحقوق إلى أهلها وحمايتها ورعاية الأعراض والأنفس وإقامة أحكام الدين، ومن منحه الله نعمة العلم والقدرة الفكرية أناط به واجب تعليم الآخرين وتعديل سلوكهم[(2)].

وقد قسم ابن عاشور الأعمال البشرية قسمين : نفسية وبدنية، فالنفسية هي الانفعالات النفسانية التي تترتب عليها آثار حسنة أو قبيحة، وهي باعث للأعمال البدنية، والتي يقصد بها الأفعال الصادرة من الأعضاء والجوارح لتحصيل مقصود دَفَعَ إليه العقل، ولقد اهتم الإسلام بإصلاح القسمين، وكان الاهتمام أكثر بالأعمال النفسية القلبية[(3)].

فالأعمال القلبية وهي قسم الأخلاق والضمائر قد أشار إليها قوله – ﷺ – : " التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات"[(4)]، يعني القلب الذي يراد به

---

(1) محمد السيد الوكيل : **قواعد البناء في المجتمع الإسلامي** ، ط1 ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، 1986م ، ص: 141

(2) بلغيث بن أحمد الغانمي : **منهج التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم وتطبيقاته من خلال البيئة المدرسية** ، رسالة ماجستير ، 1429هـ ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، السعودية ،ص : 74

(3) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : 68

(4) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (2564).

مقر الفكر، ويظهر إصلاح الضمائر في النهي عن الكبر، والعجب، والغضب، والحقد والحسد، وفي الأمر بالإخلاص، وحسن النية، والإحسان، والصبر (١).

إن إصلاح النفس يستلزم تزكيتها وتطهيرها، وذلك لأن في أصل خلقة النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها، وفي الحديث " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (٢)، ففي الإرشاد إلى الصلاح والكمال نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة (٣).

إن إصلاح العمل يرتبط بإصلاح النفس التي تقوم على الكمالات والفضائل، ولكن تكوين الكمالات في النفوس أمر صعب، يتطلب سعي الإنسان الدائم لتكوينها واستقرارها في النفس .

ولكن كيف تنشأ الأعمال القلبية أو الفضائل ؟ يجيب ابن عاشور بأن الله تعالى جعل نظام الوجود في هذا العالم بتولد الشيء من بين شيئين وهو المعبر عنه بالازدواج، غير أن هذا التولد يحصل في الذوات بطريقة التولد المعروفة، أما حصوله في المعاني فإنما يكون بحصول الصفة من بين معنى صفتين أخريين متضادتين تتعادلان في النفس فينشأ عن تعادلهما صفة ثالثة .

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٧٠

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى ، كتاب الشهادات ، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز ، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ، حديث رقم (٢٠١٧٤) .

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ص : ٤٩

والفضائل جعلت متولدة من النقائص، فالشجاعة من التهور والجبن، والكرم من السرف والشح، ولا شك أن الشيء المتولد من شيئين يكون أقل مما تولد منه، لأنه يكون أقل من الثلث، إذ ليس كلما وجد الصفتان حصل منهما تولد صفة ثالثة، بل حتى يحصل التعادل والتكافؤ بين تلك الصفتين المتضادتين وذلك عزيز الحصول، ولا شك أن هذه الندرة قضت بقلة اعتياد النفوس هذه الصفات، فكانت صعبة عليها لقلة اعتيادها إياها (١).

ومن أعظم الأخلاق الإسلامية التي لها صلة وثيقة بإصلاح الأعمال التوكل على الله تعالى والرضا بالقدر، فالتوكل كما ذكر ابن عاشور هو الاعتماد على الله في تحصيل المرغوب في الدنيا والآخرة، وذلك برجاء تيسير الأسباب للنجاح ودفع العوائق المفضية إلى الخيبة، وله أثر عظيم في نجاح الأعمال إذ هو في معنى الاستعانة بالله بعقد القلب على رجاء الإعانة أو بسؤاله مع ذلك بالدعاء باللسان، وقد أمر الله به في مواضع من كتابه وأثنى على المتوكلين، فالتوكل إذن هو تفويض مباشرة صلاح المرء إلى الله تعالى، وهذا تفويض يقتضي طلب الخير، وهذه الخصلة هي مثار الثقة بالنجاح في ابتداء الأعمال (٢).

إن التوكل على الله يستلزم الاستعانة به سبحانه، وهي طلب المعونة على ما لا قبل للبشر بالإعانة عليه ولا قبل للمستعين بتحصيله بمفرده، ولذلك فهي

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ص : ٣٢٢ – ٣٢٣.

(٢) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص : ١١ .
- ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٧٣ - ٧٤ .

مشعرة بأن المستعين يصرف مقدرته لتحصيل الفعل ويطلب من الله العون عليه بتيسير ما لا قبل لقدرة المستعين على تحصيله بمفرده، فهذه هي المعونة شرعا (١).

لقد أراد الإسلام من أتباعه الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف، ولأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نَتَعَرَّفها بعلاماتها،ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها، قال الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [سورة الإسراء:١٩]، ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبباتها، وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد، أو لكون السبب الواحد قد يكون سببا لأشياء متضادة باعتبارات مختلفة فيخطئ تعاطي السبب في مصادفة المسبب المقصود، ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملا وهمجا (٢)، **وقد أشار إلي ذلك أيضا قول رسولنا الكريم** : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " (٣).

أما الأعمال البدنية فهي التي تقترفها الجوارح الظاهرة، وكلها تجري على ما يأمر به العقل المهيمن عليها، وملاك صلاحها الوقوف عند حدود الشريعة فيها

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ١٨٤.

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٣ ، ص : ٢١ - ٢٢

(٣) وهو جزء من حديث ، ولفظه في صحيح البخاري " قال اعملوا فكل ميسر " ، وقد ورد في كتاب الأدب ، باب باب الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض ، رقم (٥٨٦٣).

واعتقاد أن ذلك سبب النجاح، فلا يستقيم حال المسلم في أعماله إلا بالأخذ بالأحكام الخمسة الشرعية، وهي الوجوب والندب والإباحة والكراهة والحرمة[1].

ومن الأعمال البدنية التي تدخل ضمن إصلاح السريرة الظاهرة: العبادات، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[سورة الذاريات:٥٦]، فالعبادة هي تعظيم أمر الله والشفقة على الخلق[2].

وحيث كانت النفس والعقل هما الدافعان للبدن إلى الأعمال كانت تزكية النفس أهم ما دعا إليه الإسلام، وذلك هو قسم العبادات، فالعبادات لها خصوصية تزكية النفس بما يقارنها من مراقبة الخالق ومن التفكير في رفع الدرجات، فيحصل من تكرارها آثار في النفس تُزَكِّيها وتطهرها حتى يصير الخير لها سجية[3]، ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [سورة العنكبوت:٤٥].

إن العبادة هي الصلة الدائمة بين المسلم وربه، وهي التربية الدائمة للإنسان - جسمه وعقله وضميره ووجدانه - وبهذا المعنى يصبح من الواجب على منهج التربية الإسلامية أن يتنازل عن تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات ومعاملات، فهذا تقسيم فقهي في مرحلة متأخرة[4].

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق،ص٧٦ -٧٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ١٨٠

(٣) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٦٩

(٤) علي أحمد مدكور: **نظريات المناهج العامة**،ط١ ، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٩١م ، ص:١٥٦

إن إصلاح الأعمال في منهج التربية الإسلامية يتطلب تحقيق مبدأ الثواب والعقاب ؛ لأن الدين الإسلامي الحنيف لما أمرنا بالأعمال الصالحة ونهانا عن الفساد، كان ولابد من الجزاء على الأعمال ؛ تحقيقا لمبدأ المسئولية، قال تعالى : ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سورة سبأ:٤]، فالتعليل بقوله:" لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ "؛ إبداء لحكمة البعث وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا، إذ لو ترك الناس على أعمالهم بغير جزاء على الحسن والقبيح لاستوى المحسن والمسيء، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالا من المحسنين، فكان من الحكمة أن يلقى كل عامل جزاء عمله [١].

والإنسان بفطرته السوية وقدراته الاستخلافية وخياراته المتاحة يتمتع بحرية القرار فيما يملكه من القدرات، وعلى عاتقه تقع مسئوليات هذه القرارت[٢]،فقال تعالى:﴿... لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ...﴾[سورة البقرة: ٢٨٦] .

غير أن الله تعالى لايظلم عباده أبدا – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – فمن لا يستطيع تحمل المسئولية فلا يعاقب على شيء ولا يتحمل وزر غيره؛ انطلاقا من قول الله تعالى : ﴿... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف:٤٩]، وقوله ﷻ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء:١٥]، وقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ...﴾ [سورة البقرة:٢٨٦]، ويرى ابن عاشور– من خلال الآية السابقة – أن هذا دليل على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص: ٩١

(٢) عبد الحميد أحمد أبو سليمان : **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي** ، ط١ ، دار السلام للطباعة والنشر ، ٢٠٠٩م ، ص: ١٣٠

تعالى ؛ لأن الله تعالى ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله .. كما أن هذه الآية تقتضي عدم وقوع التكليف بما لا يطاق في الشريعة بحسب المتعارف في إرادة البشر وقدرهم (١).

وقد ذكر ابن عاشور أثر مقومات الإصلاح الفردي السالفة الذكر على الإنسان في الدنيا من خلال تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [سورة يونس:٥٨]، فقال : " إن كمال النفس وصحة الاعتقاد وتطلع النفس إلى الكمالات وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسب الراحة في الدنيا وعيشة هنيئة " (٢).

وعلى ذلك ينبغي على مناهج التربية المعاصرة – حسب التصور الإسلامي – أن تشمل كل النشاطات الإنسانية من روحانيات وأخلاقيات وعبادات ومعاملات وماديات، فلا يطغى جانب على آخر ؛ حتى لا يغرق المجتمع في فلك التخلف والبلاء .

ب – الإصلاح المجتمعي :

كان الإصلاح الاجتماعي من مهام الرسل والأنبياء تجاه أقوامهم ؛ لذا فإن حاصل ما أمر به شعيب عليه السلام قومه - بعد الأمر بالتوحيد - ينحصر في ثلاثة أصول، هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء، كما دعاهم إلى إصلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض (٣).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣ ، ص : ١٣٥ – ١٣٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص: ٢٠٧

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص : ٢٤٣ ، ج١٢ ، ص : ١٣٦

وقد تحدث الشيخ ابن عاشور كثيرا في جل مؤلفاته عن نظام سياسة الأمة التي تضبط العلاقات والمعاملات بين الناس، وكذا أسس النظام الاجتماعي الصالح التي تعد من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية .

فيرى أن مقصد سياسة الأمة من مقاصد القرآن الكريم الأصلية، وبه يكون صلاح الأمة وحفظ نظامها من خلال تكوين الجامعة الإسلامية القائمة على رابطة الأخوة (١)، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣].

وقد بيّن الله تعالى أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ،مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[سورة النحل:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [سورة النساء:٢٩]، وقوله في سياق الذم : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة:٢٠٥]، وبيّن الرسول عليه الصلاة والسلام تصرفات ولاة الأمور في شئون الرعية ومع

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، بتصرف ، ج١ ، ص : ٤٠

أهل الذمة ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبيّن أصول المعاملات بين الناس، فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضّح لهم الشرع تحقق لهم وعد الله الجليل .

هذه التكاليف التي جعلها الله لصلاح أمور الأمة وعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن، وجعل الإيمان عمودها، فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحفُّ اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حفّ بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها وعند تخليطهم الصلاح بالفساد، فَرَفَقَ بهم ولم يعجل لهم الشر، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء١٠٥ :١٠٧]، يريد بذلك كله المسلمين، وبهذا خططت الشريعة للمسلمين النظم للمجتمع الإسلامي الكامل بعد أن تقومت فيهم حالة كاملة من الصلاح الفردي [1].

وهذه النظم (أصول نظام سياسة الأمة) ترعوى إلى فنين أصليين، هما :

فن القوانين الضابطة لتصرفات الناس في معاملاتهم، وعماده مكارم الأخلاق والإنصاف والاتحاد والمواساة، وهذا الفن موكول إلى الوازع الديني النفساني .

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٨ ، ص : ٢٨٣ – ٢٨٤
- ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٢٢

فن القوانين التي بها رعاية الأمة في مرابع الكمال وذود أسباب الاختلال عنها كالمساواة، والحرية، والتسامح، وحفظ مال الأمة وتوفيره، وحفظ البلاد وحدودها، وإقامة الحكومة الإسلامية، وهذا الفن موكول إلى تدبير سياسة الأمة بإجراء الناس على صراط الاستقامة في مقاصد الشريعة بالرغبة والرهبة (١).

وإذا كان الفن الثاني موكولا إلى ولاة الأمور فهذا لا يعني أن أفراد المجتمع غير مسئولين عن ذلك، بل لهم دور عظيم في تحقيق مبادئ هذا الفن، يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[سورة النور:٥٥] "وتعليق فعل الاستخلاف بمجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات – وإن كان تدبير شئون الأمة منوطا بولاة الأمور لا بمجموع الأمة – من حيث إن لمجموع الأمة انتفاعا بذلك وإعانة عليه، كلٌّ بحسب مقامه في المجتمع " (٢).

لقد دعت الشريعة الإسلامية إلى الأخذ بكل القيم والمقاصد التي بها إصلاح المجتمع ونهضته في مختلف المجالات الإنسانية، كالمواساة، والمساواة، والشورى، والتسامح، والحرية ..

إن هذه القيم والمقاصد العامة لا يقتصر أثرها الإيجابي على المسلمين فقط، بل أفاد منها غير المسلمين حال تطبيقهم لها .

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٢٢ – ١٢٣

(٢) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص: ٢٨٥

فلو أن قوما غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشئون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنوا من سيرتهم صورا تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون ؛ لأن تلك الأعمال صارت أسبابا وسننا تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سننا وقوانين عمرانية ألا ترى أن القادة الأوربيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شئون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية – قد نظَّموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان، فعظمت دولهم واستقامت أمورهم (١).

وسوف يتناول الباحث هذه القيم بشيء من التفصيل، ومن أهمها :

١- المواساة :

يعرف ابن عاشور المواساة بأنها كفاية حاجة محتاج الشئ مما به صلاح الحال، وهي شعور فطري تنفعل به النفس عند مشاهدة الضعيف، وكانت المواساة – ولا تزال – سمةٌ للمجتمع الإسلامي، فهي أصل من أصول نظامه، وجرت بها توجيهات القرآن وأوامره والسنة وأحكامها، وقامت عليها من شواهد التاريخ الإسلامي ما أعلى من مقامها ورفع منزلتها، وهي في شرعة الإسلام جبرية واجبة، واختيارية مندوب إليها، فهي تظهر في صور كثيرة مفروضة وإحسانية كالزكاة، والصدقة، والإنفاق، والهبة، والمنحة ... (٢).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٨ ، ص : ٢٨٤- ٢٨٥

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٣٧ – ١٣٨

ويُنَوّه ابن عاشور بشأن المواساة باعتبارها مقصداً من مقاصد التشريع الإسلامي، فيقول : ولتحقيق مقصد الشريعة من جَعْلِ المواساة خلقاً للمسلمين جاءت الأوامر والنواهي بتجريد أنواع المواساة عن كل ما فيه حظ عاجل لنفس المواسي، وكل ما فيه إضرار بالمواسَى، وعن إتباع النفس لما واست به وتعلقها به، فتنزيهها عن حظٌ نفس الباذل (المواسِي) قد ثبت بالنهي عن طلب الأجر العاجل عن المعروف (1)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان:٩].

إن المواساة تَتَقَوَّى عنها الأخوة والاتحاد، مع إقامة مصالح كثيرة للأمة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع ؛ حتى يصير الناس كلهم أحرارا (2).

إن للمواساة صورا كثيرة، منها الإنفاق على المحتاجين من الناس بالصدقات وغيرها، وللمُنفِق أجر عظيم عند الله تعالى، قال تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٦١]، **يقول ابن عاشور** : إنّ المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلاّ الله تعالى ؛ لأنها تترتّب على أحوال المتصدِّق وأحوال المتصدَّق عليه وأوقات ذلك وأماكنه، وللإخلاص وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما يحفّ بالصدقة والإنفاق تأثير في تضعيف الأجر، ويجب أن يصدر العطاء عن كرم النفس

---

(1) المرجع السابق ، ص : ١٣٩

(2) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ، ص : ١٣٢

وحبّ المحمدة، فللنفوس حظّ فيه مع حظّ المعطَى، فإنفاق المال من أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفس ؛ لأنّ المال ليس أمراً هيّنا على النفس، ويجب البعد عن المنّ والأذى في الصدقة، فهما أكثر حُصولاً لكون الصدقة متعلّقة بأشخاص معيّنين، والمنّ على المتصدّق عليه هو تذكيره بالنعمة، والأذى كالتطاول عليه بأنّه أعطاه، أو أن يتكبّر عليه لأجل العطاء، بل تعييره بالفقر، وهذا ما يحدث من البعض، حيث يميلون إلى التبجّح والتطاول على المعطَى (1)، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٤] .

وقد اعتنى الإسلام بالإنفاق في وجوه البرّ والمعُونة، وكيف لا يكون كذلك وقوام الأمة دوران أموالها بينها، وإنّ من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعْي المنفعة العامة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاةِ الإحسان للذي بطَّأ به جُهده، وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية، ولقد كان مقدار الإصابة والخطأ فيه هو ميزان ارتقاء الأمم وتدهورها، ولا تجد شريعة ظهرت ولا دعاة خير دعَوا إلاّ وهم يجعلون لتنويل أفراد الأمة حَظاً من الأموال التي بين أيدي أهل الثروة غير أنّك لا تجد شريعة سدّدت السهم لهذا

(1) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج٣، ص : ٤٢- ٤٤، ٥١

الغرض وعرفت كيف تفرق بين المستحب فيه والمفتَرَض كشريعة الإسلام، فإنّها قد تصرّفت في نظام الثروة العامة تصرّفاً عجيباً أقامته على قاعدة توزيع الثروة بين أفراد الأمة، وذلك بكفاية المحتاج من الأمة مؤونة حاجته، وذلك على وجوه لا تحرم المكتسب للمال فائدة اكتسابه وانتفاعه به قبل كل أحد (١).

وقد عمدت الشريعة الإسلامية إلى الانتزاع من مال الأغنياء انتزاعاً منظّماً، فجعلت منه انتزاعاً جبرياً بعضه في حياة صاحب المال، وهو الصدقات الواجبة، ومنها الزكاة، كما جعلت الشريعة من الانتزاع انتزاعاً مندوباً إليه غير واجب، وذلك أنواع المواساة بالصدقات والعطايا والهدايا والوصايا وإسلاف المعسر بدون مراباة، وليس في الشريعة انتزاع أعيان المملوكات من الأصول، فالانتزاع لا يعدو انتزاع الفوائد بالعدالة والمساواة(٢).

إن مقصد الشريعة من الإنفاق إقامة مصالح ضعفاء المسلمين، ويكون ذلك بتعميمه ودوامه لتستمر منه مقادير متماثلة في سائر الأوقات، ويحصل التعميم والدوام بالإنفاق من الفاضل عن حاجات المنفقين، فحينئذ لا يشق عليهم فلا يتركه واحد منهم ولا يخلون به في وقت من أوقاتهم، وهذه حكمة بالغة وأصل اقتصادي عمراني، وفي الحديث "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول"(٣)، فإن البداءة بمن يعول ضرب من الإنفاق، لأنه إن تركهم في خصاصة احتاجوا إلى الأخذ من أموال الفقراء (٤).

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص: ٤٤- ٤٥

(٢) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج٣، ص: ٤٦ – ٤٧.

(٣) **رواه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، رقم (٥٠٤١).**

(٤) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج٢، ص: ٣٥١ – ٣٥٢.

ومن النماذج القرآنية الدالة على المواساة بالإنفاق قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة:٢١٥]، فهذه الآية الكريمة دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء والترغيب فيه، وهي في النفقة التي ليست من حق المال أي الزكاة، ولا هي من حق الذات كالزوجة، بل هذه النفقة التي هي من حق المسلمين بعضهم على بعض لكفاية الحاجة وللتوسعة، وأولى المسلمين بأن يقوم بها أشدهم قرابة بالمعوزين منهم، فمنها واجبة كنفقة الأبوين الفقيرين والأولاد الصغار الذين لا مال لهم إلى أن يقدروا على التكسب أو ينتقل حق الإنفاق إلى غير الأبوين [١].

وتكون المواساة لذوي القربى أيضا، فالقرابة كلها متشعبة عن الأبوة، ولها حقان، حق الصلة، وحق المواساة [٢].

إن المقصد الشرعي والاجتماعي لإيتاء ذي القربى ومواساتهم مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين؛ رعيا لاتحاد المنبت القريب، وشدا لآصرة العشيرة التي تتكون منها البَلْدَة، وفي ذلك صلاح عظيم لنظام البلدة وأمنها ودفاعها عن حوزتها [٣].

ويدخل في المواساة أيضا مراعاة الفئات الضعيفة كالأيتام، فقد ثبت أن النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة في حفظ النظام [٤].

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص: ٣١٧

(٢) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج ١٥ ، ص: ٧٦

(٣) المصدر السابق، ج ١٥ ، ص: ٧٧

(٤) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج٢، ص: ٣٥٥

ولكن كيف يكون إصلاح حال اليتامى ومواساتهم ؟ يجيب ابن عاشور بأن المقصود جميع الإصلاح لا خصوص إصلاح ذواتهم، فيشمل إصلاح ذواتهم وهو في الدرجة الأولى ويتضمن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية ومعرفة أحوال العالم، ويتضمن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم دون تقتير ولا سرف، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها (١).

كما أن لمواساة ابن السبيل والمسكين أثر عظيم في انتظام المجتمع، فإيتاء المسكين يكون لمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون في الغالب قد أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية، أما إيتاء ابن السبيل فهو لإكمال نظام المجتمع ؛ لأن المار به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلا ؛ ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل من إضرار الجوع والفقر أو الحر(٢).

كما أن من صور المواساة إعانة الغير على تحقيق أغراضه الطيبة، فالعون تسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده، وهذا العون يكون - مثلا - بإعارة آلة أو مشاركة بعمل البدن كالحمل والقود أو بقول كالإرشاد والتعليم أو برأي كالنصيحة أو بمال كدفع المغرم، بحيث يحصل الأمر العسير بجهود المستعين والمعين(٣).

---

(١) المصدر السابق ، ج٢، ص : ٣٥٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص : ٧٧ — ٧٨

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ١٨٤

ولتحقيق المواساة بالأموال حُرم الربا، وحكمة تحريمه هي قصد الشريعة حمل الأمة على مواساة غنيها محتاجها احتياجا عارضا مؤقتا بالقرض الذي هو مرتبة دون الصدقة وضرب من المواساة، إلا أن المواساة منها فرض كالزكاة، ومنها ندب كالصدقة والسلف، فإن انتدب لها المكلف حُرم عليه طلب عوض عنها، وكذلك المعروف كله، فالمرء لا يتداين إلا لضرورة حياته، فلذلك كان حق الأمة مواساته، والمواساة يظهر أنها فرض كفاية على القادرين عليها [1].

لقد أرسى الإسلام هذا المبدأ العظيم مراعاة لأحوال بعض فئات المجتمع كالفقراء واليتامى وغيرهم، وقد كثرت هذه الفئات في عصرنا نظرا للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العالمية، وفقدان قيمة العمل لدى البعض، وأنانية بعض أصحاب الأموال، والفساد المستشرى في بعض المجالات الذي أدى بدوره إلى اغتناء فئة على حساب باقي الفئات .

لذا وجب على منهج التربية المعاصرة الأخذ بمنهج الإسلام في معالجة هذه المشكلات بالتصدي للفساد وغرس قيمة المواساة وقيمة العمل في نفوس الأفراد .

٢- المساواة :

إن المساواة تعد من الفن الثاني لنظام سياسة الأمة الذي سماه ابن عاشور "فيما على ولاة الأمور تسييره وتحقيقه لصالح الجمهور" [2].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص : ٨٦

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٤٣

إن مقصد المساواة يتفرع عن الفطرة، فكل ما شهدت الفطرة بالتساوي فيه أو التفاوت فيه فالشرع قاض به، ومعنى ذلك أن الفطرة هي معيار ضبط الموانع المعتبرة إما في إجراء المساواة أو عدم إجرائها [1].

وقد ذكر ابن عاشور أن المساواة الإسلامية الناشئة عن الأخوة ليس المراد منها التساوي في منتجات العقول أو في العلوم أو في مآثر الأعمال؛ وذلك لظهور التفاوت بين الناس في القابليات والهِمَم، ولكن يراد منها ما ينشأ عن معنى الأخوة وهو تساوي المسلمين في الانتساب إلى المجتمع الإسلامي وفي التهيؤ والصلاحية لكل فضيلة في الإسلام إذا وجدت أسبابها وسمحت بها مواهب أصحابها، وأيضا في إعطاء الحقوق المخولة في الشريعة بدون تفاوت بين أصحابها فيما لا أثر للتفاوت فيه بين الناس، فهم متساوون في حق الحياة والوجود، ولا عبرة بالألوان والأشكال والأعراق واختلاف المواطن التي يعيشون فيها، وهم متساوون في أصول التشريع إذا لم يوجد مانع يمنع من ذلك، وهم متساوون في وجوب حفظ الدين والنفس أو العقل والأموال وما إلى ذلك من الضروريات لحياة الفرد وحياة المجتمع، فهي أصل راعته الشريعة ويراعيه ولاة الأمور ويُحمل الناس عليه [2]، فقد جاء الإسلام بتسوية أتباعه في حقوقهم

---

(١) إسماعيل الحسني : **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور**، مرجع سابق، ص ٢٧٤

(٢) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص : ١٤٣ – ١٤٤
- عمار الطالبي : مقاصد الشريعة في المجتمع الإسلامي، **مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث**، الجزائر، المجلد ٣، العدد ٩، ٢٠٠٦م، ص : ١٢٣

في الجامعة الإسلامية، فلا يبقى فيه مَيْز بين أصيل ودخيل، وصميم ولصيق كما كان الأمر في الجاهلية (١).

وقد أكّد ابن عاشور على التزام المسلمين بالمساواة حتى مع المخالفين لهم في الدين، فلم يحفظ التاريخ أن أمة سَوَّتْ رعاياها المخالفين لها في دينها برعاياها الأصليين في شأن قوانين العدالة ونوال حظوظ الحياة بقاعدة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" مع تخويلهم البقاء على رسومهم وعاداتهم- مثل أمة المسلمين، وهذا التسامح حقيق بأن يسمى بالعظمة الإسلامية (٢).

ويرى ابن عاشور أن العدل الذي يحصل به الصلاح والأمن والمساواة هو مساواة بين الناس أو بين أفراد الأمة في تعيين الأشياء لمستحقها، وفي تمكين كل ذي حق من حقه بدون تأخير، فهو مساواة في استحقاق الأشياء وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها، فالأول هو العدل في تعيين الحقوق، والثاني هو العدل في التنفيذ، وليس العدل في توزيع الأشياء بين الناس بمساواة دون استحقاق (٣).

إن أعلى القوانين تحقيقا للعدل هي الشرائع الإلهية لمناسبتها لحال من شرعت لأجلهم، وأعظمها شريعة الإسلام لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضالة، فإنها لا تعبأ بالأنانية والهوى ولا بعوائد الفساد، ولأنها لا تبنى على مصالح قبيلة خاصة أو

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص : ١٣٧

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**،مرجع سابق ، ص : ٢٣٣

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٥ ، ص : ٩٤

بلد خاص، بل تبتنى على مصالح النوع البشري وتقويمه وهديه إلى سواء السبيل، ومن أجل هذا لم يزل الصالحون من القادة يُدَوِّنُون بيان الحقوق حفظا للعدل بقدر الإمكان

هذا بعكس بعض القوانين التي أُسست بدافعة الغضب والأنانية فتضمنت أخطاء فاحشة، مثل القوانين التي يمليها الثوار بدافع الغضب على من كانوا مُتَوَلِّين الأمـور قبلهم[1]، ويؤمر بالعدل والمساواة ولاة الحكم بين الناس، وليس كل أحد أهلا لتولي ذلك، فتلك نكتة قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء:٥٨] [2].

إن من صور المساواة – كما يرى ابن عاشور – المساواة في حقوق المواطنة، فإن للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحق ثابت بالفطرة؛ لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولد بين قوم هو مساوٍ لجميع أهل ذلك الموطن في حق الاستقرار في وطنه وبين قومه بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان [3].

ويجب أن نعلم أن المساواة التي سعت إليها الشريعة الإسلامية مساواة مقيدة بأحوال يجري فيها التساوي، وليست مطلقة في جميع الأحوال ؛ لأن أصل

(١) المصدر السابق ، ج٥ ، ص : ٩٤– ٩٥

(٢) المصدر السابق ، ج٥ ، ص : ٩٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٧ ، ص : ٢٧٤ – ٢٧٥

خلقة البشر جاءت على التفاوت في المواهب والأخلاق، وذلك التفاوت يُؤَثِّر تمايزاً بين أصحابه [1]، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [سورة السجدة:١٨]، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٩] .

ويؤصل ابن عاشور للمساواة وموانعها من خلال تفسير قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[سورة الحُجُرات:١٣]، فيرى أن قوله تعالى: " إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ " كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني، وإنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضا إلا بالكمال النفساني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم والذي جعل التقوى وسيلته، ولذلك ناط التفاضل في الكرم بـ"عند الله"، إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به [2].

وهذا لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس، مثل حسن التربية ونقاء النسب والتعمق في العلم والحضارة وحسن السمعة في الأمم وما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد، فإن للتهذيب والتربية آثاراً جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة، وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى [3].

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**،مرجع سابق ، ص : ١٤٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص : ٢٦١ – ٢٦٢

(٣) المصدر السابق ، ج٢٦ ، ص : ٢٦٢ – ٢٦٣

إذن هناك موانع للمساواة، وهي موانع جِبِلِّيَّة وشرعية واجتماعية، ومن ذلك منع مساواة الرجل بالمرأة فيما لا تستطيع أن تساويه فيه بموجب الخلقة، كما أن الفضائل تمنع مساواة الفاضل للمفضول في الجزاء والمنح، ولا تمنع مساواتهما في الحقوق الأخرى، وكذا مساواة العالم بعلمٍ ما لِمَنْ ليس بعالمٍ به (١).

إن منهج الإسلام في تحقيق مبدأ العدالة والمساواة ينعكس إيجابا على أفراد المجتمع دون تمييز، فيتحقق من خلال ذلك على المستوى التربوي ما يسمى "مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية" بمعنى إتاحة الفرص التعليمية لكل أفراد المجتمع بكل فئاته وطبقاته وبيئاته المختلفة، وبالتالي لا يصبح في المجتمع أي عقبات أمام الفئات الفقيرة لحصولها على التعليم بكل مستوياته .

وعلى الأسرة تربية أبنائها على مبدأ العدل والمساواة، وكذا على المدرسة المعاصرة تحقيق هذا المبدأ من خلال مناهجها .

٣ - الشورى:

إن الشورى تكون لقصد استظهار أنفع الوسائل لحصول الفعل المرغوب على أحسن وجه وأقربه، فالقصد منها العمل بما يتضح منها (٢)، فهي من قواعد

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٥٤
- ابن عاشور : **مقاصد الشريعة الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص : ٣٣٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص : ١٥٢

الشَّريعة وعزائم الأحكام، وهي ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هُدُوا، وقد كان النبي - ﷺ - يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وقد مدحهم الله في ذلك (1).

وتعد الشورى مما جَبَلَ الله تعالى عليها الإنسانَ في فطرته السليمة، أي فَطَرَه على محبة الصلاح وتطّلب النجاح في المساعي، ولذلك قرن الله تعالى خلق أصل البشر بالتشاور في شأنه، إذ قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، إذ قد غَنِيَ الله عن إعانة المخلوقات في الرأي، ولكنه عرض على الملائكة مراده ليكون التشاور سُنَّة في البشر ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر، فقد استشار فرعون في شأن موسى - عليه السلام - فيما حكى الله تعالى عنه بقوله : ﴿... فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [سورة الشعراء:٣٥]، واستشارت بلقيس في شأن سليمان -عليه السلام- فيما حكى الله تعالى عنها بقوله : ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [سورة النمل:٣٢] .

وإنما يُلْهِي الناس عن الشورى حب الاستبداد وكراهية سماع ما يخالف الهوى، وهذا من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة، ولذلك يهرع المستبد إلى الشورى عند المضائق(2).

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عطية الأندلسي : **المحرر الوجيز** ، في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، ج ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص : ٥٣٤
- محمد بن أحمد القرطبي : **الجامع لأحكام القرآن** ، تحقيق : هشام سمير البخاري ، ج ١٦ ، ط١ ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م ، ص : ٣٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤ ، ص : ١٥٠

ويدل على أهمية الشورى أيضا قوله تعالى : ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]، وظاهر الأمر أن المراد المشاورة الحقيقية التي يقصد منها الاستعانة برأي المستشارين بدليل قوله " فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ " وقد دلّت الآية على أن الشورى مأمور بها الرسول - ﷺ - فيما عُبِّر عنه بالأمر، وذلك في غير أمر التشريع ؛ لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه، وإن لم يكن فيه وحي وقلنا بجواز الاجتهاد للنبي - ﷺ - في التشريع فلا تدخل فيه الشورى ؛ لأن شأن الاجتهاد أن يستند إلى الأدلّة لا للآراء، والمجتهد لا يستشير غيره إلا عند القضاء باجتهاده كما فعل عمر وعثمان رضي الله عنهما ، فتعين أن المشاورة المأمور بها هنا هي المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها (١).

وقد أمر الله بالشورى ومدحها في ذكر الأنصار في قوله تعالى: ﴿...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ [سورة الشورى:٣٨]، كما اُشْتُرِطتْ في أمر العائلة، فقال الله تعالى : ﴿... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ ...﴾[سورة البقرة:٢٣٣]، فشرع الله بهذه الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلها، وهي مصالح العائلة ومصالح البلد ومصالح الأمة،وعطف التشاور على التراضي في آية سورة البقرة؛ تعليماً للزوجين شئون تدبير العائلة، فإن التشاور يُظْهِر الصواب ويحصل به التراضي(٢).

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤ ، ص : ١٤٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ،ص: ٤٣٨، ج ٤ ،ص: ١٤٧ – ١٤٨

ويؤكد الشيخ محمد رشيد رضا، على ذلك بأنه إذا كان القرآن يرشدنا إلى المشاورة في أدنى أعمال تربية الولد ولا يبيح لأحد والديه الاستبداد بذلك دون الآخر، فهل يبيح لرجل واحد أن يستبدّ في الأمة كلها وأمر تربيتها، وإقامة العدل فيها أعسر ورحمة الأمراء أو الملوك دون رحمة الوالدين بالولد وأنقص؟[1].

إن موقف الإسلام من الشورى جلي واضح، فقد جعلها فريضة اجتماعية في شئون الحياة كلها : في الحكم ومؤسساته، وفي سائر المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والخدمية والتعليمية والثقافية .

ومظاهر الاستبداد (نقيض الشورى) ماثلة في كثير من المواقع في المجتمع العربي الإسلامي، فكثير من الآباء والأمهات يستبدون بأبنائهم، والمعلمونفي المدارس والجامعات يستبدون بطلابهم[2].

فبتطبيق الشورى يتقدم المجتمع في كل نواحيه، وخاصة في عملية التنمية من خلال استطلاع أكبر قدر ممكن من الأفكار والآراء، كما أن مبدأ الشورى يعد عاملا أساسيا لاستقرار المجتمع، وما نشأت فكرة الديمقراطية الحديثة إلا على أثر الشورى في الإسلام، وعلى ذلك يكون للتربية السليمة الدور الرئيس في ممارسة الشورى سواء في الأسرة أو المؤسسات التربوية .

كما أن عدم ممارسة الشورى يؤدى إلى الاستبداد والعنف لدى بعض أفراد المجتمع، أما من تربَّى على أن يدلو بدلوه بحرية تامة فإنه يكون أكثر مرونة

---

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، ج ٢ ، مصدر سابق ، ص : ٣٢٨

(٢) أحمد المهدي عبد الحليم : الإصلاح التربوي في ضوء الرؤية الكلية الإسلامية ، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة ، بعنوان (الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية)، من ١٣ -١٤ ،أبريل ٢٠٠٨م،ص : ١٨٤

وتواصلا مع أفراد مجتمعه.

٤ ـ التسامح :

لقد عرف ابن عاشور التسامح، بأنه إبداء السماحة للمخالفين للمسلمين في الدين [١]، فالإسلام مع ما دعا إليه أتباعه من جَعْل الدين هو الجامعة العظمى التي تضمحل أمامها سائر الجامعات إذا خالفتها – لم يجعل تلك الجامعة سببا للاعتداء على غير الداخل فيها، ولا لغمص حقوقه في الحياة وإجراء الأحكام، فقد جعل التسامح من أهم أصول نظامه وخصائصه، فهو من النعم التي أنعم بها على أضداده وأعدائه، وأدل حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقررة بقول الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧] [٢] .

إن التسامح وليد إصلاح الفكر ومكارم الأخلاق اللذين يعدان من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، فالفكر الصحيح السليم من الاعتقادات الفاسدة يسوق صاحبه إلى العقائد الحقة ويكسبه الثقة بعقيدته والأمن عليها من أن يزلزلها مخالف، فهو قليل الحذر من المخالف له في العقيدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ...﴾ [سورة المائدة:١٠٥]، بيد أنه قد يحس بشيء من ضيق الصدر والتعجب من قلة اهتداء المخالفين في العقيدة الحقة، وهنا يأتي دور مكارم الأخلاق، حيث يتدرب على تلقي مخالفات المخالفين بنفس مطمئنة وصدر رحب ولسان طلق لإقامة الحجة والهدى دون ضجر [٣]، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء:٣].

---

(١) ابن عاشور : **<u>أصول النظام الاجتماعي في الإسلام</u>**،مرجع سابق ، ص : ٢٢٦

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٢٨ – ٢٢٩

(٣) المرجع السابق ، ص : ٢٢٩

وإقرار التسامح لا يعني إضاعة الحقوق أو ترك البغي والظلم في المجتمع دون عقاب مرتكبه، يقول الله تعالى : ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الشورى:٤٠]، وقد شملت هذه الآية بموقعها – كما يرى ابن عاشور – أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم وما في العفو عنه من صلاح الأمة، ففي تخويل حق انتصار المظلوم من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظلم خوفا من أن يأخذ المظلوم بحقه، فالمعتدي يحسب لذلك حسابه حين ألهم بالعدوان .

وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ آصرة الأخوة الإسلامية بين المظلوم وظالمه ؛ كيلا تَنْثَلِم أو تتفرق، بل تزداد بالعفو متانة، على أن الله تعالى لم يهمل جانب ردع الظالم، فأنبأ بتحقيق أنه بمحل من غضب الله عليه ؛ إذ قال تعالى : " إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ "، ولا ينحصر ما في طيّ هذا من هول الوعيد [1]، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٤]، ويرى ابن عاشور أنه لما كان الإحسان لمن أساء يُدْنِيه من الصداقة أو يكسبه إياها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن، كما أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قويا بقدر تمكن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها، فمن المشهور أن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها [2].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ٢٥ ، ص : ١١٦ – ١١٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ٢٤ ، ص : ٢٩٣

وقد وضع الإسلام أسسا راسخة للتسامح تكون قاعدته الفكرية النفسية هي أن القرآن الكريم وكلام النبي – ﷺ – يعلمان المسلمين أن الاختلاف ضروري في جِبِلَّة البشر، وأنه من طبيعة اختلاف المدارك والعقول في الاستقامة، وهذا المبدأ – التسامح – إذا تخلق به المرء نظر إلى الاختلاف نَظَرَه إلى تفكير جِبلِّي تتفاوت فيه المدارك إصابة وخطئا، لا نَظَرَه إلى الأمر العدواني المثير للغضب (١)، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود ١١٨ :١١٩].

إن التسامح يظهر في المواقع التي يُظَنُّ فيها ظهور ضده، وهو التعصب الذي يظهر في المعاملات العارضة عند الانفعالات الناشئة عن التخالف الديني، والمعاملات الدنيوية التي لا علاقة لها بالانفعالات الدينية (٢).

لقد أُمِرْنا بمعاملة المخالفين لنا في الدين بالبر والقسط، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة:٨]، **قال ابن عاشور**: البر هو حسن المعاملة والإكرام، والقسط هو العدل، والمعنى : أي يحب كل مقسط، فيدخل الذين يقسطون للذين خالفوهم في الدين إذا كانوا مع المخالفة محسنين معاملتهم، ويؤخذ من هذه الآية جواز معاملة أهل الذمة بالإحسان وجواز الاحتفاء بأعيانهم (٣).

---

(١) ابن عاشور: **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص : ٢٣٠

(٢) المرجع السابق، ص : ٢٣٠ – ٢٣١

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ٢٨ ، ص : ١٥٣

وقد حظي النصارى وغيرهم بمعاملة كريمة عند المسلمين، بل جُعل منهم في الدولــة الإســلامية كُتَّــاب الســلاطين وفُــرَّاش الملــوك وأطبــاء الأشراف والعطارين والصيارفة وهي مهمات خطيرة يومئذ عندما أسندت إليهم تدل عـلى تسامح ونبذ للتعصب [1].

ويتضح مما سبق أن منهج الإسلام في التربية يقوم على تربية الأفراد على تقبلهم لغيرهم من أصحاب الاعتقادات والثقافات الأخرى، وغرس قيمة الوسطية والاعتدال في نفوسهم . فعلى المناهج التربوية المعاصرة أن تعمل على بناء أجيال منفتحة على الثقافات الأخرى، فهذا له دور عظيم في نبذ العنف والتعصب .

٥ ـ الحرية:

إن من أسرار الشريعة الإسلامية حرصها عـلى تعمـيم الحريـة في الإسـلام بكيفية منتظمة، فإن الله لما بعث رسوله بدين الإسلام كانت العبودية متفشـية في البشر، وأقيمت عليها ثروات كثيرة، وكانت أسبابها متكاثرة .

فأبطل الإسلام جميع أسبابها عدا الأَسْر، فأبقاه لمصـلحة تشـجيع الأبطـال، وتخويف أهل الدعارة من الخروج على المسلمين ؛ لأن العربي ما كان يتقـي شـيئا من عواقب الحروب مثل الأسر، ثم داوى تلك الجراح البشـرية بإيجـاد أسـباب الحرية في مناسبات دينية جمة، منها واجبة ومنها مندوب، ومن الأسباب الواجبة كفارة القتل الخطأ [2].

---

(١) بلقاسم الغالي : مرجع سابق ، ص : ١٧٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١٥٨ - ١٥٩

إن الحرية من أهم أصول ومقومات الإصلاح الاجتماعي، فهي وصف فطري نشأ عليه البشر، وبه تصرفوا في أول وجودهم على الأرض حتى حدثت المزاحمة، فحدث التحجير، ولما كانت الحرية خاطر غريزي في النفوس البشرية كان بها نماء القوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق، فلا يحق لها أن تُسام بقيد إلا قيداً يُرفع به عن صاحبها ضرٌ ثابت أو يجلب به نفعٌ [1]، وهذا المعنى هو الذي ردده المحدثون في هذا العصر بقولهم : " حرية المرء ليست مطلقة، ولكنها تقف بل تنتهي عند وجود حق للغير ليس لها أن تتجاوزه " [2].

والحرية تعني، تمكين الشخص من التصرف في نفسه وشئونه كما يشاء دون معارض، ولها مظاهر كثيرة هي من مقاصد الإسلام، وهذه المظاهر تتعلق بأصول الناس في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم [3].

إن ابن عاشور ذكر أنواعا للحريات، منها : حرية الاعتقاد، والتفكير، والقول، والفعل أو العمل [4].

وقد تحدث ابن عاشور عن حرية الاعتقاد، فذكر أنها أوسع الحريات دائرة ؛ لأن صاحب الاعتقاد مطلق التفكير فيما يعتقده، وهذه الحرية ينظر فيها من جانبين، جانب حظ المسلم منها، وجانب حظ غير المسلم منها ممن تُظِلُّهم

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق ، ص: ١٦٢ – ١٦٣

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة : : **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور**، مرجع سابق، ص : ٦٨٦

(٣) ابن عاشور : **مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق ، ص : ٣٩١

(٤) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**،مرجع سابق، ص : ١٧٠

الحكومة الإسلامية، فهي عند الأول محدودة له بما جاء به الـدين ولا يرتـد عنها المسلم ؛ لأنه بردته يكون قد نقض العهد الذي دخل به إلى الإسلام.

أما حرية الاعتقاد عند غير المسلم من أصحاب الملل الخاضعين إلى حكومة الإسلام فقد دلت آيات القـرآن وأقـوال النبـي – ﷺ – عـلى أنهـم يُـدْعَوْن إلى الدخول في الإسلام، فإن لم يقبلوا دعوا إلى الدخول تحت حكم المسلمين، وهـي حالة الذمة وحالة الصلح والعهد، فيبقون على أصل الحرية في البقاء على ما هـم عليه من الملل، لأنهم لم يلتزموا للإسلام بشيء من عقائده (١).

وننظـر في موقـف الإسـلام مـن الأديـان السـماوية قبلـه فنـراه لا يكتفـي بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين، بل يلزم المسلمين كذلك الإقـرار بنبـوة كـل الرسل دينـا وعقيـدة، لا مجـرد التسـامح والمسـالمة، كـما يلـزمهم أن يؤمنوابـأن الإسلام مصدق لما بين يديه مـن رسـالات السـماء (٢)، **قـال تعـالى** : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ...﴾ [سورة آل عمران٣ :٤].

فحرية الاعتقادات أسسها الإسلام بإبطال المعتقدات الضالة التي أكره دعاة الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها بدون فهم ولا هدى ولا كتاب منير، ثم بالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين، وردهم إلى الحق بالحكمة والموعظة وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه

---

(١) المرجع السابق، ص : ١٧١ – ١٧٢

(٢) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان (دراسات قرآنية) ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ص : ٧٨ ، ٨٠

في الدين [1]، قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ...﴾ [سورة النحل:١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ...﴾[سورة البقرة:٢٥٦]،

ويرى ابن عاشور أن تعقيب آية الكرسي بالآية السابقة دليل على أن ما اشتملت عليه آية الكرسي من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم – فمن شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة والمستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه [2].

إن حرية الاعتقاد تجعل للتربية دورا عظيما في بناء مجتمع تسوده الوحدة الوطنية، وهذا يُمَكِّن الجميع من العيش في سلام دائم دون اعتداء أحد على آخر بسبب اختلاف الدين أو المذهب .

أما حرية الفكر مما يشمل التفكير في الآراء العلمية والتفقه في الشريعة والتدبير السياسي وشئون الحياة العادية – فهي صنف من الحرية لا يكاد يستقل بنفسه ؛ لأن ما يجول بالخاطر لا يعرف إلا بالقول أو العمل، وهذه الحرية لا يتطرق إليها تحجيراً أو كبْتا، إذ لا يمكن كَبْت حرية الفكر في المعقولات والتصورات والتصديقات، وأعلى مراتب هذه الحرية حرية العلم، أي فهم قواعد العلم المدونة، وقد نشأ المجتمع الإسلامي في القرون الأولى على إطلاق الرأي والنظر في العلم في دائرة الأصول الإسلامية، فلم يُردَع أحد عن رأي ومذهب، ولكن إن أخطأ أحد يُبَيَّن له خطأه أو تقصيره بالتي هي أحسن، إلا إذا

(١) ابن عاشور : مقاصد الشريعة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص : ٣٩٤

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص : ٢٥

تبين منه قصد التضليل، وما حدث بين أهل النحل فإن ذلك ناشئ عن انحراف الأخلاق والتعصب والإفراط في ذلك (١).

أما حرية القول فهي حق فطري ؛ لأن النطق غريزة في الإنسان، والأصل فيها الصدق في الأخبار، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [سورة التوبة:١١٩] ، فالكذب ممنوع وقبيح، قال ﷺ : " إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون عند الله صديقاً وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (٢) ، وأكبر مظاهر حرية القول في الإسلام هي حرية القول في تغيير المنكرات، قال رسولنا الكريم : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٣)، ومن حرية القول أيضا النصح للمسلمين، فالدين النصيحة، كما يعدُّ حق المراجعة مع الملتبس بفعل أو قول من حرية القول أيضا (٤).

وحرية الأقوال تكون بالتصريح بالرأي والاعتقاد في منطقة الإذن الشرعي، وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[سورة آل عمران:١٠٤](٥)،

---

(١) ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ١٧٣ - ١٧٥

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " وما ينهى عن الكذب ، رقم (٥٧٤٣).

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص ، رقم (٤٩) .

(٤) ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ١٧٥ - ١٧٦

(٥) ابن عاشور : مقاصد الشريعة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص : ٣٩٥

يقول ابن عاشور: إن كان الخطاب بالضمير لجميع المؤمنين كانت (من) للتبعيض، وكان المراد بالأمة الطائفة، إذ لا يكون المؤمنون كلهم مأمورين بالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يكون الواجب على الكفاية .. وعلى هذا فيكون المأمور جماعة غير معينة، وإنما المقصود حصول هذا الفعل الذي فُرض على الأمة وقوعه(1).

إن الرأي منتهى ما يستقر في الذهن بعد البحث والتفكير، ومن حق المجتمع الذي ربى هذا الذهن وأولاه عنايته أن ينتفع بثمرته، وهو لا ينتفع بذلك إذا كان هناك قيد على نشر هذه الأراء ما دامت في محيط النفع العام وما دامت في دائرة العقل وفي إطار من الاحترام، فالأراء السليمة هي التي تُكَوِّن الجو المناسب للتقدم الحضاري المنشود، وإن الجو الإسلامي لهو خير الأجواء التي تنمو فيها الأراء السامية الهادية إلى الخير والمصلحة العامة (2).

ويعتبر التفكير والاجتهاد بالرأي أهم السمات التي يتميز بها الإسلام كشريعة وعقيدة داعيا إليها، وحاثا عليها؛ليسلك الإنسان عن رضا واقتناع أكثر منه تقليدا واتباعا،إلا من اضطر غير باغ ولا عاد..فأين نحن المسلمين من التفكير بكل أبعاده ووظائفه؟وأين مؤسساتنا التربوية الإسلامية منه، غاية ووسيلة ؟ (3).

---

(1) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٤ ، ص : ٣٩

(2) محمد المختار المهدي : حقوق الإنسان في شريعة الإسلام (حرية الرأي والتفكير)، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية ، جمادى الأخرة ١٤٣٣هـ ، مايو ٢٠١٢م، ج٦، السنة ٨٥ ، ص : ١٣٠٧

(3) سعيد إبراهيم طعيمة : الرؤية الكلية في الإسلام وانعكاساتها على التربية الإسلامية في ضوء تحديات العصر ، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة ، بعنوان (الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية) ، من ١٣ -١٤ ، أبريل ٢٠٠٨م ، ص : ٣٣٠

ومن مظاهر حرية القول والفكر معا، حرية العلم والتعليم والتأليف، ولقد ظهرت هذه الحرية في أجمل مظهر في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام، إذ نشر العلماء فتاواهم ومذاهبهم، واحتج كل فريق لرأية، ولم يكن ذلك موجبا لمناوأة ولا لحزازات [1].

لقد كان من أسباب تأخر التعليم في عصر ابن عاشور سلب التعليم والعلوم حرية النقد الصحيح في مرحلة التعليم العالية، وهذا خلل بالمقصد من التعليم وهو إيصال العقول إلى درجة الابتكار [2].

وقد جعل ابن عاشور حرية التعبير تستوعب حرية العلم والتعليم وكسب المعارف، كما جعل حرية الاستنباط في العلم مرتبة أساسية، وهي التي يمارسها الذي بلغ درجة الاجتهاد بجميع مراتبه، والاجتهاد من الحريات الواجبة، ولحرية القول مجال آخر وهو إتاحة الفرصة لأهل العلم والمعارف لنشر آرائهم ومذاهبهم وتعليمها للناس بحرية [3].

إن حرية التعليم وكسب المعارف والاستنباط التي أشار إليها ابن عاشور يمكن أن نطلق عليها " الحرية الأكاديمية " بالمفهوم الحديث، وما هي إلا أثر من آثار الحرية في الإسلام بكل أشكالها .

(١) ابن عاشور : **مقاصد الشريعة الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص : ٣٩٦

(٢) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٠٩

(٣) محمد همام : نقد مقصد الحرية في فكر محمد الطاهر ابن عاشور ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، تحرير : فتحي حسن ملكاوي ، مرجع سابق ، ص : ٣١٠ – ٣١١

أما حرية العمل أو الفعل فإن شواهد الفطرة تدل على أن هذه الحرية أصل أصيل في الإنسان، فالله تعالى لما خلق للإنسان العقل وجعل له مشاعر تأتمر بما يأمرها العقل أن تعمله وميز له بين النافع والضار بأنواع الأدلة – كان قد أمكنه أن يعمل ما يريد مما لا يحجمه عنه توقع ضر يلحقه، إذن فحرية العمل أصل فطري، قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ...﴾ [سورة البقرة:٢٩] ، فلفظ " لكم " يفيد أن حق الجميع في جميع ما في الأرض، وما عدا ما حُدِّدَ منعه في الشريعة من التصرف فالأصل في سعي الإنسان فيه وفي تناوله هو الإباحة الأصلية (١)، إذن فأصل استعمال الأشياء فيما يراد له من أنواع الاستعمال هو الإباحة حتى يدل دليل على عدمها ؛ لأن الله جعل ما في الأرض مخلوقا لأجلنا وامتن بذلك علينا (٢).

وهذه الحريات الأربعة محدودة في نظام الاجتماع الإسلامي بما حددت به الشريعة الإسلامية أعمال الأمة في تصرفاتها الفردية والجماعية داخل البلاد ومع الأمم المجاورة والمتعاملة معها ؛ لجلب مصلحة المسلمين ودرء المفاسد عنهم (٣).

ولكي نغرس قيمة الحرية في نفوس الأبناء وجب على الأسرة أن تعوِّد أبناءها على إبداء رأيهم بحرية، وأن تعطيهم الفرصة للقيام بأعمالهم بأنفسهم بتوجيه وإرشاد دون رقابة لصيقة، وأن تعودهم الاستماع لرأي الآخرين دون التعصب لآرائهم .

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٧٦ – ١٧٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٣٨١

(٣) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ،مرجع سابق، ص : ١٧٠

كما ينبغي على التربية المعاصرة أن تتيح للطلاب حق الاعتراض وإبداء الرأي ؛ لتكوين متعلم اجتماعي قادر على مواجهة مشكلات الحياة فيما بعد، ويكون ذلك من خلال مناهج وأنشطة تعليمية متنوعة .

وأخيرا فهذه أهم مقومات الإصلاح الفردي والمجتمعي التي تعد من أهم الأسس التي بنى عليها ابن عاشور فكره الإصلاحي التربوي، ولكي تتحقق هذه المقومات وتؤتي أكلها لا بد للمنظومة التربوية المعاصرة أن تضع في اعتبارها تحقيق هذه الأسس بكل السبل .

ولما كانت منظومة التربية المعاصرة تعاني من كثير من المشكلات والعقبات كان لزاما على المفكرين والمصلحين التربويين المعاصرين طرح أفكار لإصلاح الخلل الطارئ على هذه المنظومة وتقديم البدائل ؛ حتى يتسنى لها القيام بدورها المنوط بها، ومن هؤلاء الإمام ابن عاشور، وهذا ما يتناوله الباحث في الفصل الرابع من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى .

الفصـــل الثالث
أهم الملامح الإصلاحية في منظومة التربية عند ابن عاشور

لا أحد ينكر أن صلاح الأمة مرهون بصلاح تربيتها، ومدى قدرة تعليمها على الحفاظ على ثوابت الأمة وخصوصيتها الثقافية، وفي نفس الوقت لا نملك إلا التأكيد على التطوير والإصلاح لمنظوماتنا التربوية كضرورة تربوية واجتماعية(١).

ولأجل إصلاح المنظومة التربوية فقد بيَّن ابن عاشور في تفسيره أهم الملامح الإصلاحية التربوية التي تدور حول الأهداف التربوية، ومراحل التعليم، وإصلاح شأن المعلم وآدابه، والمتعلم وآدابه، وأساليب التربية وطرق التعليم والتعلم وغير ذلك، **وهذا ما سيوضحه الباحث فيما يأتي :-**

أولاً : فلسفة التربية وأهدافها:

إن الشريعة – كما يقول ابن القيم – مبناها وأساسها الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، ومصلحة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث ليست من الشريعة(٢).

كما يؤكد ابن عاشور أن المقصد العام من التشريع هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه

---

(١) سعيد إبراهيم طعيمة : الرؤية الكلية في الإسلام وانعكاساتها على التربية الإسلامية في ضوء تحديات العصر ، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة ، بعنوان (الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية) ، مرجع سابق ، ص : ٣٤٠

(٢) ابن القيم الجوزية : إعلام الموقعين ، ج٣ ، تحقيق : طه سعد ، دار الجبل ، بيروت ،١٩٧٣م ، ص : ١٤

صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الـذي يعيش فيه [1].

ويذكر ابن عاشـور أيضـا أن الغـرض الأكـبر للقـرآن هـو إصـلاح الأمـة بأسرها، فإصلاح الغير بدعوتهم إلى الإيـمان، ونبـذ العبـادة الضـالة، وإصـلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم عـلى هـداهم وإرشـادهم إلى طريـق النجـاح وتزكية نفوسهم، ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعوة، فكانت آيات القرآن مستقلا بعضها عن بعض ؛ لأن كل آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاستدلال عليه وتكميله وتخليصـه مـن تســرب الضـلالات إليـه، ولكن حال القرآن كحال الخطيب يتطـرق إلى معالجـة الأحـوال الحـاضرة عـلى اختلافها، وينتقل من حال إلى حال بالمناسبة، فإن كل جملة تشـتمل عـلى حكمـة وإرشاد أو تقويمِ معوجٍ [2].

وفي ظل الإشادة بالعقل ودوره في الإصلاح والتنوير فقد دعا ابـن عاشـور في كل ما كتب إلى ضرورة الاجتهاد والاستباط والنظر والاستدلال، فسـعى إلى تنبيه المسلمين إلى ضرورة استعادة نهضتهم من خلال تحليـل مقاصـد الشــريعة وأهدافها، وكان نزوعه التنويري مقترنا بدعوته إلى إصلاح العقيدة وبناء إنسـان جديد يتخذ التربية والتعليم وسيلة لتحقيق ذلك[3].

(١) ابن عاشور : **مقاصد الشريعة الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص : ٢٧٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٨١

(٣) **عبد الرزاق الحمامي : العلامات التنويرية في تفكير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور** ، نـدوة تنويريـة عـن علماء الزيتونة في النصف الأول من القرن العشرين ، جريدة الشرق الأوسط ، آفاق إسـلامية ، **الثلاثـاء ، ٧ جمادي الأول ١٤٢٩هـ ، ١٣ مايو ٢٠٠٨م ، العدد ١٠٧٥٩**

ويرى الدكتور " أحمد المهدي عبد الحليم " أنه لو صدقت الرغبة وصحت العزيمة وتجسدت الإرادة في أن يتحول التعليم في الوطن العربي إلى التوجه الإسلامي – فإنه من الضروري أن تتحد أهداف التعليم لتغطي مقاصد الشريعة، وقد حرص العلماء المسلمون على استقصاء هذه المقاصد من القرآن الكريم والسنة النبوية، وعلى هذا يمكن القول بأن المقاصد هي المصدر الأول الذي تشتق منه غايات التعليم، وتلك حقيقة غابت تماما عن بال من يتصدون لوضع أهداف التعليم في الوطن العربي، وآن لها أن توظف في سائر المواقف المفصلية في مسيرة التعليم في الأمة العربية الإسلامية (١).

فكل مقصد من المقاصد القرآنية أو مقاصد الشريعة يَتَأَتَّى الوفاء به في مجالات حيوية وفق التصور الإسلامي، وأهمها مجال الفرد والأسرة والأمة والإنسانية (٢).

وقد تناول المفسرون والعلماء مقاصد القرآن الكريم بالتفصيل، وسوف يذكر الباحث هذه المقاصد عند ابن عاشور ؛ لتكون المصدر الأول في صياغة الأهداف التربوبة من المنظور الإسلامي، أو تكون الإطار الفلسفي لبناء الأهداف التربوية، لأن إصلاح التعليم من وجهة نظر ابن عاشور الإصلاحية

---

(١) **أحمد المهدي عبد الحليم : الإصلاح التربوي في ضوء الرؤية الكلية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص : ١٨٨ – ١٩٠**

(٢) جمال الدين عطية : **نحو تفعيل مقاصد الشريعة** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٣م ، ص : ١٤٢ وما بعدها

ليس ترقيعا ولا تلفيقا، بل يتم وفق رؤية ومنهج ينطلق من الإسلام (١)، الذي ظهر دينا وتثقيفا وتمدينا وتنويرا للبصائر (٢).

ولقد قسّم ابن عاشور المقاصد القرآنية إلى نوعين، هما : المقاصد العليا، والمقاصد الأصلية، **وسوف يذكر الباحث هذه المقاصد كما وردت في تفسيره :-**

١ - المقاصد القرآنية العليا :

إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى : ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل:٨٩] ، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية، **ويرى ابن عاشور أن لكل مقصد من المقاصد العليا أسس يقوم عليها :**

- فالصلاح الفردي يعتمد على تهذيب النفوس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد ؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر .
- والصلاح الجماعي يحصل أولا من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويُعَبَّر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية .

---

(١) بدران بن لحسن : ابن عاشور وإعادة الاعتبار للقول الكلي في الفكر الإسلامي ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ، رؤية معرفية ومنهجيه** ، مرجع سابق ، ص : ٦٢٨

(٢) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص: ١٨

- أما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورَعْي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع [1].

٢ - المقاصد القرآنية الأصلية :

يرى الإمام محمد الطاهر ابن عاشور أن المقاصد الأصلية للقرآن الكريم ثمانية أمور، هي [2]:

المقصد الأول : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق ؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿... فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [سورة هود:١٠١] ، فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة .

المقصد الثاني : تهذيب الأخلاق، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم:٤] ، وفي الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [3]، وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب، بل خاصة الصحابة.

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج١ ، ص : ٣٨ - ٣٩

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص : ٤٠ - ٤١

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ، كتاب الشهادات ، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز ، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ، حديث رقم (٢٠١٧٤)

المقصد الثالث : سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ ...﴾ [سورة آل عمران:١٠٣]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ ...﴾ [سورة الأنعام:١٥٩]، وقوله تعالى : ﴿... وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ ...﴾ [سورة الأنفال:٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ [سورة الشورى:٣٨] .

المقصد الرابع : القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف:٣]، وقوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ...﴾ [سورة الأنعام:٩٠]، وللتحذير من مساوئهم، قال تعالى : ﴿... وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [سورة إبراهيم:٤٥] .

المقصد الخامس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب، وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوّه بشأن الحكمة، فقال الله تعالى:﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٩] ، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم

وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، وإنما كان قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تُضَمُّ إليه تجربة وهم العرفاء، فجاء القرآن بقوله : ﴿... وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]، وقوله : ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم:١]، فَنَبَّه إلى مزية الكتابة .

المقصد السادس : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب .

وقد ذكر ابن عاشور مقصدين أصليين آخرين، هما مقصد التشريع، ومقصد الإعجاز بالقرآن الكريم .

هذه المقاصد سماها البعض بالمحاور الثمانية لعلوم صلاح الإنسان، فهي تجعل من القرآن مركزا لهداية الإنسان في المعرفة وفي العمل وفي التأسيس للمفاهيم والقيم والعبادات والشعائر والاجتماع والعمران وفي التبيان والتهذيب، أي أنه شامل لكل أوجه الحياة والمعرفة، بل إن المقاصد الأصلية الثمانية التي تتمحور حول المقصد الأعلى تنشئ علوما مختلفة تتعلق بالاعتقاد، والتشريع، والأخلاق، والقيم، والمواعظ، والتاريخ، والسياسة العامة، والعلوم العقلية المختلفة .

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية للعلوم الدينية وغير الدينية، فالقرآن يقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، مما يجعلها ذات أصول مشتركة وتتجه إلى تحقيق أهداف متضافرة، ذلك أن التشظِّي المشهود في المعرفة في العالم الإسلامي والإشكالات المتعددة ناتجة عن استبعاد القرآن الكريم عن

مسار الإنتاج المعرفي وعن هيمنته على إنتاج المعرفة .

لذلك ينبغي أن يكون القرآن هو المصدر الأعلى ويكون معيار صواب الآراء والأفكار ويكون المصدر الرئيس للقواعد الثابتة لجميع المعارف – خاصة في مجال العلوم المرتبطة بالدين – وجميع مناشط الإنسان لتحقيق الهداية والاستخلاف والناظم لمختلف أفرع المعرفة(1).

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن أهداف التربية وأساليبها في تفسير ابن عاشور متنوعة وفق المقاصد القرآنية السابقة ووفق الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، فالفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسدا وعقلا (2).

إذن فالفلسفة التي تقوم عليها أهداف التربية وتشتق منها عند ابن عاشور هي المقاصد القرآنية الموافقة للفطرة الإنسانية، **وسوف يعرض الباحث هذه الأهداف فيما يأتي :-**

أ – أهم أهداف تربية الفرد :

تتعدد أهداف تربية الفرد في تفسير ابن عاشور عقديا وبدنيا واجتماعيا وعقليا، وأهمها:

١ – تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى بإصلاح الاعتقاد :

يكون تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى بإسلام النفس له سبحانه، والإيمان التام بالرسل والملائكة والكتب السماوية واليوم الآخر والقضاء والقدر .

---

(1) **بدران بن لحسن : ابن عاشور وإعادة الاعتبار للقول الكلي في الفكر الإسلامي**، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، **مرجع سابق ، ص: ٦١٥ – ٦١٦**

(2) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص : ٩٠.

ويرى ابن عاشور إن من مظاهر أصل الفطرة إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم بكون عقيدته مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختيارا، ثم تصير تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقِد في التخلق بها، ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم [1]، قال الله تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [سورة آل عمران:٦٤] .

إن إسلام النفس لله تعالى معناه إسلامها لأجله وصيرورتها ملكا له، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة الله، وتحت هذا معانٍ جمّة، منها[2]:

المعنى الأول : تمام العبودية لله تعالى، وذلك بألا يعبد غير الله، وهذا إبطال للشرك ؛ لأن المشرك بالله لم يسلم نفسه، بل أسلم بعضها .

المعنى الثاني : إخلاص العمل لله تعالى، فلا يلحظ في عمله غير الله تعالى، ولا يرائي ولا يصانع فيما لا يرضي الله ولا يقدم مرضاة غير الله تعالى على مرضاة الله .

المعنى الثالث: إخلاص القول لله تعالى، فلا يقول ما لا يرضى به الله، ولا يصدر عنه قول إلا فيما أذن الله فيه أن يقال، وفي هذا المعنى تجيء الصراحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك على حسب المقدرة والعلم والتصدي

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص : ١٩٤ – ١٩٥ .

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ٢٠٣ - ٢٠٤

للحجة لتأييد مراد الله تعالى، وهي صفة امتاز بها الإسلام، ويندفع بهذا المعنى النفاق والملق .

المعنى الرابع : أن يكون ساعيا لتعرف مراد الله تعالى من الناس ليجري أعماله على وفقه، وذلك بالإصغاء إلى دعوة الرسل المخبرين بأنهم مرسلون من الله، وتلقيها بالتأمل في وجود صدقها، والتمييز بينها وبين الدعاوى الباطلة بدون تحفز للتكذيب ولا مكابرة في تلقي الدعوة، ولا إعراض عنها بداعي الهوى وهو الإفحام،بحيث يكون علمه بمراد الله من الخلق هو ضالته المنشودة .

المعنى الخامس : امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه على لسان الرسل الصادقين، والمحافظة على اتباع ذلك بدون تغيير ولا تحريف، وأن يذود عنه من يريد تغييره .

المعنى السادس : ألا يجعل لنفسه حكما مع الله فيما حكم به، فلا يتصدى للتحكم في قبول بعض ما أمر الله به ونبذ البعض، وقد وصف الله المسلمين بقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ...﴾ [سورة الأحزاب:٣٦] ، فقد أعرض الكفار عن الإيمان بالبعث ؛ لأنهم لم يشاهدوا ميتا بُعث.

المعنى السابع : التفقه والاجتهاد في الدين جريا على مراد الله تعالى ؛ ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقه في الدين والاجتهاد تحت التقوى المأمور بها في قوله تعالى : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ...﴾ [سورة التغابن:١٦] .

المعنى الثامن : الإعراض عن الهوى المذموم في الدين وعن القول فيه بغير سلطان، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ .

المعنى التاسع : أن تكون معاملة أفراد الأمة بعضها بعضا، وجماعاتها، ومعاملتها الأمم الأخرى جارية على مراد الله تعالى من تلك المعاملات .

المعنى العاشر : التصديق بما غيب عنا مما أنبأنا الله به من صفاته ومن القضاء والقدر وأن الله هو المتصرف المطلق .

٢- تهذيب الأخلاق والنفوس بالتدين والمعرفة :

إن الأخلاق من المقومات الأساسية للإصلاح الفردي والاجتماعي، وخاصة ضبط علاقات الناس بعضهم ببعض، فهي من مقاصد الإسلام، حيث عمل على توطيدها بكل السبل، وما بعث رسول الله- ﷺ - إلا ليتمم مكارم الأخلاق، فقال:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1]، وبما أنه القدوة الحسنة والمعلم والمرشد فقد وصفه ربه تعالى بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم:٤] ؛ لأن ربه تعالى هو الذي أدبه فأحسن تأديبه كما أخبرنا المعصوم ﷺ .

إن أهم دور للتربية الأخلاقية في نظر الإسلام يمكن تحديده بصورة إجمالية في كونها الوسيلة الوحيدة لبناء خير فرد وخير مجتمع وخير حضارة، والعلاقة بين هذه الجوانب وثيقة الصلة [2] ؛ لذا يقول ابن خلدون : " إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة " [3]،

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ، كتاب الشهادات ، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز ، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ، حديث رقم (٢٠١٧٤)

(٢) مقداد يالجن : دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، ط١، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص : ٣٧

(٣) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش ، ج٢ ، ط١ ، دار يعرب للنشر والتوزيع ، دمشق ، ٢٠٠٤م ، ص : ٥٠

ولقد رأى ابن عاشور أن من أهم أغراض التربية والتعليم الصحيحين ترقية الفضيلة، فهي أول الأشياء وأجملها [1].

وإنه لا يكاد ينتظم أمر الاجتماع كمال انتظامه ولا نرى الأمة عقدها مأمون من انفصامه ما لم تكن مكارم الأخلاق غالبة على جمهورها ؛ لأن ملاك مكارم الأخلاق هو تزكية النفس الإنسانية، بمعنى ارتياض العقل على إدراك الفضائل وإرادة التحلي بها والعزم على تسيير آلات العمل 'الجوارح' الإنسانية على مقتضيات ذلك الإدراك وتلك الإرادة، فبالإدراك والإرادة والعزم يحصل بذلك إصلاح العمل [2].

وهذه الفضائل غايتها إبلاغ النفس الإنسانية إلى أرقى ما خلقت له، فأودع الله فيها العقل لأجل بلوغ ذلك الارتقاء، وهذه الغاية هي إبعاد تصرف الإنسان عن همج الحيوان، وبالتالي يسود الأمن وتنصرف عقول الأمة إلى الأعمال النافعة؛ لذلك ذم الله تعالى الذين لم يتخلقوا بخلق الإنسان [3]، فقد قال الله – سبحانه وتعالى – : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٩].

ويرى ابن عاشور أن أصل الأخلاق حسنها وقبيحها هو الخواطر الخيِّرة والشريرة، ثم ينقلب الخاطر إذا ترتب عليه فعل فيصير خلقا، وإذا قاومه صاحبه ولم يفعل صارت تلك المقاومة سببا في اضمحلال ذلك الخاطر، ولذلك حذرت

---

(١) ابن عاشور : <u>أليس الصبح بقريب</u> ، مرجع سابق ، ص : ١٠

(٢) ابن عاشور : <u>أصول النظام الاجتماعي في الإسلام</u> ، مرجع سابق ، ص : ١٢٣ ، ١٢٥

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٢٤– ١٢٥

الشريعة من الهم بالمعاصي وكان جزاء ترك فعل ما يهم به منها حسنة، وأمرت بخواطر الخير فكان جزاء مجرد الهم بالحسنة حسنة ولو لم يعملها، وكان العمل بذلك الهم عشر حسنات (١).

وقد ذكر ابن عاشور حدود الأخلاق، وهي كون الصفات الأخلاقية وسطا بين خلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط كالشجاعة بين الجبن والتهور، والكرم بين الشح والسرف، والعدالة بين الرحمة والقساوة (٢).

إن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة، وهذه الأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه وطلاقة وجهه وثباته وحكمه وحركته وسكونه وطعامه وشرابه وتأديب أهله (٣).

ومن صور الأخلاق المنهي عنها والتي لها صلة وثيقة بفساد الاعتقاد وفساد المجتمع : النفاق، إذ النفاق يجمع الكذب، والجبن، والمكيدة، وأفن الرأي، والبله، وسوء السلوك، والطمع، وإضاعة العمر، وزوال الثقة، وعداوة الأصحاب، واضمحلال الفضيلة (٤)، قال الله تعالى : ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة البقرة:٨].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٤٣٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، بتصرف ، ج٢ ، ص : ١٨

(٣) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ٢٩ ، ص : ٦٤ – ٦٥**

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٢٦٠ – ٢٦١

كما أن من مظاهر الدين الإسلامي ' أصل الفطرة ' جمْعه بين إصلاح النفوس بالتزكية وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا يتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفا إلى المواعظ والعبادات، وقد قرن القرآن المصلحتين[1]، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل:٩٧].

إن التربية الصحيحة في أصول الأخلاق هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور ؛ لأن الشرور إذا تسربت إلى النفوس تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين : طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل(٢).

٣- إصلاح السريرة الظاهرة بالعبادات لتحقيق تقوى الله تعالى والكمال الذاتي للفرد :

يُعَرِّف ابن عاشور العبادة بأنها فعل ما يرضي الرب سبحانه من خضوع وامتثال واجتناب، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه (٣).

---

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ٣ ، ص : ١٩٤ – ١٩٥**

(٢) **المصدر السابق ، ج ٣ ، ص : ١٩٥ – ١٩٦**

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ١٨٠

إن العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدأ ونهاية، وهي لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من الخَلْق، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات:٥٦] ، ولما كان سر الخلق والغاية منه خفية الإدراك عَرَّفَنا الله تعالى إياها بمظهرها وما يحققها في جملة واحدة، وهي جملة "إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " [(١)].

ولا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال، وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد وأهَمُّه ما كان عن محبة لأنه يرضي نفس فاعله، وهي تستلزم الخوف من غضب المحبوب، وإلى هذا النوع ترجع عبادة أكثر الأمم، ومنها العبادة المشروعة في جميع الشرائع ؛ لأنها مبنية على حب الله تعالى، وكذلك عبادة المشركين أصنامهم[(٢)]، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ... ﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

إن المقصد الأعظم للعبادات في الإسلام هو التقوى، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:٢١] ، **قال ابن عاشور** : لما كانت التقوى نتيجة العبادة جعل رجاؤها أثرا للأمر بالعبادة، **فالمعنى** : اعبدوا ربكم رجاء أن تتقوا فتصبحوا كاملين متقين، فإن التقوى هي الغاية من العبادة فرجاء حصولها عند الأمر بالعبادة وعند عبادة العابد أو عند إرادة الخلق والتكوين واضح الفائدة [(٣)].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ١٨٢

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص : ١٨٣

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص : ٣٣٠

٤- إصلاح التفكير بإعمال العقل والحواس :

إن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة من الأديان الباطلة والعادات الذميمة، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جراء التلقي والتعود [١].

وقد أكد ابن عاشور على ذلك من خلال تفسير قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين:٤] ، حيث رأى أن الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع ليتصف بآثارها، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكا مستقيما مما يتأدى من المحسوسات الصادقة، أي الموافِقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر بسبب سلامة ما تؤديه الحواس السليمة وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين، بحيث لو جانبته التلقينات الضالة والعوائد الذميمة والطبائع المنحرفة والتفكير الضار أو لو تسلطت عليه تسلطا ما فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب - لجرى في جميع شئونه على الاستقامة، ولما صدرت منه إلا الأفعال الصالحة، ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره ويرخي العنان لهواه وشهوته، فترمي به في الضلالات أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع فيتابعهم طوعا أو كرها، ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلده فيعتاده وينسى الصواب والرشد [٢].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص : ٩٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠، ص : ٤٢٥

إن القوة لا تكون في البدن فقط، بل تكون في الأعضاء الباطنة أيضا، مثل قوة الدماغ على التفكير الذي لا يستطيعه غالب الناس وعلى حفظ ما يعجز عن حفظه غالب الناس، ومنه قولهم " قوة العقل " وقد سمى الحكماء الحواس الخمس العقلية بالقوى الباطنية، وهي الحافظة والواهمة والمفكرة والمخيلة والحس المشترك [1].

وقد ذم القرآن الكريم من لم يستخدم أدوات العلم والمعرفة (العقل والحواس)، قال تعالى: ﴿... لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ...﴾ [سورة الأعراف:١٧٩]، ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي ويدفع به الضر الأبدي ؛ لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة، وتشبيههم بالأنعام في عدم الانتفاع بما ينتفع به العقلاء فكأن قلوبهم وأعينهم وآذانهم قلوب الأنعام وأعينها وآذانها في أنها لا تقيس الأشياء على أمثالها ولا تنتفع ببعض الدلائل العقلية فلا تعرف كثيرا مما يفضي بها إلى سوء العاقبة [2].

وقد أمر الله تعالى نبيه – ﷺ – أن يدعو إلى النظر في دلائل الوحدانية والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٠ ، ص : ٩٩– ١٠٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص : ١٨٣ – ١٨٤

النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية، مثل أجرام الكواكب وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال [1]، **قال الله تعالى** : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ...﴾ [سورة يونس:١٠١].

وهكذا لم يزل القرآن يربي هذه الأمة على إعمال الفكر والاستدلال وتعرف المسببات من أسبابها في سائر أحوالها في التشريع والمعاملة؛ لينشئها أمة علم وفطنة [2].

٥- تكوين الشخصية العلمية النافعة لنفسها ومجتمعها :

إن التعليم الصحيح يرمي إلى إنشاء أرقى أصناف البشر من كل من تمرس بالأشغال والأعمال، أو رزق المواهب الحسنة ورغب في سلوك خير السبل وشغف بالمعرفة وامتاز بحب الواجب والتعقل [3].

إن الذين لهم علم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه وتجري أعمالهم على حسب علمهم، ولا يستوون مع الذين لا يعلمون أو الذين لا يدركون الأشياء على ما هي عليه، بل تختلط عليهم الحقائق وتجري أعمالهم على غير انتظام، قال الله ﷻ : ﴿... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة الزُّمَر:٩] ، وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم ؛ لأن كليهما نور ومعرفة حقٍ، وأن الكفر أخو الضلال ؛ لأنه والضلال ظلمة وأوهام باطلة [4].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١، ص : ٢٩٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص : ٦٥

(٣) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ٩ – ١١

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص : ٣٤٨ – ٣٤٩

ويرى ابن عاشور أننا ما تأملنا مقاما اقتحم فيه عالم وجاهل إلا وجدنا للعالم فيه من السعادة ما لا نجده للجاهل، **وضرب لذلك مثلا بمقامات ستة هي جُل وظائف الحياة الاجتماعية، وهي** (1):

المقام الأول : الاهتداء إلى الشيء المقصود نواله بالعمل به وهو مقام العمل، فالعالم بالشيء يهتدي إلى طرقه فيبلغ المقصود بيسر وفي قرب ويعلم ما هو من العمل أولى بالإقبال عليه، وغير العالم به يضل مسالكه ويضيع زمانه في طلبه، فإما أن يخيب في سعيه وإما أن يناله بعد أن تتقاذفه الأرزاء وتنتابه النوائب وتختلط عليه الحقائق، فربما يتوهم أنه بلغ المقصود حتى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ ... ﴾ [سورة النور:٣٩] ، ومن أجل هذا شاع تشبيه العلم بالنور والجهل بالظلمة .

المقام الثاني : ناشئ عن الأول وهو مقام السلامة من نوائب الخطأ، فالعالم يعصمه علمه من ذلك، والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلكة، فإن الخطأ قد يوقع في الهلاك من حيث طلب الفوز، ومثله قوله تعالى: ﴿ ...فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ... ﴾ [سورة البقرة:١٦] ، إذ مَثَّلهم بتاجر خرج يطلب فوائد الربح من تجارته فآب بالخسران، ولذلك يشبه سعي الجاهل بخبط العشواء، ولذلك لم يزل أهل النصح يسهلون لطلبة العلم الوسائل التي تقيهم الوقوع فيما لا طائل تحته من أعمالهم.

المقام الثالث : مقام أنس الانكشاف، فالعالم تتميز عنده المنافع والمضار وتنكشف له الحقائق فيكون مأنوسا بها واثقا بصحة إدراكه، وكلما انكشفت له

---

(١) ابن عاشور : <u>**التحرير والتنوير**</u> ، ج٢٣ ، ص : ٣٤٩ - ٣٥١

حقيقة كان كمن لقي أنيسا بخلاف غير العالم بالأشياء فإنه في حيرة من أمره حين تختلط عليه المتشابهات فلا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع، فإن اجتهد لنفسه خشي الزلل وإن قلد خشي زلل مقلده، وهذا المعنى يدخل تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿... كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ ...﴾ [سورة البقرة:٢٠]

المقام الرابع : مقام الغنى عن الناس بمقدار العلم والمعلومات، فكلما ازداد علم العالم قوي غناه عن الناس في دينه ودنياه .

المقام الخامس : الالتذاذ بالمعرفة، وهي لذة لا تقطعها الكثرة، وقد ضرب الله مثلا بالظل، إذ قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ [سورة فاطر١٩ :٢١] ، فإن الجلوس في الظل يلتذ به أهل البلاد الحارة .

المقام السادس : صدور الآثار النافعة في مدى العمر مما يكسب ثناء الناس في العاجل وثواب الله في الآجل، فإن العالم مصدر الإرشاد والعلم ودليل على الخير وقائد إليه ؛ قال الله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ ...﴾ [سورة فاطر:٢٨] ، والعلم على مزاولته ثواب جزيل، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له "[1].

٦- تقوية الجانب البدني في الإنسان للقيام بمهامه وفق التوجه الإسلامي:

إن النظرة الكلية الإسلامية للإنسان تتطلب إعداده بدنيا بجانب الإعداد الروحي والعقلي، فحفظ الصحة من وسائل إصلاح النفس والعمل، قال الله تعالى : ﴿...وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف:٣١]، والمعنى كما يقول ابن عاشور : ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم؛

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، رقم: (١٦٣١) .

لأن ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة، وقد قيل إن هذه الآية جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء، فالنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ...﴾ [سورة الأعراف:٣٢]، ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلق به التكليف، ولكن يُوكل إلى تدبير الناس لمصالحهم، وهذا راجع إلى معنى العدل ؛ لأن ترك السرف من معنى العدل[1].

كما يتطلب ذلك عدم الوهن والضعف والاستكانة، فالوهن قلة القدرة على العمل وعلى النهوض به، والضعف ضد القوة في البدن، فالأول أقرب إلى خور العزيمة ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة، أما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو[2].

فقوة البدن يستطيع بها الإنسان أن يؤدي واجباته والتكاليف الشرعية المنوطة به، فالقوة حقيقتها حالة في الجسم يَتَأَتَّى له بها أن يعمل ما يشق عمله في المعتاد، فتكون في الأعضاء الظاهرة، مثل قوة اليدين على الصنع الشديد، والرجلين على المشي الطويل، والعينين على النظر للمرئيات الدقيقة[3].

٧- تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح :

إن الله تعالى قوّم الإنسان تقويما خاصا، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين:٤]، **يقول ابن عاشور:**" إنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات، ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ٨، ص: ٩٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ٤، ص: ١١٨ - ١١٩

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج١٠، ص: ٩٩- ١٠٠

والباطنة بحيث لا تكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده، ولا يعوق بعض قواه البعض الآخر عن أداء وظيفته، فإن غيره من جنسه كان دونه في التقـويم " [1].

وقد أفادت الآية السابقة – كما يـرى ابـن عاشـور – أن الله كـوّن الإنسـان تكوينا ذاتيا متناسبا مع ما خلق له نوعه من الإعداد لنظامـه وحضـارته، ولـيس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عنـد الله تعـالى ولا جـديرا بـأن يقسـم عليه، إذ لا أثر له في إصلاح النفس وإصلاح الغير والإصلاح في الأرض، وإنـما هو متمم لتقويم النفس .. فإن العقل أشرف ما خص به نـوع الإنسـان مـن بـين الأنواع، فالمرضي عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظره العقلي الصحيح ؛ لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد، إذ الجسم آلة خادمة للعقل (٢).

٨- قيام الفرد بمسئولياته الاجتماعية:

يقع على عاتق الإنسان المسلم مهام اجتماعية كثيرة – بصفته كائن اجتماعي – كالقيام على شئون أسرته والمساهمة المادية أو المعنوية في بناء مجتمعه، ويندرج في مهامه أيضا النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ الأموال وغير ذلك .

ويرى ابن عاشور أن قول الله تعـالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [سـورة التين:٤] يفيد أن الإنسان مفطور على الخير، وأن في جِبِلَّته جلب النفع والصـلاح لنفسه وكراهة ما يظنه باطلا أو هلاكا، كما أن في جبلته أيضا محبة الخـير والحسـن من الأفعال ؛

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠، ص : ٤٢٤

(٢) المصدر السابق ، ج ٣٠، ص : ٤٢٤

لذلك تراه يُسَرُّ بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره، ويغيث الملهوف ويعامِل غيره بالحسنى، ويغار على المستضعفين، ويشمئز من الظلم، كل ذلك ما دام مجردا عن إرادة نفع يجلبه لنفسه، أو إرضاء شهوة يريد قضاءها أو إشفاء غضب يجيش بصدره [1].

ولقد حثنا القرآن الكريم على موعظة النفس والأهل من منطلق المسئولية الفردية والاجتماعية، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ...﴾ [سورة التحريم:٦] ، يقول ابن عاشور : " هذا لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم، وأن لا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم وإن كان في ذلك بعض الأذى " [2].

أما قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ...﴾ [سورة المائدة:١٠٥] ، فلا يتوهم من هذه الآية أنها رخصة للمسلمين في ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن جميع ذلك واجب بأدلة طفحت بها الشريعة، فكان ذلك داخلا في شرط إذا اهتديتم، وقد قال النبي – ﷺ – في تغيير المنكر : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "[3]، ومعنى الاستطاعة التمكن من التغيير دون ضر يلحقه أو يلحق عموم الناس كالفتنة، فالآية تفيد الإعراض عن ذلك إذا تحقق عدم الجدوى بعد الشروع في ذلك، ويلحق بذلك إذا ظهرت المكابرة وعدم الانتصاح، وكذلك إذا خيف

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣٠، ص : ٤٢٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٨ ، ص : ٣٦٥

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص ، رقم (٤٩)

حصول الضر للداعي بدون جدوى [1].

ويدخل ضمن المسئوليات الاجتماعية للفرد الحفاظ على أموال اليتامى والضعاف من النساء والصبيان، قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة النساء:٩] ، يقول ابن عاشور : إنها موعظة لكل من أمر أو نهي أو حذر أو رغب في شأن أموال اليتامى وأموال الضعاف من النساء والصبيان، فابتدأت الموعظة بالأمر بخشية الله تعالى، ثم أعقب بإثارة شفقة الآباء على ذريتهم بأن ينزلوا أنفسهم منزلة الموروثين الذين اعتدوا هم على أموالهم، وينزلوا ذرياتهم منزلة الذرية الذين أكلوا هم حقوقهم، وزاد إثارة الشفقة التنبيه على أن المعتدى عليهم خَلْق ضِعَاف (٢).

٩- بناء الفرد المتزن انفعاليا والمستقر نفسيا :

إن من أهداف التربية عند ابن عاشور الاهتمام بالصحة النفسية للفرد من خلال نهيه عن العادات والاتجاهات والأمراض النفسية، وخاصة المرتبطة بالأخلاق السئية كالغضب والرغبة في الانتقام والكراهية والنفاق واليأس

فمن صور أخلاق المسلم - والتي يكون بها مستقرا نفسيا – عدم الغضب، فالغضب المنهي عنه – كما يرى ابن عاشور - هو الغضب للنفس؛ لأنه يصدر عنه الظلم والعدوان، ومن الغضب ما هو محمود وهو الغضب لحماية المصالح

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٧ ، ص : ٧٨ - ٧٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤ ، ص : ٢٥٢

العامة وخصوصا الدينية [1]، وفي الحديث " وما انتقم رسول الله - ﷺ - لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله "[2].

وقد رأى ابن عاشور أن من آثار الغضب السلبية على الإنسان إرادة الانتقام؛ لأن الغضب هو كيفية للنفس تعرض من حصول ما لا يلائمها فتترتب عليه كراهية الفعل المغضوب منه وكراهية فاعله، ويلازمه الإعراض عن المغضوب عليه ومعاملته بالعنف وبقطع الإحسان وبالأذى، وقد يفضي ذلك إلى الانتقام منه، ورأى أيضا أن الحد الذي يجعل الإنسان يثور عند الغضب في النفس يختلف باختلاف مراتب احتمال النفوس للمنافرات واختلاف العادات، ولذلك كان من جوامع كلم النبي - ﷺ - أن رجلا قال له أوصني قال : " لا تغضب "، فكرر مرارا، فقال : " لا تغضب " [3]، وسئل بعض ملوك الفرس : بم دام ملككم ؟ فقال : لأنا نعاقب على قدر الذنب لا على قدر الغضب [4].

وقد نهى القرآن الكريم عن اليأس، يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿... إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة يوسف:٨٧]: هذا تعليل للنهي عن اليأس .. فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا ييأس، فحقه أن يأخذ بالأسباب ويعتمد على الله في تيسيرها، أما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها [5].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ١٩٨

(٢) هو جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف واليسر على الناس ، رقم (٥٧٧٥) .

(٣) **رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب ، رقم (٥٧٦٥).**

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ١٩٧ - ١٩٨

(٥) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، بتصرف ، ج١٣ ، ص : ٤٦

كما تتكون الصحة النفسية السليمة لدى الإنسان بتوجيهه إلى ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن الكريم، والعمل بالأوامر الإسلامية، وتحقيق السمات الإيجابية، كالتفاؤل والطموح والصبر ..قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد:٢٨]، والاطمئنان هو السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك ؛ لأن الشك يستعار له الاضطراب، ويراد "بِذِكْرِ ٱللَّهِ" خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه، ويجوز أن يراد به القرآن، فالذكر من أسماء القرآن، ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته، وهذا وصف لحسن حال المؤمنين ومقايسته بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم (١).

كما أن للصبر أثاره الأخلاقية والنفسية الإيجابية بيّنها ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿... وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر:٣]، فذكر أن حقيقة الصبر منع المرء نفسه من تحصيل ما يشتهيه أو من محاولة تحصيله إن كان صعب الحصول، فيترك محاولة تحصيله لخوف ضر ينشأ عن تناوله كخوف غضب الله أو عقاب ولاة الأمور أو لرغبة في حصول نفع منه كالصبر على مشقة الجهاد والحج رغبة في الثواب والصبر على الأعمال الشاقة رغبة في تحصيل مال أو سمعة أو نحو ذلك .

وقد رأى ابن عاشور أن الآية السابقة اشتملت على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٣، ص : ١٣٧ – ١٣٨

كما أن التخلق بالصبر هو ملاك فضائل الأخلاق كلها، والارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، وكذلك الأعمال الصالحة كلها لا تخلو من إكراه النفس على ترك ما تميل إليه (١).

١٠- غرس قيمة الجمال والمحبة في النفس البشرية :

يقوم المجتمع المسلم على المحبة بين أفراده، وهي انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية، أو إحسان، أو اعتقاد أنه يحب المستحسن ويجر إليه الخير، فإذا حصل ذلك الانفعال عَقَبَهُ ميل وانجذاب إلى الشـيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعل محبا، ويكون المشعور بمحاسنه محبوبا، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالا عند المحب، فإذا قوي هذا الانفعال صار تهيجا نفسانيا، وسُمِّي عشقا للذوات وافتنانا بغيرها (٢).

والشعور بالحسن الموجب للمحبة يستمد من الحواس في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال، ويستمد أيضا من التفكر في الكمالات المستدل عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة، ولذلك يحب المؤمنون الله تعالى ويحبون النبي - ﷺ - تعظيما للكمالات واعتقادا بأنهما يدعوَانِهم إلى الخير، ويحب الناس أهل الفضل

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص : ٥٣٣- ٥٣٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ٢٢٥

الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين، ويحبون سعاة الخير من الحاضرين وهم لم يلقوهم ولا رأوهم (١).

إن هناك ما يسمى بالمحبة الرمزية، وهي المتعلقة بالأكوان غير المحسوسة كمحبة العبد لله تعالى، وهذا هو الحق .. وإننا نسمع بصفات مشاهير الرجال مثل الرسل وأهل الخير والذين نفعوا الناس والذين اتصفوا بمحامد الصفات كالعلم والكرم والعدل - فنجد من أنفسنا ميلا إلى ذكرهم، ثم يقوى ذلك الميل حتى يصير محبة منا إياهم مع أننا ما عرفناهم، ألا ترى أن مزاولة كتب الحديث والسيرة مما يقوي محبة المُزاوِل في الرسول ﷺ، وكذلك صفات الخالق تعالى لما كانت كلها كمالات وإحسانا إلينا وإصلاحا لفاسدنا أكسبنا اعتقادها إجلالا لموصوفها، ثم يقوى هذا الإجلال إلى أن يصير محبة، وفي الحديث " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[٢]، فكانت هذه الثلاثة من قبيل المحبة ؛ ولذلك جعل عندها وجدان حلاوة الإيمان، أي وجدانه جميلا عند معتقده[٣].

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص : ٢٢٥

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، رقم (١٦) .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص : ٢٢٧

١١- تحقيق التوازن بين الكمالات النفسية والكمالات المادية:

إن من أهم سبل إصلاح الفرد تحقيق التوازن بين الكمالات النفسية والكمالات المادية أو الجسدية لديه، فالاعتماد على الكمالات المادية أو الجسدية فقط هو شأن أهل الضلال، إذ لا عناية لهم بالجانب النفسي من الهيكل الإنساني، فالكمالات المادية ليست هي الأساس وحدها الذي يقوم عليه عمل الإنسان، بل هي مكملات للكمال الإنساني ؛ لأنها آلات لإنفاذ المقاصد السامية عند أهل الحق والإيمان والعقول الراجحة والحكمة الإلهية، فالكمال الحق هو زكاء النفس واستقامة العقل، فهما السبب المطرد لإيصال المنافع العامة للعالم، ولهما تكون القوة المنفذة الجسدية والمادية خادمة كالشجاعة للمدافعين عن الحق (١) .

وبجانب ذلك لا يمكن إغفال البعد الروحي في تربية الفرد، وهو يقوم على تحديد علاقة الإنسان بخالقه ﷻ والإيمان به وما يرتبط بهذا الإيمان من معاني الخير والبر والرحمة والتعاون والمودة والحب والصدق والعدل، والسلوك بمقتضاها في الحياة العملية مع الآخرين (٢).

إذن فأبعاد طبيعة الإنسان الأساسية هي الجسم والروح والعقل، وبقدر ما بين هذه الأبعاد من توافق وانسجام يكون تكامل شخصية الإنسان، ويكون تقدمه وسعادته، وأي انحراف عن ذلك ينشأ عنه الضرر للفرد والمجتمع (٣).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، بتصرف ، ج ١٢ ، ص : ٤٦ – ٤٧

(٢) سعيد إبراهيم طعيمة : **الرؤية الكلية في الإسلام وانعكاساتها على التربية الإسلامية في ضوء تحديات العصر** ، مرجع سابق ، ص : ٣٤٧

(٣) **عمر محمد التومي الشيباني** : من أسس التربية الإسلامية ، **ط٢، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٢م ، ص : ٤٣**

ب – أهم الأهداف الاجتماعية :-

إن ابن عاشور في نظرته للإصلاح التربوي لم يهمل الجانب الاجتماعي الذي به صلاح الأمة، فصاغ أهدافا اجتماعية متعددة، أهمها :-

١ – بناء الأسرة المسلمة وصولا للجامعة الإسلامية :

يتطلب بناء الأسرة المسلمة تكوينها بالطريق الشرعي وهو الزواج القائم على المودة والرحمة، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم:٢١] ، وهذه الآية الكريمة – كما يرى ابن عاشور – فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام، وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزا في الجبلة لا يشذ عنه إلا الشُّذَّاذ، وهي آية تنطوي على عدة آيات، منها : أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر ؛ لأن التآنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسا بين الزوجين ولم يجعله تزاوجا عنيفاأو مهلكا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزواج متجاهلين فيصبحان بعد التزواج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة [(١)].

كما يتطلب بناء الأسرة رعايتها، وخاصة الأبناء وذلك بالرعاية والنفقة والتعليم فقد جعل الله الرضاع حولين مراعاة لكونهما أقصى مدة يحتاج فيها

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص : ٧١

الطفل للرضاع إذا عرض له ما اقتضى زيادة إرضاعه، فأما بعد الحولين فليس في نمائه ما يصلح له الرضاع بعد، ولما كان خلاف الأبوين في مدة الرضاع لا ينشأ إلا عن اختلاف النظر في حاجة مزاج الطفل إلى زيادة الرضاع جعل الله القول لمن دعا إلى الزيادة احتياطا لحفظ الطفل وفي عصرنا أصبح الأطباء يعتاضون لبعض الصبيان بالإرضاع الصناعي، وهم مع ذلك مجمعون على أنه لا أصلح للصبي من لبن أمه، ما لم تكن بها عاهة أو كان اللبن غير مستوف الأجزاء التي بها تغذية أجزاء بدن الطفل [1].

ويدخل في ذلك أيضا رعاية الآباء والأمهات في الكبر، فقال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة الإسراء:٢٣]، ويرى ابن عاشور أن مقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم يرجع إلى مقصدين، أحدهما نفساني وهو تربية نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصانعه، وهو الشكر تَخَلُّقًا بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري ونعمة التربية والرحمة، وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها وتنبيه على المنافسة في إسدائها .

والمقصد الثاني عمراني، وهو أن تكون أواصر العائلة قوية العرى مشدودة الوثوق، فأمر بما يحقق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة وهو حسن المعاشرة ؛ ليربي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم، ثم عاطفة الأبوة المنبعثة عن إحساس بعضه غريزي ضعيف وبعضه عقلي قوي،

---

(١) ابن عاشور : <u>التحرير والتنوير</u> ، ج٢ ، ص : ٤٣١ – ٤٣٢

حتى أن أثر ذلك الإحساس لَيُسَاوي بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها في حالة كبر الابن، ثم وزع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقية مراتب القرابة على حسب الدنو في القرب النسبي بما شرعه من صلة الرحم، وقد عزز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة في النفوس .

وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمة تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضا، وفي اتحاد بعضهم مع بعض، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ... ﴾ [سورة الحُجُرات:١٣] ، وقد زاده الإسلام توثيقا بما في تضاعيف الشريعة من تأكيد شد أواصر القرابة أكثر مما حاوله كل دين سلف [١].

ولما كان للمرأة الدور العظيم في بناء وتكوين ورعاية الأسرة فإن دين الإسلام حري بالعناية بإصلاح شأنها، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني والمربية الأولى التي تُفِيض التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولا لم تمسها وسائل الشر وقلوبا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان، فإذا كانت تلك التربية خيرا وصدقا وصوابا وحقا كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة وأسبق ما يمتزج بالفطرة السليمة، فهيأت لأمثالها من خواطر الخير منزلا رحبا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبا، ولمَّا كان دين الإسلام دين تشريع ونظام فقد جاء بإصلاح حال المرأة ورفع شأنها؛ لتتهيأ الأمة الداخلة تحت حكم الإسلام إلى الارتقاء وسيادة العالم [٢].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٧٣ – ٧٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ٤٠١

وإذا كان من أهم أسباب ارتقاء الأمة ونهضتها العلم فإن الشيخ ابن عاشور يرى أن من حق المرأة المسلمة التمتع بحق التعليم، ولم تكن دعوة ابن عاشور إلى منح المرأة حق التعليم في الربع الأول من القرن الماضي مجرد فكرة عابرة، وإنما كانت أصلا من أصول برنامجه الإصلاحي للتعليم الزيتوني ؛ لذلك ما إن تولى مشيخة الجامع الأعظم وفروعه سنة ١٩٤٥م حتى بادر بتمكين البنت المسلمة من التعليم في الزيتونة، حيث فتح فرعا خاصا بالفتيات عام ١٩٤٩م [١].

لقد أوجد الإسلام الجامعة الإسلامية القائمة على وجود مجتمع إسلامي بدءاً من الأسرة، مع تحقيق رابطة الأخوة بين أفراده [٢].

ويرى ابن عاشور أن إطلاق وصف الأخ على المماثل في دين الإسلام يعدّ تأسيس أصل جاء به القرآن جُعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الأخوة، ولكن التوافق في الدين آصرة نفسانية والتوافق في النسب آصرة جسدية، والروح أشرف من الجسد [٣].

٢- ضبط العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة :

وهذا أصل من أصول الإصلاح الاجتماعي في الإسلام، ويقصد به : ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية[٤].

---

(١) سليمان الشواشي : موقع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في الفكر الإصلاحي ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي ، رؤية منهجية معرفية**، مرجع سابق ، ص : ٧٦

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ١١٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ١٤٢

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٣٨

ويترجم هذا في إصلاح العلاقات الأسرية بين الزوجين، وبينهما وبين الأولاد، وبين الجار وجاره، وفي علاقات العمل، والمعاملات المادية كالتجارة .. كما تتضمن منهج التربية الاجتماعية الإسلامية إشاعة جماليات السلوك الاجتماعي وضبط الغرائز، وذلك بالنهي عن الأمراض الإجتماعية كالظن والغيبة والحقد والكذب ويكون هذا بالتوازي مع نشر الجماليات السلوكية كالصدق والصبر والرحمة والإيثار وغير ذلك من الآداب الاجتماعية الإسلامية(1).

ومن مكارم الأخلاق التي يرى ابن عاشور أنها تضبط العلاقات الاجتماعية خلق الوفاق، فهو القانون العام لانتظام المعاشرة في الطبائع والأخلاق والأهواء والأميال، والمعاشرة نوعان، أولهما معاشرة حاصلة بحكم الضرورة، وهي معاشرة النسب المختلفة في القوة والضعف بحسب شدة قرب النسب وبعده كمعاشر الآباء مع الأبناء ومعاشرة الإخوة بعضهم مع بعض، وأبناء العم والعشيرة .

والنوع الثاني معاشرة بحكم الاختيار وهي معاشرة الصحبة والخلة والحاجة والمعاونة، وما هي إلا معاشرة مؤقتة تطول أو تقصر وتستمر أو تغب بحسب قوة الداعي وضعفه وبحسب استطاعة الوفاء بحقوق تلك المعاشرة، والتقصير في ذلك أو التخلص من هذا النوع ممكن إذا لم تتحد الطباع (2).

---

(1) بلغيث بن أحمد الغانمي : مرجع سابق ، ص : ٧٣

(2) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ص : ٤٥٩

٣- تحقيق وحدة الأمة الإسلامية وتعاونها وقوتها :

يرى ابن عاشور أن للوحدة أصل فطري، فالناس أبناء أب واحد وأم واحدة، فلا جرم أن كانوا في أول أمرهم أمة واحدة ؛ لأن أبويهم لما ولدا الأبناء الكثيرين وتوالد أبناؤهما تألفت منهم في أمد قصير عائلة واحدة خُلقت من مزاج نقي، فكانت لها أمزجة متماثلة ونشئوا على سيرة واحدة في أحوال الحياة كلها، وما كانت لتختلف إلا اختلافا قليلا ليس له أثر يُؤْبَه به، فلا يحدث في العائلة تنافرا ولا تغالبا (١).

ولذلك تبدأ وحدة الأمة بالاتحاد الأسري أو العائلي، ومن سبله مواساة ذي القربى، فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين، وهو تقوية أواصر العشيرة التي تتكون منها البلدة (٢).

ويؤكد الشيخ ابن عاشور أن الاعتصام والاتحاد الواردين في قول الله ﷻ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ...﴾ [سورة آل عمران:١٠٣] يُعَدَّان أصلا عظيما من أصول الأخلاق الإسلامية، ويرى أن في هذا صلاح الأنفس للآخرة وصلاح الحال في الدنيا، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ؛ لما في الاتحاد من القوة والنماء (٣).

وقد نهى الإسلام عن الاختلاف المذموم، وهو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضا أو تفسيقه دون الاختلاف في الفروع

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص : ٣٠٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج١٥، ص : ٧٧

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج٤، بتصرف، ص : ٣٠ - ٣١

المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والعصور، وهو المعبر عنه بالاجتهاد، ونحن إذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقا نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة [١].

كما نهى عن التنازع والصراعات بين المسلمين التي تؤدي إلى الفشل والفرقة وذهاب القوة والغلبة، فقال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال:٤٦]، يقول ابن عاشور: أما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك بالتفاهم والتشاور ومراجعة بعضهم بعضا حتى يصدروا عن رأي واحد [٢]، وعن أبي مسعود الأنصاري، قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: " لا تختلفوا فتختلف قلوبكم لَيَلِيَنِّي منكم أولوا الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " [٣]، وكان - ﷺ - يعمل مع أصحابه في حفر الخندق، وفي بناء المسجد النبوي، ويجمع لهم الطعام ليجتمعوا عليه، فالعمل الجماعي والتعاوني شعار الإسلام [٤].

ورغم ذلك فإن مشكلة المسلمين اليوم هي غياب العمل الجماعي إلا نادرا، فما أحوج المسلمين - في ظل المتغيرات العالمية المختلفة - إلى العمل التعاوني

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ص: ٤٣

(٢) ابن عاشور: <u>**التحرير والتنوير**</u>، ج ١٠، ص: ٣١

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من يستحب أن يلي الإمام، رقم (٩٧٦)

(٤) مروة عدنان الجدي: **أثر توظيف بعض استراتيجيات التعلم النشط في تدريس العلوم على تنمية المهارات الحياتية لدى طلبة الصف الرابع في محافظة غزة**، رسالة ماجستير، كلية التربية، عمادة الدراسات العليا، جامعة الأزهر، غزة، ٢٠١٢م، ص: ١٤

المشترك في كل المجالات، فقد كوَّنت أوربا اتحادات للعمل المشترك، فالمسلمون أولى بذلك .

فإن لم يكن المسلمون على كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول - عليه الصلاة والسلام - دبّ بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء، وذلك الحال هو المعبر عنه بالفتنة التي ترجع إلى اضطراب الآراء واختلال السير وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس، قال تعالى : ﴿... وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ...﴾ [سورة البقرة:١٩١].

فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة، بل تَعُمُّه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل ؛ لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم [١].

إن وحدة المسلمين تؤدي بهم إلى القوة العظيمة في كل المجالات، وقوة الأمة مجموع ما به تدفع العوادي عن كيانها وتستبقي صلاح أحوالها من عُدَد حربية وأموال وأبناء ..[٢]، قال تعالى : ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾ [سورة النمل:٣٣].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص : ٣١٦ - ٣١٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص: ٥٧

٤ - تحقيق الأمن الاجتماعي ببث الثقة والأمان بين أفراد الأمة:

المراد بالأمن هو اطمئنان الفرد والأسرة والمجتمع على أن يحيوا حياة طيبة في الدنيا، لا يخافون على أنفسهم وأموالهم وعقولهم ونسلهم من الاعتداء عليها أو على ما يصونها ويكملها، فهو نعمة من نعم الله تعالى على عباده (١)، قال الله تعالى ممتنا على قريش بذلك: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [سورة قريش١ :٤].

ويرى ابن عاشور أن الأمن هو حفظ الناس من الأضرار، فتشريد الفاسد وحراسة البلاد وتمهيد السبل وإنارة الطرق أمن، والانتصاف من الجناة والضرب على أيدي الظلمة وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن، فالأمن يفسر في كل حال بما يناسبه، وقد أغنى الله تعالى بما شرعه من أحكامه فكان ذلك أمنا كافيا(٢).

فأمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة، فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأُوَل (العدل، والعزة، والرخاء)، وإذا اختل الأمن اختلت الثلاثة الأخيرة (التعمير، والإقبال على ما ينفع، والثروة) (٣).

وقد دلّ قول الله تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء:٩٤]، على حكمة عظيمة في حفظ الجامعة الدينية، وهي بث الثقة والأمان بين أفراد

---

(١) بلغيث بن أحمد الغانمي: مرجع سابق، ص: ٦٩ - ٧٠

(٢) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٧٠٩

(٣) المصدر السابق، ج١، ص: ٧١٥

الأمة وطرح ما من شأنه إدخال الشك ؛ لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده، وكما يتهم المتهم غيره فللغير أن يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق، إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق، ولننظر معاملة النبي – ﷺ – المنافقين معاملة المسلمين (١)، فعلى الجميع أن يتعامل بظاهر حال المسلم دون التنقيب عن باطنه ونواياه ؛ لأن هذا الأمر يختص به الله تعالى دون غيره، فهو الذي يحكم بين العباد يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (٢).

ولتحقيق الأمن فإن الله تعالى أنعم علينا بنعمة هلاك الظالمين ؛ لأن هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وإنما كان هلاكهم صلاحا ؛ لأن الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحق والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم، فإذا هلك الظالمون عاد العدل الذي هو ميزان قوام العالم (٣)، قال الله تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام:٤٥] .

٥– تحقيق النهضة الاقتصادية والعلمية للمجتمع :

إن مال الأمة هو كل ما به تستغني الناس في تحصيل ما ينفعهم في حياتهم، وهو يتألف من نوعين، **أحدهما** : مال كل فرد من أفراد الأمة، وهذا النوع قررته الشريعة حقا للذي اكتسبه بطريق من طرق الاكتساب الصحيح شرعا .

والنوع الثاني : مال جعلته الشريعة مرصدا لعموم جماعة المسلمين هو حق للجماعة على الإجمال ليتولى ولي الجماعة إبلاغ منافعه إلى من لا يستطيع إقامة

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٥ ، ص : ١٦٨

(٢) هاله فائق عوض حمدية : **الإصلاح الاجتماعي في تفسير التحرير والتنوير ، دراسة تحليلية** ، رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ، الأردن ، كلية الدراسات الفقهية والقانونية ، ٢٠٠٩م ، ص : ٦٦

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٧ ، ص : ٢٣٢

شئونه من ماله، بل من لا مال له أو قدرة على التمول، وهو حق للجميع، وهذا النوع من المال سُمي مال الله ؛ لأنه ليس له مالك معين، فهو لمن يجعل الله فيه حقا (١).

والمقصد الشرعي من تأسيس مال للأمة هو أن يكون هذا المال عُدة لها وقوة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها ؛ حتى تكون مرهوبة الجانب مرموقة بعين الاعتبار غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها فيبتزّ منافعها ويدخلها تحت نير سلطانه (٢).

وإنما يحصل توفير مال الأمة بتوفير مال كل فرد منها، فإن الأمة مجموع الأفراد، وهذا التوفير يسمى ثروة، ووسائل توفير الثروة ثلاثة : التدبير والعمل والمادة، فالتدبير توخي أساليب الإنتاج وجلب الثروة باتباع أحسن الأساليب وأنسب الأوقات وأسعد كيفيات العمل، وبإعداد رءوس الأموال، وبالنشاط في بذل الأعمال وارتقاب الأحوال المناسبة للإصدار عند الشعور بالطلب، والجلب عند مساس الحاجة إلى ما يجلب، والادخار عند ركود الأسعارأو عند التخوف من فقد ما تحتاج إليه مما به دوران دواليب الميسرة، قال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة يوسف:٤٧] .

أما العمل، فمثل الفلاحة والصناعة والتجارة وصيد البحر واستنباط المياه واستخراج المعادن ... قال ﷻ : ﴿... وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ...﴾ [سورة المزَّمل:٢٠].

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٩٠ - ١٩١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص : ٧٩

أما المادة فهي موقع العمل ومصدر الإنتاج بالوضع والاستخراج، وهي الأرض وما عليها وما حواه باطنها، فيشمل البحار والأنهار والأودية والمعادن وعيون الماء وطبقات الجو، قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة المُلك:١٥] [1].

ومن معالم الإصلاح الاقتصادي أن لا يكون المال متداولا بين الأغنياء من المجتمع فقط، فلا بد من إعادة توزيع الثروة [2]، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ ...﴾ [سورة الحشر:٧]، يقول ابن عاشور : نأخذ من الآية تفاصيل علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة، ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل، وذلك ما تومئ إليه الآية إيماءً [3].

ويفهم مما سبق أن تحقيق النهضة الاقتصادية لا يقتصر على تأسيس مال عام للأمة فقط، بل تكون أيضا بدوران المال، وباكتفاء أفراد الأمة بعضهم من بعض عن طريق الإنفاق بالزكاة والصدقات، أي يؤخذ من أغنيائهم فيردّ على فقرائهم، سواء في ذلك ما كان مفروضاً وهو الزكاة أو تطوّعاً وهو الصدقة [4].

إن المجتمع المعاصر يحتاج للنهضة العلمية للخروج من مشكلاته المتعددة، فقد مُنِي المجتمع الإنساني عصورا طويلة بأوهام وعوائد ومألوفات أدخلها عليه

---

(١) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص : ١٩٩ – ٢٠٠

(٢) علي جمعه الرواحنة : المكافحة المنهجية عند ابن عاشور لفساد المجتمع ومجالات الإصلاح والتجديد، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية**، مرجع سابق، ص : ٩٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ١، ص : ٤٣

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج٣، ص : ٧٨

أهـل التضـليل، فاختلطـت عنـده بـالعلوم الحقـة، فتقـاول النـاس عليهـا وارتاضوا على قبولها، فالتصقت بعقولهم التصاق العنكبوت ببيته، فتلـك يخـاف منها أن تتلقى بالتسليم على مرور العصور فيعسر إقلاعهـم عنهـا وإدراكهـم مـا فيها من تحريف عن الحق، فليس لتمييزها إلا أهـل الرسـوخ أصـحاب العلـوم الصحيحة الذين ضربوا في الوصول إلى الحقائق كل سبيل واستوضحوا خطيرها وسليمها فكانوا للسابلة خير دليل [1].

وقد رأى ابن عاشور أن لاكتساب العلم دور في إصـلاح الفكـر وإصـلاح العمل، ووسيلة لإصلاح الاعتقاد، وتكملة لإيجاد الوازع النفسـاني[2]، فـالعرب لجهلهم قديما كانوا يتلقون من الأمم المجاورة لهم والتـي يرحلـون إليهـا عقائـد شتى متقاربا بعضها ومتباعدا بعض، فيأخذونه بدون تأمـل ولا تمحـيص لفقـد العلم فيهم، فالعلم الصحيح هو الذائد عن العقول من أن تعشش فيها الأوهـام والمعتقدات الباطلة، فالعرب كان أصل دينهم في الجاهلية عبادة الأصنام وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجن والشياطين ونحو ذلك [3].

إن العلوم نعمة من الله تعالى ولطف ؛ لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه، وبهـا عمل عقله فيما يدله على الحقائق ؛ ليسلم من الخطأ المفضي إلى الهلاك والمصـائب العظيمة، فهي نعمة كبرى تستوجب شكر المنعم سبحانه وتعالى [4].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص : ٩٢

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٩١

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٤٠٤ – ٤٠٥

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ٢٣٣

إن التعليم يرسم مستقبل الأمم وهو طريق رقيها، ولا شك في أن سبيل تحقيق ذلك الرقي يبدأ حتما بتحقيق إرادة الرقي والقدرة على تحقيقه بوساطة التعليم الأصيل المتطور المستجيب للإكراهات التي يفرضها الواقع وهي كثيرة ومتنوعة، وهذا ما يفرض على المتخصصين البحث الدءوب من كل من باستطاعته الإفادة في صياغة برنامج تعليمي يحدث الرغبة في الرقي ويشحذ الهمم على تحقيق تلك الرغبة مع تزويد العقول بالأدوات المنهجية والعلمية المساهِمة في تحقيق المطلوب [1].

ج – أهم الأهداف العمرانية :

إن الشريعة ما طلبت من الناس الإيمان والإسلام لمجرد تعمير العالم الأخروي من جنة ونار ؛ لأن الله تعالى قادر على أن يخلق لهذين الموضعين خلقا يعمرونهما إن شاء خلقهما، ولكن الله أراد تعمير العالمين الدنيوي والأخروي، وجعل الدنيا مصقلة النفوس البشرية تهيئها للتأهل إلى تعمير العالم الأخروي لتلتحق بالملائكة، فجعل الله الشرائع لكف الناس عن سيء الأفعال التي تصدر عنهم بدواعي شهواتهم المفسدة لفطرتهم، وأراد الله حفظ نظام هذا العالم أيضا ليبقى صالحا للوفاء بمراد الله إلى أمد أراده، فشرع للناس شرعا ودعا الناس إلى اتباعه والدخول إلى حظيرته، ذلك الدخول المسمى بالإيمان وبالإسلام، ثم يستتبع ذلك إظهار تمكين أنفسهم من قبول ما يُرسم لهم من السلوك عن طيب نفس، وذلك هو الأعمال ائتمارا وانتهاء وفعلا وانكفافا [2].

(١) عمار جيدل : تقويم تدريس علوم الشريعة الإسلامية ، دراسة في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي ، رؤية منهجية معرفية** ، مرجع سابق ، ص : ٤٨٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٢٧٢

ويؤكــد ذلــك قــول الله تعــالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:٣٠]، يقـول ابـن عاشور : " وتكرير ضمير الأرض للاهتمام بها والتذكير بشأن عمرانها وحفظ نظامها ؛ ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم " (١).

ويطلق ابن عاشور على المقاصد العمرانية " المقاصد التحسينية "، وهي حالة الانتفاع المشار إليها بقوله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ ...﴾ [سورة النمل:٦٢] ، أي يجعلكم تعمرون الأرض وتجتنون منافعها .. وهذه مرتبة التحسيني، وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المَنَاسِب، وهو ما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً (٢)، ويُسَمِّي أيضا هذه المقاصد بعلم العمران والاجتماع .

ومن خلال ما سبق يرى الباحث أن أهم الأهداف العمرانية في تفسير ابن عاشور، هي :

١ - تحقيق الاستخلاف في الأرض لعمارتها :

إن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي، خلاف غيره من الحيوان، ولما استخلف الله تعالى آدم فإن خلافته تعني قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف سَنّ النظام ؛ لذا كان قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ...﴾ [سورة البقرة:٣٠]

(١) المصدر السابق ، ج١ ، ص : ٤٠٢

(٢) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج١٩ ، ص: ٢٩٠**

إشـارة إلى حاجـة البشر ـ إلى إقامـة خليفـة لتنفيـذ الفصـل بـين النـاس في منازعاتهم، إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك (١).

وقد ربط ابن عاشور بين الإعمار في الأرض وبين العلـم، حيـث خـصّ الله تعالى البشر بإقامة الحكومة أو الخلافة لعمران الأرض، ويـدل عـلى ذلـك أن الله تعالى جعل علم آدم بالأسماء وعجز الملائكة عن ذلك علامـة عـلى أهليـة النـوع البشري لخلافته في الأرض دون الملائكة ؛ لأن الخلافة في الأرض هي خلافة الله تعالى في القيام بما أراده من العمران بجميع أحواله وشعبه، بمعنـى أن الله تعـالى ناط بالنوع البشري إتمام مراده من العالم، فكان تصرف هذا النوع في الأرض قائما مقام مباشرة قدرة الله تعالى بجميع الأعمال التي يقوم بها البشر، ولا شك أن هذه الخلافة لا تَتَقَوَّم إلا بالعلم، أي اكتساب المجهول من المعلوم وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها ومقارناتها وهو العلم الاكتسابي الذي يدرك به الإنسان الخـير والشر ويستطيع به فعل الخير وفعل الشر كل في موضعه، ولا يصلح لهـذا العلـم إلا القوة الناطقة وهي قوة التفكير (٢).

٢- المحافظة على بقاء النوع الإنساني :

ويكون ذلك بالتناسل الناتج عن الزواج الشرعي، فإن النسل نعمة مـن الله على الوالدين يأنسون به ويجدونه لكفاية مهماتهم، ونعمة عـلى القبيلـة كـي تكثـر وتعتزّ، ونعمة على العالم كله بكثرة من يعمره وبما ينتفع بـه النـاس مـن مواهـب النسل وصنائعه، ونعمة على النسل نفسه بما يناله من نعيم الحياة وملذاتها،

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٣٩٨- ٣٩٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٤١٨ - ٤١٩

ولتلك الفوائد اقتضت حكمة الله إيجاد نظام التناسل ؛ حفظا للنوع وتعميرا للعالم وإظهارا لما في الإنسان من مواهب تنفعه وتنفع قومه، مع النهي عن الاعتداء على حق البنت الذي جعله الله لها وهو حق الحياة إلى انقضاء الأجل المقدر لها، وهو حق فطري لا يملكه الأب [1].

ومن سبل حفظ النوع الإنساني ترك التقاتل، قال تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾[سورة المائدة:٣٢] ، قال ابن عاشور : هذا بيان أن قتل النفس بغير حق جرم فظيع، كفظاعة قتل الناس كلهم، والمقصود التوطئة لمشروعية القصاص المصرح به .. فالنفوس جبلت على حب البقاء وعلى حب إرضاء القوة الغضبية، فإذا علم الإنسان عند الغضب أنه إذا قتل فجزاؤه القتل ارتدع، وإذا طمع في أن يكون الجزاء دون القتل أقدم على إرضاء قوته الغضبية معللا ذلك بأن ما دون القصاص يمكن الصبر عليه والتفادي منه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[سورة البقرة:١٧٩] [2].

ويبين ابن عاشور مقصد القصاص من خلال تفسير قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ ... ﴾[سورة البقرة:١٧٨] ، فيقول : أعيد الخطاب بـ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ؛ لأن هذا صنف من التشريع لأحكام ذات بال في صلاح المجتمع الإسلامي،

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص : ١١٣ - ١١٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٦ ، ص : ١٧٧ – ١٧٨

واستتباب نظامه وأمنه حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعة ذات استقلال بنفسها ومدينتها تلك أحكام متتابعة من إصلاح أحوال الأفراد وأحوال المجتمع، وابتدئ بأحكام القصاص ؛ لأن أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة [1].

٣- حفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها:

لقد ذكر ابن عاشور نموذجا لتقديم مقصد حفظ العقيدة على حفظ أي مقصد آخر، وذلك حين عرض لتفسير حوار موسى وهارون عليهما السلام، عندما ترك هارون قومه لعبادة العجل، قال تعالى : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [سورة طه:٩٤] ، حيث اعتذر هارون عن بقائه بين القوم، بقوله : " إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ "، فرأى من المصلحة أن يظهر الرضا عن فعلهم ليهدأ الجمهور ويصبر المؤمنون اقتداء بهارون، ورأى في سلوك هذه السياسة تحقيقا لقول موسى له : ﴿... ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الأعراف:١٤٢] ، وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنده مصلحتان، مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة، فرجح الثانية، وإنما رجحها ؛ لأنه رآها أدوم، فإن مصلحة حفظ العقيدة يُستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى وإبطاله عبادة العجل، حيث جعلوا إنهاء عكوفهم على العجل مرتبطا برجوع موسى، بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا تشرذمت عَسُر تداركها [2].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص: ١٣٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٦ ، ص : ٢٩٣

ولكن ابن عاشور يرى أن اجتهاده ذلك مرجوحا ؛ لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه ؛ لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع .. فإن حرمة الشريعة يكون بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعمل بها [1].

٤ – إيجاد السلطة القانونية الحاكمة لحفظ الدين والحقوق والعمران :

يقصد بهذا إقامة الحكومة التي من واجباتها وواجبات حاكمها أن يكون له نظر متعمق في مصالح الأمة وسياستها، فلا تسير سياسة الأمة على نمط واحد في جميع الأحوال، فمثلا شئون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا ينتظر تحقق وقوع الأمر المظنون ؛ لأنه إذا تريث ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرَّضوا الأمة للخطر أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة، ولا تدار سياسة الأمة بما يدار به القضاء في الحقوق ؛ لأن الحقوق إذا فاتت كانت بَلِيَّتُهَا على واحد، وأمكن تدارك فائتها، أما مصالح الأمة إذا فاتت تمكن منها عدوها [2].

كما أن من واجبات ولاة الأمور تفقد أحوال الرعية وتفقد العمال ونحوهم بأنفسهم كما فعل عمر في خروجه إلى الشام سنة سبع عشرة هجرية، أو بمن يَكِلِ إليه ذلك، فقد جعل عمر –رضي الله عنه– محمد بن مسلمة الأنصاري يتفقد العمال[3]، وكذا الحفاظ على الأمة بصون نظامها ودعم سلطانها وجعلها مرهوبة الجانب

(١) المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص : ٢٩٣ – ٢٩٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٠ ، ص : ٥٢

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٩ ، ص : ٢٤٥

محترمة منظوراً إليها في أعين الأمم الأخرى نظرة المهابة والوقار، قال تعالى : ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الحشر:١٣]، وهذا القصد لا يتحقق إلا بالدفاع عن الحوزة وهي حدود البلاد ونواحيها، وحفظ الأمة الإسلامية من اعتداء عدوها عليها، وحفظ أرض الإسلام من أن ينتزع عدوه منها قطعة أو يتسرب إليها (١)، ويتطلب هذا مراعاة من يقوم بالحماية والدفاع من الجنود، لذلك يرى ابن عاشور أن تفقد الجند من شعار الملك والأمراء، وهو من مقاصد حشر الجنود وتسييرها(٢).

إن حفظ الدين والعمران يتطلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[سورة آل عمران:١٠٤]إن الدعوة إلى الخير تتفاوت، فمنها ما هو بيِّن يقوم به كل مسلم، ومنها ما يحتاج إلى علم فيقوم به أهله، وهذا هو المسمى بفرض الكفاية، وتُحدَّد الطائفة التي تقوم بذلك بتوافر عدة شروط فيها للقيام بمثل ذلك الفعل كالقوة على السلاح في الحرب، وكالسباحة في إنقاذ الغريق، والعلم بأمور الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعنى الدعاء إلى الخير الدعاء إلى الإسلام وبث دعوة النبي- ﷺ - ويشمل أيضا جميع الخيرات، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والآية أوجبت أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما امتثال المأمورين والمنهيين لذلك فهو موكول إليهم أو إلى ولاة الأمور الذين يحملونهم على فعل ما أمروا به، وأما ما وقع في الحديث " من رأى منكم

(١) ابن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، مرجع سابق ، ص : ٢١٥ - ٢١٦

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ١٩ ، ص : ٢٤٥

منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان "[1]، فذلك مرتبة التغيير، والتغيير يكون باليد ويكون بالقلب أي تمني التغيير، وأما الأمر والنهي فلا يكونان بهما[2].

ولما كان تعيين الكفاءة للقيام بهذا الفرض في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتوقفه على مراتب العلم بالمعروف والمنكر ومراتب القدرة على التغيير وإفهام الناس ذلك – رأى أئمة المسلمين تعيين ولاة للبحث عن المناكر وتعيين كيفية القيام بتغييرها، وسموا تلك الولاية بالحسبة[3].

وهذا يتناسب مع أصل الفطرة، فمن مظاهرها امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام وذلك من خصائصه ؛ إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون للأمة، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة، وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة واتحاد الأمة في العمل والنظام[4].

٥- ضبط تصرف الجماعات والأقاليم على وجه يحفظ مصالح الجميع :

إن الله تعالى ما أخر حكما في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم، وذلك مظهر الربوبية، فإنه يربي

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص ، رقم (٤٩) .

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤ ، ص : ٣٩ – ٤١

(٣) وقد أولى عمر بن الخطاب في هذه الولاية أم الشفاء ، وأشهر من وليها في الدولة العباسية ابن عائشة ، وكان رجلا صلبا في الحق ، وتسمى هذه الولاية في المغرب ولاية السوق ، وقد تولاها في قرطبة الإمام محمد بن خالد بن مرتنيل القرطبي المعروف بالأشج من أصحاب ابن القاسم ، توفي سنة ٢٢٠ ، وكانت في الدولة الحفصية ولاية الحسبة ، وربما ضمت إلى القضاء كما كان الحال في تونس بعد الدولة الحفصية . انظر (ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص : ٤١ – ٤٢).

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٩٤ –١٩٦

الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة، ومراد الله تعالى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب العصور والأمم والأحوال إلى أن جاء بالشريعة الخاتمة، وهي مراد الله تعالى من الناس [1]، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة آل عمران:١٩]، وقال أيضا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ...﴾ [سورة الشورى:١٣].

ويكون ضبط التصرف بين الجماعات من خلال كون العلاقات بينهم قائمة على التعارف والتعاون المثمر.

ففي التعارف يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ...﴾ [سورة الحُجُرات:١٣]، والمقصود من الآية كما يرى ابن عاشور هو تأديب عظيم من واجب بث التعارف والتواصل بين القبائل والأمم وأن ذلك مراد الله منهم، فحكمته من هذا الجعل أن يتعارف الناس، أي يعرف بعضهم بعضا، والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها، فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاما محكما لربط أواصرهم

---

(١) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج ١، ص: ٦٦١

دون مشقة ولا تعذر، كما أن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل ثم بينه وبين جماعات أكثر، وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم (١).

إن اختلاف الشعوب والقبائل يكون بسبب التناكر والتطاحن والعدوان، وهذا انحراف للفطرة وقلب للوضع السليم وقد جبر الله صدع العرب بالإسلام فردهم إلى الفطرة التي فطرهم عليها (٢).

وفي التعاون يقول الله تعالى: ﴿...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة:٢]، يقول ابن عاشور: هذا تعليل للنهي الذي في قوله: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ...﴾ [سورة المائدة:٢]، والمعنى: أن واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البر والتقوى، وإذا كان هذا واجبهم فيما بينهم كان الشأن أن يعينوا على البر والتقوى؛ لأن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساع إليها ولو كان عدوا، وفائدة التعاون تيسير العمل وتوفير المصالح وإظهار الاتحاد والتناصر حتى يصبح ذلك خلقا للأمة (٣).

---

(١) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص: ٢٥٩ – ٢٦١

(٢) المصدر السابق، ج ٢٦، بتصرف، ص: ٢٦٠

(٣) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج ٦، ص: ٨٧ – ٨٨

٦- تحقيق العمران المادي والمعنوي لإقامة حضارة شاملة:

يقصد بالعمران المادي تعمير الأرض بالنباء والزراعة والصناعة ويقصد بالمعنوي تحقيق الإيمان والتوبة واستغفاره تعالى وتحقيق الأمن ومراعاة حقوق الأفراد وعدم الطغيان وعدم الإفساد وعدم النفاق والحقد والحسد وذلك لتمكين الأمة المستخلفة، والتمكين هو جعل الشيء متمكنا أي راسخا، وهو تمثيل لقوة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد، وهذا ما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ...﴾ [سورة الأنعام:٦] ، فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرّف(١).

وقد بيَّن الشيخ ابن عاشور بعض مظاهر الإعمار المادي المتمثل في البناء والغرس والزرع وكذلك الإعمار المعنوي المتمثل في الاستغفار والتوبة والإقلاع عن الشرك والفساد من خلال تفسير قوله تعالى : ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...﴾ [سورة هود:٦١]، فقال : الاستعمار هو الإعمار أي جعلكم عامريها، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع ؛ لأن ذلك يعد تعميرا للأرض حتى سمي الحرث عمارة لأن المقصود منه عمران الأرض، وفَرَّع على التذكير بهذه النعم أَمْرَهم باستغفاره والتوبة إليه، أي طلب مغفرة إجرامهم والإقلاع عما لا يرضاه من الشرك والفساد(٢).

إن الأرض اسم للعالم الكروي المشتمل على البر والبحر الذي يعمره الإنسان والحيوان والنبات والمعادن وهي المواليد الثلاثة، وقد أخذوا من قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ...﴾ [سورة البقرة:٢٩]

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٦ ، ص: ٢٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص : ١٠٨

أن أصل استعمال الأشياء فيما يراد له من أنواع الاستعمال هو الإباحة حتى يدل دليل على عدمها ؛ لأنه جعل ما في الأرض مخلوقا لأجلنا وامتن بذلك علينا (١).

وقد أمرنا الله بالسعي في الأرض لإعمارها، قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك:١٥]، قال ابن عاشور : فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هينة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة (٢)

إن مما يفسد الكون ويهدم عمرانه المعنوي شيوع الطغيان والظلم في الأرض، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الفجر٦ :١٤]، والطغيان هو شدة العصيان والظلم .. وهو يجرئ صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة يكون قدوة سوء لأمثاله، فكل واحد منهم يطغى على من هو دونه، وذلك فساد عظيم؛ لأن به اختلال الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية الصالحة، وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطغي عليه من الرعية، فيضمرون السوء للطاغين وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور وتربص الدوائر بهم، فيكونون لها

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ١، ص : ٣٧٨ – ٣٨١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص : ٣١ – ٣٢

أعداء غير مخلصي الضمائر ويكون رجال الدولة متوجسين منهم خيفة فيظنون بهم السوء في كل حال ويحذرونهم، فتتوزع قوة الأمة على أفرادها عوض أن تتحد على أعدائها، فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل، وذلك يفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيان سببا لكثرة الفساد (1).

ومما يفسده أيضا التمني المنهي عنه المؤدي للحقد والحسد ومن ثم الهلاك، وقد بين ابن عاشور ذلك من خلال تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...﴾ [سورة النساء:٣٢] ، فحكمة النهي عن الأحوال المنهي عنها من التمني أنها تفسد ما بين الناس في معاملاتهم فينشأ عنها الحسد،وهو أول ذنب عُصِيَ الله به، إذ حسد إبليس آدم، وكان سبب أول جريمة في الدنيا الحسد، حيث حسد ابن آدم أخاه فقتله، إذ ينشأ عن الحسد الغيظ والغضب فيفضي إلى أذى المحسود، قال الله تعالى:﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الفَلَق:٥] ، ثم إن تمني الأحوال المنهي عنها ينشأ في النفوس أول ما ينشأ خاطرا مجردا، ثم يربو في النفس رويدا رويدا حتى يصير مَلَكَة، فتدعو المرء إلى اجترام الجرائم ليشفي غلته، فلذلك نهوا عنه ليزجروا نفوسهم عند حدوث هذه التمنيات بزاجر الدين والحكمة فلا يدعوها تربو في النفوس، وما نشأت الثورات والدعايات إلى ابتزاز الأموال بعناوين مختلفة إلا من تمني ما فضل به الله بعض الناس على بعض، أو إلا أثر من آثار ما فضل الله به بعض الناس على بعض (2).

---

(1) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص: ٣٢١

(2) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٥ ، ص : ٢٨ – ٣١

إن عمران الكون يتطلب عدم هلاك الحرث والنسل، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [سورة البقرة ٢٠٤ :٢٠٥] ، يقول ابن عاشور : وعندي أن إهلاك الحرث والنسل كناية عن اختلال ما به قوام أحوال الناس .. وقد سمى الله ذلك فسادا وإن كان الزرع والحرث للمشركين؛ لأن إتلاف خيرات الأرض مصيبة على الناس كلهم .

ومعنى الفساد هو إتلاف ما هو نافع للناس نفعا محضا أو راجحا، فإتلاف الألبان مثلا إتلاف نفع محض، وإتلاف الحطب بعلة الخوف من الاحتراق إتلاف نفع راجح، والمراد بالرجحان رجحان استعماله عند الناس، لا رجحان كمية النفع على كمية الضر أما إتلاف المنافع المرجوحة فليس من الفساد كإتلاف الخمور، بل إتلاف ما لا نفع فيه بالمرة كإتلاف الحيَّات والعقارب والفئران والكلاب، وإنما كان الفساد غير محبوب عند الله ؛ لأن في الفساد تعطيلا لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس، فإن الحكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة [1].

٧- الاستغلال الأمثل للموارد الكونية والطبيعية :

يؤصل ابن عاشور لهذا الهدف من خلال قوله تعالى : ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ...﴾ [سورة الأعراف:٥٦] ، حيث يرى أن ترك الإفساد هو الأصل الثاني من أصول دعوة شعيب -عليه السلام- فقد نهى عن كل ما يفضي إلى

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٨١

إفساد ما هو على حالة الصلاح في الأرض، فذكَّرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزهاً عن أن يخالطه فساد، فإنهم إن أفسدوا في الأرض أفسدوا مخلوقات كثيرة وأفسدوا أنفسهم في ضمن ذلك الإفساد، ودأب القرآن أن يعقِّب الترغيب بالترهيب وبالعكس ؛ لئلا يقع الناس في اليأس أو الأمن(١).

إن الله تعالى أنعم علينا بنعم كثيرة لا تحصى ولا تعد، فسخر لنا ما في الأرض لقصد الانتفاع وإقامة الحياة، فلا يمكن لعاقل أن يفسد ما من شأنه النفع والصلاح، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الجاثية:١٢] .

إن جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل الإنسان إكراما له .. وفرَّع على خلقها للناس أنهم لها مالكون قادرون على استعمالها فيما يشاءون ؛ لأن الملك هو أنواع التصرف(٢).

ولما أنعم الله علينا بهذه النعم نهانا عن إفسادها والتبذير فيها، قال الله ﷻ: ﴿...وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء٢٦ :٢٧]، والتبذير هو تفريق المال في غير وجهه، فإنفاقه في الفساد تبذير ولو كان المقدار قليلا، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حد السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البر والصلاح ليس بتبذير، فهو مرصود لإقامة مصالح العائلة والقبيلة وبالتالي مصالح الأمة(٣).

فالتبذير يدعو إليه الشيطان ؛ لأنه إما إنفاق في الفساد وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات فيعطل الإنفاق في الخير، وكل ذلك يرضي الشيطان،

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٨ ، ص : ٢٤٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٣ ، ص: ٦٨

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٧٩

فلا جرم أن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه، وهذا تحذير من التبذير ؛ لأن التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه فصار له خلقا لا يفارقه، وشأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلقها بالنفوس (١).

ويود الباحث أن يذكر أن التقسيم الوارد للأهداف التربوية ' أهداف تربية الفرد – أهداف اجتماعية – أهداف عمرانية ' قد اعتمد فيه على الرؤية المقاصدية في تفسير ابن عاشور القائمة على المقاصد القرآنية العليا والأصلية والتي تهدف إلى إصلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية التي ذكرت في بداية هذا الفصل لتكون الإطار الفلسفي لبناء الأهداف التربوية، كما أن كل قسم من الأهداف التربوية يعمل على تحقيق ما يقابله من المقاصد القرآنية السابقة .

كما تجدر الإشارة بأن بعض الأهداف التربوية السابقة قد اقتبسها الباحث مما نصَّ عليه ابن عاشور في تفسيره حول كيفية تحقيق مقاصد القرآن الكريم، وبعضها استنتجه الباحث من فكر ابن عاشور في التفسير .

ثانيا : أقسام العلوم :

يرى ابن عاشور أن تعليم الإنسان كان سببا لتفضيله على بقية أنواع جنسه بقوة النطق وإحداث الموضوعات اللغوية للتعبير عما في الضمير، وكان ذلك أيضا سببا لتفاضل أفراد الإنسان بعضهم على بعض بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم وهو مبدأ العلوم، فالإنسان لما خلق ناطقا معبرا عما في ضميره فقد خلق مدركا أي عالما ومعلما، وهذا أصل نشأة العلوم والقوانين وتفاريعها، لأنك إذا نظرت إلى المعارف كلها وجدتها وضع أسماء لمسميات

(١) المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص : ٨١

وتعريف معاني تلك الأسماء وتحديدها ؛ لتسهيل إيصال ما يحصل في الذهن إلى ذهن الغير، وكلا الأمرين قد حرمه بقية أنواع الحيوان (١).

إن ابن عاشور ذكر أنواعا كثيرة للعلوم من خلال بعض المصطلحات الواردة في تفسيره، منها : العلوم البديهية، والعلوم الكسبية، والعلم الاصطلاحي، والعلم الحقيقي، وعلوم الحكمة، والعلم اللدني، والعلوم الضرورية أو الحسية اليقينية، والعلوم النظرية البرهانية أو العقلية التي تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، ويشترط لها كون المسائل قضايا كلية يبرهن عليها في العلم (٢).

بالإضافة إلى ذكره لعلوم متعددة كعلم الجغرافيا والمعادن، وعلم التاريخ، وعلم الطب وعلم الأحياء، وعلم الفلك والطبيعة، وعلم الحيوان والطير، وعلم العمران، وعلم المعاملات أو السياسة المدنية، والاقتصاد السياسي، وعلوم الحقوق، وعلوم الكلام، وعلم حوادث الجو، وعلوم مراتب النفوس وهي من العلوم العليا التي تعرّض لها القرآن الكريم (٣)، وعلوم اللغة العربية أوعلوم اللسان وتفريعاتها، وكذلك العلوم الإسلامية وتفريعاتها من التفسير وأصول الفقه والحديث، ولايشترط لها ما اشترط في العلوم العقلية، بل يكفي أن تكون مباحثها مفيدة كمالا علميا لِمُزاوِلها، والتفسير أعلاها في ذلك ؛ لأنه بيان مراد الله تعالى من كلامه (٤)، وقد جزم العلماء بأن الفقه أفضل العلوم، وقد

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤١٠

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص : ١٢ ، ٤٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٥٧

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ١٢- ١٣

ضبطوا حقيقة الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد [1]، وفي هذا إيماء إلى أن فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة، ولذلك جاء في الحديث الصحيح " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " [2].

وقد قسّم ابن عاشور العلم إلى نوعين، هما :

١ - العلم الاصطلاحي، وهو ما تواضع الناس في عصر من العصور على أن صاحبه يعد في صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة .

٢- العلم الحقيقي، وهو معرفة ما به كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا .

وكلا العلمين ' الإصطلاحي والحقيقي ' كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وقد اشتمل القرآن على هذين النوعين، فالنوع الأول تناوُلُه قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضي نظرا، ويتمثل في علوم أهل الكتاب ومعرفة الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم .

أما النوع الثاني من إعجازه العلمي ' الحقيقي ' فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفُهُوم وتطورات العلوم، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله ؛ لأنه جاء به أمي في

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص : ٦١ - ٦٢

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، رقم (٧١).

موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم والجائي به ثاوٍ بينهم لم يفارقهم، وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة القصص٤٩ :٥٠]، ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة، حتى ارتقى إلى ما لم يألفوه وتجاوز ما درسوه وألفوه .(١)

كما قسّم العلوم أيضا قسمين آخرين باعتبار أدوات تحصيلها وإدراكها، هما(٢):

١- العلم الضروري الحسي الذي يدرك بالحواس .

٢- التصديقات المنقسمة إلى العلوم البديهية والنظرية الكسبية، ويكون إدراكها بالعقل بمعاونة الحواس في إدراك جزئياتها .

ويرى أن تأثير العلم الحسي على المزاج الإنساني أقوى من العلم العقلي على تفاصيل الكيفيات التي تحبها النفوس وترتمي إليها الشهوات (٣) ؛ لأن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية(٤)، ويؤكد هذا قول الله ﷻ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...﴾ [سورة البقرة:٢٦٠] ، ومعنى "لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" ليثبت ويتحقق علمي وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ١٢٦ – ١٢٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، بتصرف ، ص : ٢٣٢ – ٢٣٣

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ١٥٩

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٢١

المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبه عن العقل، والقلب مراد به الفكر والعلم، إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل وإنما ذلك للفكر، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به، وقد دله الله تعالى على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين [1]

أما علوم الحكمة فقسمت أقساما مختلفة الموضوع اختلافا باختلاف العصور والأقاليم، **وقد انتقلت حكمة الأمم الشرقية إلى اليونان وهذبت وصححت وفرعت وقُسِّمت عندهم إلى قسمين** : حكمة عملية، وحكمة نظرية.

فأما الحكمة العملية فهي المتعلقة بما يصدر من أعمال الناس، وهي تنحصر في تهذيب النفس وتهذيب العائلة وتهذيب الأمة .

فالأول : علم الأخلاق، وهو التخلق بصفات العلو الإلهي بحسب الطاقة البشرية فيما يصدر عنه كمال في الإنسان .

والثاني : علم تدبير المنزل .

والثالث : علم السياسة المدنية والشرعية .

وأما الحكمة النظرية فهي الباحثة عن الأمور التي تُعَلَّم وليست من الأعمال، وإنما تعلم لتمام استقامة الأفهام والأعمال، وهي ثلاثة علوم : علم يلقب بالأسفل وهو الطبيعي، وعلم يلقب بالأوسط وهو الرياضي، وعلم يلقب بالأعلى وهو الإلهي .

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ٣٩

فالطبيعي يبحث عن الأمور العامة للتكوين والخواص والكون والفساد، ويندرج تحته حوادث الجو وطبقات الأرض والنبات والحيوان والإنسان، ويندرج فيه الطب والكيمياء والنجوم . والرياضي الحساب والهندسة والهيئة(١) والموسيقي ويندرج تحته الجبر والمساحة والحيل المتحركة الماكينية وجرّ الأثقال، **أما الإلهي فهو خمسة أقسام :**

- معاني الموجودات من الهوية والوحدة والكثرة والوفاق والخلاف ..
- الأصول والمبادىء وهي المنطق ومناقضة الآراء الفاسدة .
- إثبات واجب الوجود وصفاتِه، ويقصد بذلك إثبات الحق الأول وتوحيده والدلالة على تفرده وربوبيته وامتناع وجود مشارك في مرتبة وجوده وهو وحده واجب الوجود بذاته.
- إثبات الأرواح والمجرّدات، وهي الجواهر الأولى الروحانية ويقصد بذلك الملائكة.
- إثبات الوحي والرسالة . وقد أشار ابن عاشور إلى أن هذه العلوم قد بَيّنها أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا (٢).

والمهم من الحكمة في نظر الدين - كما يرى ابن عاشور - **أربعة فصول:** أحدها معرفة الله حق معرفته وهو علم الاعتقاد الحق، ويسمى عند اليونان

---

(١) يقصد بعلم الهيئة ذلك العلم الذي يعرف منه حال أجزاء العالم في أشكالها وأوضاع بعضها عن بعض ومقاديرها وأبعاد ما بينها وحال الحركات التي للأفلاك والكواكب وتقدير الكرات والقطوع والدوائر التي بها تتم الحركات. انظر (عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب: **الفكر التربوي عند ابن سينا**، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص : ١٤٩) .

(٢) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ٦٢ .
- عبد الرحمن النقيب : **الفكر التربوي عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص : ١٤٩ – ١٥٠ .

العلم الإلهي أو ما وراء الطبيعة .

الثاني : ما يصدر عن العلم به كمال نفسية الإنسان، وهو علم الأخلاق .

الثالث : تهذيب العائلة، وهو المسمى عند اليونان علم تدبير المنزل .

الرابع : تقويم الأمة وإصلاح شئونها وهو المسمى علم السياسة المدنية، وهو مندرج في أحكام الإمامة والأحكام السلطانية، ودعوة الإسلام في أصوله وفروعه لا تخلو عن شعبة من شعب هذه الحكمة [1] .

أما العلوم اللدنية هي التي استأثر الله بها ولم ينصب عليها دلائل عقلية أو عادية، على أنه – سبحانه وتعالى – قد يطلع بعض أصفيائه على ما هو من خواص علمه[2]، كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الجن٢٦ :٢٧].

إن ما ذكره ابن عاشور من أنواع العلوم وخاصة علوم الحكمة السابقة ما هو إلا نوع من تاريخ تقسيم العلوم، ولكن كان له رؤية عصرية في تقسيم العلوم، حيث قسمها من جهة النفع إلى قسمين، هما : العلوم الحاجية والعلوم الأدبية، فالعلوم الحاجية التي تدعو إلى معرفتها حاجة الحياة الاجتماعية، وهي تختلف أعدادها باختلاف الحاجات الداعية ولا يقدر أن يحدد عددها أحد، لكن لا شكّ أن تقدم الحضارة يوفر كثرتها، ولها غايات دينية ودنيوية للوصول إلى غاية أسمى وهي إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها وهي غاية مقصودة لمرشدي

---

(١) ابن عاشور : <u>**التحرير والتنوير**</u> ، ج ٣ ، ص : ٦٣

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص : ٢٢.

الأمم من الرسل والحكماء والمصلحين الناصحين، أما العلوم الأدبية فهي ما لا يجتني منها المرء غير الكمال النفساني [1].

وقد وضع ابن عاشور أسسا لإصلاح بعض الفنون الأدبية في تفسير "التحرير والتنوير "، وسوف يعرض الباحث ذلك من خلال ما يأتي : -

أ- فن التعبير الأدبي :

يرى ابن عاشور أن سورة الفاتحة بما تُقَرِّر منزلة من القرآن منزلة الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة، وهذا الأسلوب له شأن عظيم في صناعة الأدب العربي وهو أعون للفهم وأدعى للوعي، وقد رسم أسلوب الفاتحة لفن الخطابة والإنشاء أو التعبير الأدبي وأصحابه أربعة قواعد للمقدمة [2]:

القاعدة الأولى : إيجاز المقدمة لئلا تَمِلّ نفوس السامعين بطول انتظار المقصود وهو ظاهر في الفاتحة، وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة، فإنه بمقدار ما تطول المقدمة يقصر الغرض .

القاعدة الثانية : أن تشير إلى الغرض المقصود وهو ما يسمى براعة الاستهلال ؛ لأن ذلك يهيئ السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه إن كانوا من أهل التلقي فحسب، أو لنقده وإكماله إن كانوا في تلك الدرجة، ولأن ذلك يدل على تمكن الخطيب من الغرض وثقته بسداد رأيه فيه بحيث ينبه السامعين لوعيه، وفيه سنة للخطباء ليحيطوا بأغراض كلامهم

القاعدة الثالثة : أن تكون المقدمة من جوامع الكلم، وقد بيّن ذلك علماء البيان عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيها .

---

(١) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ٩ – ١٠ .

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ١٥٣ .

القاعدة الرابعة : أن تفتتح بحمد الله، فإن القرآن أنزل هدى للناس وتبيانا للأحكام التي بها إصلاح الناس في عاجلهم وآجلهم ومعاشهم ومعادهم

كما يرى أن الأصل في الإنشاء أن يكون ترتيب الكلام مطابقا لترتيب مدلولات جُمَلِه، ويؤكد ذلك من خلال تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة:٣٤] ، حيث رُتبت الأخبار الثلاثة في الذكر على حسب ترتيب مفهوماتها في الوجود [1]، كما يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [سورة هود:٧٧]: إن من بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب التخلص منه، فإذا علم أنه لا مَخْلَص منه ضاق به ذرعا، ثم يُصْدِر كلاما يريح به نفسه وذلك تعبيرا عن المعاني وترتيبا عليها، فهذه الآية تصلح لأن تكون مثالا لإنشاء المنشئ إنشاءه على حسب ترتيب الحصول، فهذا أصل الإنشاء ما لم تكن في الكلام دواعي التقديم والتأخير ودواعي الحذف والزيادة [2].

ويرى أيضا أنه لا يحصل الإنشاء إلا بمزاولة الكلام الفصيح البليغ وتعويد التلاميذ ابتداءً بإيجاد الأفكار بأن يُكَلَّف التصور لما يريد أن يعبِّر عنه، ثم بترتيب الأفكار والاستنتاج، ثم بالتعبير عما وجده في نفسه بلفظ مناسب فصيح في كلام بليغ ليفهم السامع مقصوده من أقرب طريق، ويكون في الاطلاع على خطب

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٤٢٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص: ١٢٥ .

البلغاء وجمل الحكماء وأمثال العرب وقصص القرآن وتشريعه ما يقنع ويفيد في التعليم، ولكن ينبغي أن يكون تدريجيا يناسب تهيؤ التلاميذ[1].

ب – أصول النقد الأدبي :

إن أصول النقد الأدبي كما يرى ابن عاشور تؤول إلى بيان ما لا يحسن أن يشتمل عليه كلام الأديب من جانب صناعة الكلام ومن جانب صور المعاني ومن جانب المستحسن منها والمكروه، وهذا النوع الثالث (جانب المستحسن والمكروه) يختلف باختلاف العوائد ومدارك العقول وأصالة الأفهام بحسب الغالب من أحوال أهل صناعة الأدب، فقد يكون اللفظ مقبولا عند قوم غير مقبول عند آخرين، ومقبولا في عصر مرفوضا في غيره[2].

ثالثا : أدوات العلم والمعرفة :

إن منهج الإسلام في المعرفة هو أن بإمكان الإنسان معرفة كثير من الأشياء والموجودات إذا ما سلك السبل المؤدية إلى المعرفة، وعلى هذه المعرفة يكون تعامله الصحيح معها واستفادته منها، وقد جاءت الآيات القرآنية تحث الإنسان على التفكر والتدبر والنظر من أجل معرفة الأشياء المبثوثة في الكون من حوله حتى يستفيد منها في حياته المادية ويستشعر عظمة خالقها .. ولو لم تكن المعرفة ممكنة لكان الأمر بالنظر والتدبر والتفكر لغواً باطلاً، والله منزّهٌ عن ذلك[3].

---

(١) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٨٨ .

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٣٦٠.

(٣) عبد الرحمن بن زيد الزبيدي : **مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، دراسة نقدية في ضوء الإسلام**، ط ١، مكتبة المؤيد ، الرياض ، السعودية ، ١٩٩٢م ، ص : ٦٨– ٦٩

وقد وهب الله تعالى الإنسان حواسا يكتسب بها مع العقل العلوم والمعارف، قال الله ﷻ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [سورة الإنسان:٢] ، يقول ابن عاشور : فَرَّع على خلقه من نطفة أنه جعله سميعا بصيرا، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة، ولم يقل فجعلناه سامعا مبصرا ؛ لأن سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلا وتمييزا في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان، فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل، وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه .

وهذا يرشد إلى ما ميَّز الله به الإنسان من قبوله التكليف واتباع الشرائع، وتلك خصيصية الإنسان التي بها ارتكزت مدنيته وانتظمت جامعاته، ولذلك أُعقبت هذه الجملة بقوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان:٣] (١).

إن اكتساب العلوم والمعارف يتم بأدوات متعددة، أهمها :

أ - العقل :

إن للعقل الدور الرئيس والكبير في اكتساب العلم، وهو سبب الفروق الفردية بين طالبي العلم، فقد جعل الله تعالى في خلقة العقول اختلاف الميول والأفهام وجعل في تفاوت الذكاء وأصالة الرأي أسبابا لاختلاف قواعد العلوم والمذاهب، فأسباب الاختلاف إذن مركوزة في الطباع بيد أن الله قد جعل أيضا في العقول أصولا ضرورية قطعية أو ظنية ظنا قريبا من القطع به تستطيع العقول

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٩ ، ص : ٣٧٥

أن تعين الحق من مختلف الآراء، وما صرف الناس عن اتباعه إلا التأويلات البعيدة التي تحمل عليها المكابرة أو كراهية ظهور المغلوبية أو حب المدح من الأشياع وأهل الأغراض أو السعي إلى عرض عاجل من الدنيا [1].

وقد دعا القرآن الكريم لإعمال النظر والتدبر بالعقل للوصول إلى العلم الحقيقي، وقد ذكر ابن عاشور أن في قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة النحل:٧٤] استدعاء لإعمال النظر الصحيح ؛ ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام [2].

كما بيَّن قيمة العقل الإنساني ودوره في إطار تفسير قول الله ﷻ : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [سورة النحل:٩] ، فقال : فلما ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقى إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانية، وهو سبيل الهدى، فكان تعهد الله بهذه السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجثمانية ؛ لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية، وهذا السبيل هي موهبة العقل الإنساني الفارق بين الحق والباطل [3].

فالله تعالى قد وكَّل اختيار طرق الخير وأضدادها إلى عقول الناس وكسبهم حكمة منه تعالى ؛ ليتسابق الناس إلى إعمال مواهبهم العقلية، فتظهر آثار العلم ويزداد أهل العلم علما وتقام الأدلة على الاعتقاد الصحيح، وكل ذلك يُظهر ما

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ٢٢٣

(٣) المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص : ١١٢

أودعه الله في جبلة البشر من الصلاحية للخير والإرشاد على حسب الاستعداد(1).

كما أن من أدوار العقل في تحصيل العلوم والمعارف القيام بعملية الاستدلال، أو المقدمة والنتيجة، ولبيان ذلك قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام:٣٧] : إن الله تعالى نصب الآيات دلائل مناسبة للغرض المستدل عليه كما يقول المنطقيون : إن المقدمات والنتيجة تدل عقلا على المطلوب المستدل عليه، وإن النتيجة هي عين المطلوب في الواقع وإن كانت غيره في الاعتبار ؛ فلذلك نجد القرآن يذكر الحجج على عظيم قدرة الله على خلق الأمور العظيمة كإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في سياق الاستدلال على وقوع البعث والحشر، ويُسَمِّي تلك الحجج آياتا (2).
ومن طرق تحصيل العلم والمعرفة المعتمدة على العقل ما أسماه ابن عاشور بطريقة الخلف، وهم العلماء الذين اعتادوا التفكير والنظر وفهم الجمع بين الأدلة، لذا يقول العلماء إن طريقة الخلف أعلم، أي أنسب بقواعد العلم وأقوى في تحصيل العلم لجدال الملحدين، والمقنع لمن يتطلبون الحقائق من المتعلمين، وقد يصفونها بأنها أحكم ؛ لأنها تقنع أصحاب الأغراض كلهم (3).

لقد ربط القرآن الكريم بين العقل والحواس في اكتساب المعارف، فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الأنعام:١١٠] ، فقد قدمت هنا الأفئدة على الأبصار؛

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٦ ، ص : ٢٢٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٢١٠

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، بتصرف ، ص : ١٦٦ – ١٦٧

لأن الأفئدة بمعنى العقول، وهـي محـل الـدواعي والصـوارف، فـإذا لاح للقلب بارق الاستدلال وجَّه الحواس إلى الأشياء وتأمَّل من خلالها، والظاهر أن وجه الجمع بين الأفئدة والأبصار وعدم الاستغناء بالأفئدة عـن الأبصـار ؛ لأن الأفئدة تختص بإدراك الآيات العقلية المحضة [١].

ب - الحواس :

إن الإدراكات الحسية لا تستقل بتحصيل المعرفة العلمية، وإن كانت تشكل الأساس الذي تقوم عليه، فالحس – وحده- غير كاف في إقامة هذه المعرفة مهـما تكرر إدراكه للمدركات، بل لابد من العقل الذي يتلقـى مـادة المـدركات التـي هيأتها له الحواس، فيقوم بترتيبها وتنظيمها ثـم اسـتنتاج دلالاتهـا المعنويـة عـلى ضوء المبادئ الفطرية حيث تتم المعرفة، ودعوة القرآن إلى استخدام الحواس إنـما هي دعوة إلى تحقيق هذه المعرفة التي يصل إليها الإنسان من خلال حركـة عقلـه فيما تقدمه له الحواس ويدل على ذلك تعقيب الله عـلى ذكـر آياتـه في الآفـاق وفي الأنفس مما يدركه الإنسان بحواسه – بألفاظ متعددة، مثل : يذكرون، يعقلـون، يتفكرون، يعلمون، ونحوها [٢] كما جـاء في قـول الله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة آل عمران:١٩١] .

إن من أهم حواس الإنسان التي لها دور عظيم في اكتساب العلـم والمعرفـة حاسة السمع، يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعـالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ [سورة يونس:٦٧] : وَصْف "قوم" بأنهم "يَسۡمَعُونَ" إشارة إلى أن تلك الآيات

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٤٤٣

(٢) عبد الرحمن بن زيد الزبيدي : مرجع سابق ، ص : ٤٩٧

والدلائل تـنهض دلالتهـا للعقـول بالتأمـل فيهـا، وأنّ تَوَجُّـه التفكـير إلى دلائلها غير محتاج إلا إلى التنبيه عليها ولفته إليها، فلما كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها أو تفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون[1].

إن من العلم ما لا يحصل إلا بالسماع كالعلم بتفاصيل حالة النوم، حيث إن النائم لا يعرف من نومه إلا الاستعداد له وأنه كان نائما عندما يَهبُّ من نومه، أما حالة النائم في أثناء نومه ومقدار تَنَبُّهِه لمن يوقظه وشعوره بالأصوات التـي تقـع بقربه والأضواء التي تنتشر على بصره فتنبهـه أو لا تنبهـه - كـل ذلـك لا يتلقـاه النائم إلا بطريق الخبر من الذين يكونون أيقاظـا في وقـت نومـه، فطريـق العلـم بتفاصيل أحوال النائمين واختلافهـا هـو السـمع، فهـو أعـم الطـرق لمعرفتهـا، ولذلك قـال الله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[سورة الروم:٢٣] ، فـالنوم يحـول دون الشعور بالمسموعات قبل أن يحول دون الشعور بالمبصرات [2].

أما حاسة البصر فيرى ابن عاشور أهميتهـا في اكتسـاب العلـوم والمعـارف، حيث إن الاستدلال يقع بالنظر ؛ لأن إدراك ما خلقه الله حاصل بطريق البصرـ، فالاستدلال بالنظر أولى وأشهر لينتقل منـه إلى الإدراك [3]، كـما يقـول في تفسـير قولـه ﷻ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ... ﴾[سـورة الأنعـام:١٠٣] مبينا دور حاسة البصر: الأبصار جمع بصر، وهو اسم للقوة - التي بها النظر-

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص : ٢٢٨

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢١، بتصرف ، ص : ٧٧

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٠، ص : ٢٣٠

المنتشـرة في إنسان العين (أي ناظرهـا) الـذي في وسـط الحدقـة، وبـه إدراك المبصرات.. فالجارحة وسيلة للإدراك ؛ لأنها توصل الصورة إلى الحس المشـترك في الدماغ [1].

وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر، فالتقديم مؤذن بأهمية المقدم ؛ لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع تَرِدُ إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة [2].

وقد ربط ابن عاشور بين أدوات العلم والمعرفـة (العقـل والحـواس) وبـيّن أنواع العلوم والمعارف المكتسبة من خلالها، فيقول ابن عاشور في تفسير قول الله سبحانه وتعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سـورة النحـل:٧٨]: إن الطفـل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسه تنقل الأشياء تدريجا، فجعـل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكر .

ومعنـى قولـه تعـالى " شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ "، أي أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي كونها في الناس حتى بلغت مبلـغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة، فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٤١٤
(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٢٥٨

إذ بهما إدراك أهم الجزئيات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضرورية الحسية)، ثم ذكر بعدهما الأفئدة، أي العقل مقر الإدراك كله، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصورات المفردة (١) .

وللعقل إدراك آخر، وهو إدراك اقتران أحد المعلومين بالآخر، وهو التصديقات المنقسمة إلى البديهيات ككون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان وككون الكل أعظم من الجزء، وإلى النظريات وتسمى الكسبيات، وهي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التفريق، مثل أن يحضر في العقل أن الجسم ما هو، وأن المحدث – بفتح الدال – ما هو، فإن مجرد هذين التصورين في الذهن لا يكفي في جزم العقل بأن الجسم محدث، بل لا بد فيه من علوم أخرى سابقة، وهي ما يدل على المقارنة بين ماهية الجسمية وصفة الحدوث .

فالعلوم الكسبية لا يمكن اكتسابها إلا بواسطة العلوم البديهية، وحصول هذه العلوم البديهية إنما يحصل بحدوث تصور موضوعاتها وتصور محمولاتها، وحدوث هذه التصورات إنما هو بسبب إعانة الحواس على جزئياتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أول الحواس تحصيلا للتصورات (٢).

ج - الإلهام :

لا يمكن جعل العقل والحواس هما المصدران الوحيدان للمعرفة، بل هناك مصادر أخرى كالإلهام، ويطلق الإلهام إطلاقا خاصا على حدوث علم في النفس

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ٢٣٢ – ٢٣٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ٢٣٣

بدون تعليم ولا تجربة ولا تفكير، فهو علم يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانيا كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية، وما كان منه عن دليل كالتجريبيات والأمور الفكرية النظرية [1].

وإيثار الفعل ' ألهم ' في قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس٧ :٨] ؛ ليشمل جميع علوم الإنسان، والإلهام هو إيقاع الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملأ الأعلى، ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن يكن مما أحياه القرآن؛ لأنه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية .. أما إطلاق الإلهام على علم يحصل للنفس بدون مستند، فهو إطلاق اصطلاحي للصوفية [2].

إن للإلهام دور في اكتساب العلوم والمعارف وتطور الحضارة الإنسانية ونفعها؛ لذلك يرى ابن عاشور أن قوله تعالى : ﴿...وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل:٨] من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأن الآية إيماء إلى أن الله سيُلْهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى ' بسكلات' وأرتال السكك الحديدية والسيارات المُسَيّرة بمصفى النفط وتسمى أطوموبيل، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء، فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها، وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٣٦٩

(٢) المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ص : ٣٦٩ – ٣٧٠

بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلم الحضـارة واقتبـاس بعضهم من بعض حتى تمّ اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى ؛ لأن الكل من نعمته [1].

كما يرى أن الإرادة هي هداية الإلهام إلى كيفية استعمال ما قُدِّر من المقادير .. ولقد قدر الله تعالى الأشياء كلها فهداها إلى أداء وظائفها كما قُدر لها، قال تعـالى : ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [سورة الأعلى:٣] ، فالله تعالى لَمَّا قـدر للإنسـان أن يكـون قـابلا للنطق والعلم والصناعة بما وهبه من العقل وآلات الجسد ألهمه وهداه لاستعمال فكره لتحصيل ما خُلق له، ولمّـا قـدر البقـرة للـدَّر ألهمهـا الرعـي لِتَـدرَّ بـذلك للحالب، ولمّا قدر النحل لإنتاج العسل ألهمها أن ترعى النَّـوْر والـثمار، وألهمهـا بناء الجِبْح وخلاياه المسدسة التي تضع فيها العسل [2].

وقد ذكر أيضـا أن التسـوية الـواردة في قولـه تعـالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس٧ :٨] حاصلة من وقت تمام خلقـة الجنـين من أول أطوار الصبا، إذ التسوية تعديل الخلقة وإيجاد القوى الجسدية والعقليـة، ثم تزداد كيفية القوى فيحصل الإلهـام، كـما أن مـن آثـار تسـوية الـنفس إدراك العلوم الأولية والإدراك الضروري المـدرَّج ابتـداء مـن الانسـياق الجِـبِلِّي نحـو الأمور النافعة كطلب الرضيع الثدي أول مرة، ومنـه اتقـاء الضـار كـالفرار ممـا يكره، إلى أن يبلغ أول مراتب الاكتساب بالنظر العقلي، وكل ذلك إلهام [3].

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ١١١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٢٧٧

(٣) المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ص : ٣٦٩ – ٣٧٠

ومن الآيات المبينة لبعض أدوات اكتساب العلم والمعرفة كالبصر وآلة النطق والإلهام، قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد٨ :١٠] ، فالاقتصار على العينين ؛ لأنهما أنفع المشاعر، وذكر الشفتين مع اللسان ؛ لأن الإبانة تحصل بهما معا، فلا ينطق اللسان بدون الشفتين، ولا تنطق الشفتان بدون اللسان، فهما آلة النطق .

وأعقب ما به اكتساب العلم وما به الإبانة عن المعلومات بما يرشد الفكر إلى النظر والبحث، وذلك قوله : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد١٠] [1].

ويرى ابن عاشور أن هذه الأدوات يكون بها تمام أصول التعلم والتعليم، فالإنسان خلق محبا للمعرفة، محبا للتعريف بمشاعر الإدراك، يكتسب المشاهدات، وهي أصول المعلومات اليقينية، فالنطق يفيد الإنسان غيره بما يعلمه، وبالهدي إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها [2].

وقد استعيرت الهداية هنا للإلهام الذي جعله الله في الإنسان يدرك به الضار والنافع، وهو أصل التمدن الإنساني وأصل العلوم والهداية بدين الإسلام إلى ما فيه الفوز [3].

وتأكيدا على دور آلة النطق في تحصيل المعارف، فإن ابن عاشور يرى أن مبدأ تلقي المعرفة التي يكون بها التعليم هو تعليم النطق ووضع الأسماء للمسميات، فالله تعالى خلق الإنسان خيرا، أي سالما من الشرور والخواطر الشريرة على صفة مَلَكية، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين:٤] ، ثم جعله أطوارا، وأولها طور تعليمه النطق ووضع الأسماء

(١) المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ص : ٣٥٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، بتصرف ، ص : ٣٥٤

(٣) المصدر السابق ، ج ٣٠ ، ص : ٣٥٥

للمسميات ؛ لأن ذلك مبدأ المعرفة وبه يكون التعليم، أي يعلم بعض أفراده بعضا مما علمه وجهله الآخر، فكان إلهامه اللغة مبدأ حركة الفكر الإنساني، وهو مبدأ صالح للخير ومعين عليه ؛ لأن به عَلَّم الناس بعضهم بعضا ؛ ولذلك ترى الصبي يرى الشيء فيسرع إلى قرنائه يناديهم ليروه معه حرصا على إفادتهم، فكان الإنسان معلما بالطبع وكان ذلك معينا على خيريته، وما كان كذلك إلا لأنه صالح لاستعمال النطق [1].

رابعا: أهم أساليب التربية وطرق التعليم والتعلم :

إن من نعم الله تعالى علينا نعمة التعليم والإرشاد وإيضاح الحقائق حتى تكمل العقول ويتبين ما فيه الصلاح، فهذا من دلائل عنايته تعالى بالمؤمنين وتثقيف عقولهم وقلوبهم بأنوار المعارف الإلهية، ويكون هذا بآيات القرآن، فإنها غاية في الإفصاح عن المقاصد وإبلاغ المعاني إلى الأذهان [2].

ويرى ابن عاشور أن شأن التعليم الصالح أن يضبط للمتعلم قواعد وأساليب تبلغ به إلى الثمرة المطلوبة من المعارف التي يزاولها، وضرب مثلا بمعلم التربية الرياضية البدنية، فهو يضبط للمتعلم كيفيات من الحركات بأعضائه وتطور قامته انتصابا وركوعا وقرفصاء، بعض ذلك يثمر قوة عضلاته، وبعضها يثمر اعتدال الدورة الدموية، وبعضها يثمر وظائف شرايينه، وهذه كيفيات حددها أهل تلك المعرفة وأرادوا بها حصول الثمرة المطلوبة، ولو وُكِّل ذلك للطالبين لذهبت أوقات طويلة في التجارب وتعددت الكيفيات بتعدد أفهام الطالبين واختيارهم [3].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤٣٦

(٢) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج٤ ، بتصرف ، ص : ٣٦**

(٣) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج٢** ، ص: ١٦١

وعلى ذلك فإن من أهم سمات المعلم المهنية تعدد أساليب التربية والتعليم لديه، واستعمالها وفقا للموقف التعليمي المناسب، يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سورة الأنعام:٧٤] ومباشرته إياه بهذا القول الغليظ كانت في بعض مجادلاته لأبيه بعد أن تقدم له بالدعوة بالرفق، كما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم٤٢ :٤٣] ، فلما رأى تصميمه على الكفر سلك معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعل بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض، فإن للنفوس مسالك ولِمَجال أنظارها ميادين متفاوتة، ولذلك قال الله ﷻ لرسوله الكريم : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل:١٢٥]، وقال له في موضع آخر: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾[سورة التوبة:٧٣] (١).

وقد أفاض ابن عاشور في ذكر أساليب التربية وطرق التعليم والتعلم المستنبطة من القرآن الكريم، والتي تراعي الجوانب العقدية والنفسية والبدنية والعقلية والاجتماعية، **وأهمها** :

أ - الحوار والمجادلة الحسنة :

إن تقديم العلوم والمعارف للمتعلمين بأسلوب الحفظ والإلقاء لا يجعل للمتعلم أي مشاركة إيجابية في عملية تعلمه، بالرغم من أنه هو المخرج والعنصر الأساسي والأهم في العملية التعليمية بأثرها، أي هو موضوع العملية التعليمية .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٣١٤ - ٣١٥

والقاعدة الأساسية في التعليم هي أن التعليم لا يكون إلا لما فُهِم وتم الاقتناع به، وقد يفهم الإنسان أمرا ولكن لا يقتنع به، فإذا كان الفهم سبيلا للتعلم فإن اقترانه بالاقتناع يزيد التعلم رسوخا سواء في التلقي والاحتفاظ أو التذكر والعمل به (1)، ولا يتم الاقتناع إلا بالجدل والحوار، وهذا يتناسب مع فطرة الإنسان وطبيعته، فقال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف:٥٤].

وقد جعل ابن عاشور أن من أسباب تأخر العلم والعلوم تعويد النفوس على قبول ما لا يفهم والاقتناع به، فبعض الكتب بها رموزا ومغلقات ودعاوى لا دليل عليها تعلّم الناس سماع ما لا يفهم والاقتناع بكل ما يسمع(2).

إن الحوار هو المظلة الكبيرة التي انضوت تحتها صور وأشكال متعددة لتنمية الفكر وإثارة العقل سواء عن طريق استخدام القياس أو السؤال(3).

والحوار هو محادثة بين اثنين أو أكثر، ولابد أن يكون وفق ضوابط وقواعد يجب مراعاتها (4)، وقد عرف ابن عاشور المحاورة بأنها مراجعة الكلام بين متكلمين (5)

---

(١) **سعيد إسماعيل علي :** القرآن الكريم رؤية تربوية ، **ط١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص : ٣٥٩**

(٢) **ابن عاشور :** أليس الصبح بقريب ، **مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ١٥٧**

(٣) **سعيد إسماعيل علي :** السنة النبوية رؤية تربوية ، **ط١ ، دارالفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص : ٤٠٩**

(٤) **علي بن عوض الغامدي :** أساليب التربية العلاجية لأخطاء الطفل في السنة النبوية وتطبيقاتها ، **رسالة ماجستير ، ١٤٣٠ هـ ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، ص : ١٧٣**

(٥) **ابن عاشور :** التحرير والتنوير ، **ج١٥، ص : ٣١٩**

كما عرف الجدل في مواضع كثيرة، فقال : الجدل هو القدرة على الخصام والحجة فيه، ومنازعة بالقول لإقناع الغير برأيك، أو هو إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره (١).

وبيّن أن الإنسان مفطور عليه، أي أن كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله (٢)، قال الله تعالى : ﴿... وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [سورة الكهف:٥٤].

ويرى ابن عاشور أن الجدل خُلُق، وأن له نوعين، أحدهما الجدل الذميم الذي يصدُّ عنه تأديب الإسلام ويبقى في خلق المشركين وهو جدال المكابرة والتعصب وترويج الباطل والخطأ، والآخر الجدل المحمود كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [سورة هود:٧٤] ، فأشار بالثناء على إبراهيم إلى أن جداله محمود (٣).

إن الجدال والحوار يستلزم حرية الرأي والتعبير عنه، كما يستلزم قدرة عقلية على الإقناع، وهذا يتنافى مع الإكراه، ويرى الإمام ابن عاشور أن المراد من قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ...﴾ [سورة البقرة:٢٥٦] نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، فلا يمكن إكراه أحد على اتباع الإسلام قسرا، والآية دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه ؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال والتمكن من النظر وبالاختيار (٤).

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج٥ ، ص : ١٩٤ ، ج٢١ ، ص : ٥

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج١٥ ، ص : ٣٤٩

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٣ ، ص : ٣٤ ، ج١٥ ، ص : ٣٤٧.

(٤) المصدر السابق ، ج٣ ، ص : ٢٦.

إن الإسلام الحنيف لا يحجر على حرية أحد في بيان رأيه ما دام منضبطا، أما منع قول الرأي والحق هذا من شأن دعاة الضلال والباطل كما يرى ابن عاشور، فهم يكمون أفواه الناطقين بالحق والحجة بما يستطيعون من تخويف وتسويل وترهيب وترغيب ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة ويتراجعون بالأدلة ؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلهم يتغلبون بذلك على حجج الحق ويغمرون القول الصالح باللغو [1]

وإذا قام الحوار والمجادلة الحسنة على أسس علمية صحيحة وآداب وضوابط معينة يكون لها الأثر الأكبر في تنمية أفكار المتعلم، حيث تشجعه على التفكير المنطقي أو التفكير الناقد والإبداعي، كما أنها تساعده على التواصل الفكري والاجتماعي مع الآخرين دون سأم أو كره لشيء، كما أنها تعمل على استثارة وجدان المتعلم وتجعله مشارك في عملية تعلمه وبالتالي يكون مسئولا عنها، **كما أن المجتمعات تحتاج إلي الحوار باعتباره** [2]:

- وسيلة من وسائل الدعوة والإصلاح .
- يدعم أواصر التعاون والتلاحم .
- يستخدم في غرس القيم الصحيحة .

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ٢٤، ص : ٢٧٧.**

(٢) **علي بن عوض الغامدي** : أساليب التربية العلاجية لأخطاء الطفل في السنة النبوية وتطبيقاتها ، **مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ١٧٦**

- يستخدم في الوصول للحق وكشف الباطل .

ولقد أفاض ابن عاشور في بيان دور الحكمة والموعظة والجدل في التربية والدعوة إلى الله، مع بيان العلاقة بين الثلاثة من خلال تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [سورة النحل:١٢٥]، حيث قال: إن الدعوة إلى سبيل الله تتطلب خصلتين عظيمتين، هما: الحكمة، والموعظة الحسنة .

والمجادلة لما كانت محاجة في فعل أو رأي لقصد الإقناع بوجه الحق فيه فهي لا تعدو أن تكون من الحكمة أو من الموعظة، ولكنها جعلت قسيما لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي إليها [1].

والآية تقتضي أن القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة، وأن الرسول - ﷺ - إذا دعا الناس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة، وذلك كله بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصة وعامة [2].

ولما كان الجدل والحوار مرتبطا بالاستدلال، فقد ذكر ابن عاشور أصول الاستدلال العقلي الحق، وهي البرهان، والخطابة، والجدل المعبر عنها في علم المنطق بالصناعات، أما السفسطة والشعر فيربأ عنهما الحكماء الصادقون بله الأنبياء والمرسلين .. **فظهر انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة :**

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج١٤، ص : ٣٢٧ ، ٣٢٩

(٢) المصدر السابق ، ج١٤، ص : ٣٣٠

أولها: الحجة المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمى بالحكمة، **وثانيها** : الأمارات الظنية وهي الموعظة الحسنة، **وثالثها**: الدلائل التي القصد منها إفحام الخصم وذلك هو الجدل، وهو على قسمين ؛ لأنه إما أن يكون مركبا من مقدمات مُسَلَّمة عند الجمهور وهو الجدل الواقع على الوجه الأحسن، وإما أن يكون مركبا من مقدمات باطلة يحاول قائلها ترويجها على المستمعين بالحيل الباطلة، وهذا هو المدعو في المنطق بالسفسطة فإلى الحكمة ترجع صناعة البرهان؛ لأنه يتألف من المقدمات اليقينية، وهي حقائق ثابتة تقتضي حصول معرفة الأشياء على ما هي عليه، وإلى الموعظة ترجع صناعة الخطابة ؛ لأن الخطابة تتألف من مقدمات ظنية ؛ لأنها مراعى فيها ما يغلب عند أهل العقول المعتادة، وأما الجدل فهو ما يورد في المناظرات والحجاج من الأدلة المسلّمة بين المتحاجين أو من الأدلة المشهورة، فأطلق اسم الجدل على الاستدلال الذي يروّج في خصوص المجادلة، ولا يلتحق بمرتبة الحكمة(١).

كما أن هذا الأسلوب 'المجادلة والحوار' يستعمل في مواقف كثيرة ومتنوعة، فقد رأى ابن عاشور جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقائد والقرآن مملوء بذلك(٢).

وقد رأى أيضا أن من مقدمات المجادلة بالتي هي أحسن ما يسمى تحرير محل النزاع وتقريب شقة الخلاف، وهو أن يقال قد اتفقنا على كذا وكذا فلنحتج على ما عدا ذلك، فما اتفق عليه الفريقان ينبغي أن يكون هو السبيل إلى الوفاق،

---

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، ج١٤، ص : ٣٣١- ٣٣٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ٣٣- ٣٤

وليس هو بداخل في حيز المجادلة؛ لأن المجادلة تقع في موضع الاختلاف [1]، ويُعَدّ تحرير محل النزاع من ضوابط طريقة المجادلة والمناظرة .

وللجدل والحوار آداب في القرآن الكريم، منها [2]:

- أن يكون الجدل أو الحوار قائما على علم ومعرفة لا عن جهل، قال الله ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [سورة الحج:٨] ، يقول ابن عاشور : إنهم فريق من الناس يجادل في الله بغير علم وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الباطل .
- أن يكون الجدل بالتي هي أحسن، فقال الله تعالى: ﴿... وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾ [سورة النحل:١٢٥].
- أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل، وقد نهى القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجادل من ليس على الحق، فقال الله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [سورة النساء:١٠٩] .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢١، ص : ٧

(٢) راجع كلا من :

- **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج١٧، ص : ٢٠٦**
- **سعيد إسماعيل علي** : أصول التربية الإسلامية ، **مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ١٤٧**
- **محمد وجيه الصاوي : الرؤية الكلية الإسلامية للحوار مع الآخر** ، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة ، بعنوان (الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية) ، **من ١٣ – ١٤، أبريل ٢٠٠٨م ، ص : ٩٠ – ٩١** .

- الإيمان بوجود الطرف الآخر والتعرف عليه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحُجُرات:١٣].

إن أسلوب الحوار والجدال باعتباره أسلوبا تربويا يعتمد على الاستدلال والإقناع فإنه يستعمل مع الجميع من المسلمين وغيرهم، وشرطه المجادلة بالحسنى، وقد رأى ابن عاشور أن وجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ ...﴾ [سورة العنكبوت:٤٦] هو أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به، فهم متأهلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة؛ ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة، فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ؛ حذرا من تنفيرهم، بخلاف المشركين فقد ظهر من تصلبهم وصلفهم وجلافتهم ما أيْأَس من إقناعهم بالحجة النظرية وتعيَّن أن يعاملوا بالغلظة وأن يبالغ في تهجين دينهم وتفظيع طريقتهم؛ لأن ذلك أقرب نجوعا لهم (١).

ب - الرحلات التعليمية:

إن أسلوب الرحلات التعليمية ليس حديثا، ولكنه أسلوب قديم كان أسلافنا يتبعونه في طلب العلم، فكانوا يشدون رحالهم إلى كثير من العلماء في كافة المجالات في بلدان كثيرة لينهلوا من معينهم.

---

(١) **ابن عاشور**: التحرير والتنوير، ج٢١، ص: ٦

وقد أقرّ القرآن الكريم النشاط التعليمي المخطط له باعتباره جزءاً متكاملاً من عملية التعليم والتعلم الذي يقوم به المتعلم تحت إشراف المعلم في البيئة الخارجية (١)، وهذا الأسلوب يسميه علماء التربية الرحلات التعليمية أو الزيارات الميدانية

ويتضح هذا الأسلوب جلياً في قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [سورة الكهف:٦٠] إلى قوله تعالى: ﴿... ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [سورة الكهف:٨٢] ، حيث خطط للرحلة بحمل الطعام والرفيق، وحدد مكان لقاء المعلم ومواصفاته، والقصة معلومة لنا جميعاً (٢) .

وقد ورد الحث على النفر للتفقه وطلب العلم في قول الله ﷻ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة التوبة:١٢٢] .

يقول ابن عاشور في تفسير الآية السابقة : وقد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقَّب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة إعداد المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في

(١) نظمي خليل أبو العطا : من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، متاح بتاريخ ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٧م على الموقع التالي : http://www.nazme.net/ar/index

(٢) نظمي خليل أبو العطا ، الموقع السابق .

سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان .

وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرضت فريقا من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله – ﷺ – في الغزو لمصلحة نشر الإسلام ناسب أن يذكر عقبها نفر فريق من المؤمنين إلى رسول الله – ﷺ – للتفقه في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام (١).

ولذلك كانت هذه الآية أصلا في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبا على الكفاية لتحصيل المقصد من ذلك الوجوب (٢).

إن الترحل له أغراض متعددة، منها السعي في الأرض طلبا للعمل والرزق، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[سورة المُلك:١٥]، فَخَلْقُ الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان، إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها، فالله خلق الأرض التي هم عليها مع المنَّة بأنه خلقها هيِّنة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم (٣) .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص : ٥٩

(٢) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص : ٦١

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٩ ، ص : ٣١

ومن أغراض الرحلة أيضا، التأمل وأخذ العبرة والعظة والخبرات والمعارف، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة الأنعام:١١] ، فهذا أمر بالتنقل في ديار أولئك القرون الذين مكّنهم الله في الأرض، ثم النظر في أثناء كل رحلة إلى آثار ما حلّ بهم من الهلاك، والتأمل كيف كانت عاقبتهم بما يُشاهد من آثارهم وما يُسمع من أخبارهم (١).

وقد يكون الترحل لأجل الخروج من البلد الذي يُفتن فيه المؤمن في دينه أو البلد الذي تكثر فيه البدع والمنكرات (٢)، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة النساء:٩٧] .

وقد ذكر ابن عاشور الهجرة للمحافظة على الدين في تفسير قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النحل:١١٠] ، فالمراد بـ " الذين هاجروا " المهاجرون إلى الحبشة الذين أذن لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بالهجرة للتخلص من أذى المشركين، وهذا الاسم ' الهجرة ' في مصطلح القرآن يدل على مفارقة الوطن لأجل المحافظة على الدين (٣).

---

(١) محمد رشيد رضا : **تفسير المنار** ، مصدر سابق ، ج٧، ص : ٢٦٨

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٥ ، ص : ١٧٩ – ١٨٩

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص: ٢٩٩

إن أسلوب الرحلة للبلدان الأخرى - سواء كان الغرض العمل وطلب الرزق أو التأمل والعبرة أو الخوف من الفتنة في الدين - يكسب الإنسان الخبرات والمعارف المتعددة من خلال احتكاكه بالآخرين في كافة المجالات والأغراض، كما أنه - من خلال هذا الأسلوب - يمكن للإنسان إذا رحل لمكان آخر أن يفيد غيره بخبراته وعلمه أو العمل على نشر الدين الإسلامي الحنيف، كما حدث من بعض تجار المسلمين في عصور سابقة عندما نشروا الدين الإسلامي في بلدان كثيرة ؛ بسبب المعاملة الإسلامية الصحيحة والقدوة الحسنة.

ولقد ورد عن النبي – ﷺ – أحاديث كثيرة تدل على فضل طلب العلم وشد الرحال إلى العلماء، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:"من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع "[1].

ج – التر بية بالطاعة والعبادة :

يعيش الإنسان المؤمن في الدنيا لا لأنها الغاية المرجوة، ولكنها سبيل للآخرة، أما من غرتهم الدنيا وكانت غايتهم منها هي الحياة فيها لا ما يكتسب فيها من الخبرات التي تكون بها سعادة الحياة في الآخرة- فقد أوهمتهم أن لا حياة بعدها: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[سورة الأنعام:٢٩][2].

ولكي يصل الإنسان المؤمن إلى الآخرة رابحا كان لازاما عليه طاعة ربه – سبحانه وتعالى – وطاعة رسوله ﷺ، ولقد أشار ابن عاشور لمعنى الطاعة بأنها كلمة يدلون

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب العلم ، باب فضل طلب العلم، رقم(٢٦٤٧).

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٢٩٦

بها على الامتثال [1]، كما تدل على الاطمئنان واليقين، قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[سورة الرعد:٢٨]، أما المعصية فهي تردد واضطراب [2].

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بطاعته وطاعة نبيه ﷺ، فالإيمان الكامل مرتبط بتحقيق طاعتهما ؛ لذا تربط الآيات القرآنية بين الإيمان والطاعة، ومن هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [سورة الأنفال:٢٠] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾[سورة النور٥١ :٥٢] .

وطاعة الله ورسوله تعنى طاعة الشريعة، فإن الله هو منزل الشريعة ورسوله مبلغها والحاكم بها في حضرته، فهو منفذ أمر الله بنفسه، فطاعته طاعة تلق وامتثال، بخلاف أولي الأمر فإنهم منفذون لما بلَّغه الرسول، فطاعتهم طاعة امتثال خاصة، ولذلك كانوا إذا أمرهم بعمل في غير أمور التشريع يسألونه أهذا أمر أم رأي ؟ [3]، قال الله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة النساء:٨٠] .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١٣٥

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص : ٢٣

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ٩٦ – ٩٧

وإذا كان للطاعة القيمة الإيمانية والسلوكية والأخلاقية لدى الإنسان باتباع ما أمر به الله تعالى والانتهاء عما نهى عنه - فقد كرمه الله ﷻ أعظم وأجلّ تكريم، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة النساء:٦٩]، فقد دلت كلمة "مع" على أن مكانة مدخولها أرسخ وأعرف [1]، وفي الحديث الصحيح " أنت مع من أحببت "[2].

فطاعة المؤمن لربه ورسوله هي خير وبركة عليه، في إيمانه، وفكره، وعمله، وقوله، وفى جوانب حياته المختلفة، فهي دائما تقوِّم الإنسان المؤمن وتوجهه إلى ما يرضي الله ورسوله .

وقد حدد الله تعالى جزاء كل من المطيع والعاصي، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [سورة النساء١٣ :١٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأحزاب:٣٦].

إن من جوانب الطاعة آداء العبادات المختلفة من صلاة وزكاة وحج وصوم.. وهذه العبادات لما كانت تُصَنَّف ضمنا في المجال السلوكي للموجهات

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١١٦

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم (٣٤٨٥)

الإسلامية فإن تربية الفرد عليها تعد تدريبا سلوكيا، فضلا عن ذلك فإن ارتباط العديد من السلوكيات البيئية بعبادات الإسلام وشعائره يجعل من التربية على العبادات تدريبا بيئيا في نفس الوقت [1].

وهذا يتطلب التفكير في العبادة، ويكون بتعليم المسلمين أن العبادات كلها تعود عليهم بالخير عاجلا وآجلا، ولا تعود على المعبود بنفع ولا ضر [2]،قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾[سورة الذاريات٥٦ :٥٧].

وهذا يعني أن الإسلام ربط بين العبادات وتعديل السلوك، والعبادات روافد متعددة، لكنها تصب في مصب واحد عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢١] [3].

فكل عبادة من العبادات تبني جانبا من جوانب شخصية الإنسان – المادية والمعنوية – فالصلاة نشاط إنساني يومي يَصِل المسلم بخالقه، ويجدد هذه الصلة خمس مرات كل أربع وعشرين ساعة، ويرتبط هذا النشاط بتكوين عادات حسنة عند المسلم منذ طفولته، ومنها التعود على النظافة وطهارة الثوب والمكان والبدن وتربية المسئولية نحو الجماعة، والصوم إذ يدرب الصائم على الثورة في نفسه وفي

(١) محمد السيد أرناؤوط : **الإسلام والتربية البيئية**، ط١، دار الأمل، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص: ١٧٤

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص : ٥٨

(٣) سعيد إسماعيل علي : **أصول التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص : ١٤٦، وانظر أيضا : نظمي خليل أبو العطا : **من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة**، موقع سبق ذكره

أسلوب حياته، فإنه بذلك يربيه على الثورة على ضغط يرهقه أو هوان يلحقه أو مذلة تراد به أو فساد يجري في مجتمعه أو وطنه، والزكاة تطهير للنفس وللمال وتزكية لهما، فالمال الطاهر المزكى ينمو باستمرار ويجعل الله فيه البركة ويحفظه من التلف ويبعد عنه الآفات، وهو سبحانه يعوضه أضعافا مضاعفة (١).

وقد أوضح ابن عاشور الآثار التربوية الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية للصلاة، والتي بها يكون صلاح الفرد والمجتمع، من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[سورة العنكبوت:٤٥]، فقال: كان الأمر بإقامة الصلاة؛ لأن الصلاة عمل عظيم، وهذا الأمر يشمل الأمة، وتعليل الأمر بإقامة الصلاة هو الإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني، لذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾[سورة العنكبوت: ٤٥] ، ولا شك أن هذا التعليل موجه إلى الأمة، والصلاة تشتمل على مذكرات بالله من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالى (٢).

ففي الصلاة من الأقوال تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكّر بمرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه،

---

(١) سعيد إسماعيل علي : **القرآن الكريم رؤية تربوية** ، مرجع سابق ، ص : ٣٤٤، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٠ ، ص : ٢٥٨- ٢٥٩

فذلك صدٌّ عن الفحشاء والمنكر، وفي الصلاة أفعال هي خضوع وتـذلل لله تعالى من قيام وركوع وسجود، وذلك يذكر بلزوم اجـتلاب مرضـاته والتباعـد عن سخطه، وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء والمنكر .

وفي الصلاة أعمال قلبية من نية واسـتعداد للوقـوف بـين يـدي الله، وذلـك يذكر بأن المعبـود جـدير بـأن تُمْتَثـل أوامـره وتُجتنـب نواهيـه، فكانـت الصـلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشـاء والمنكـر، وحكمـة جعـل الصـلوات موزعة على أوقات من النهار والليل لكـي يتجـدد التـذكير وتتعاقـب المـواعظ، وبمقدار تكرر ذلـك تـزداد خـواطر التقـوى في النفـوس وتتباعـد الـنفس مـن العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها (١).

إن المقصود من الصلاة العبادة والخضوع لله تعالى، وبمقدار استحضار المعبود يقوى الخضوع له فتترتب عليه آثاره الطيبة في إخلاص العبد لربه وإقباله على عبادته وذلك ملاك الامتثال والاجتناب (٢)، ولهذا جاء في الحديث الصحيح " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "(٣).

وبجانب ذلك ففي الصلاة سرا إلهيا ناشئا عن تجلي الرضوان الرباني على المصلي وهو تجلية الأحزان وكشف غم النفس، وقد ورد في الحديث أن النبي- ﷺ - كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة (٤)، وهذا أمر يجده من راقبه من المصلين

---

(١) المصدر السابق، ج٢٠ ، ص : ٢٥٩- ٢٦٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ٣٠

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، رقم (٥٠) .

(٤) رواه أبو داود في سننه من حديث حذيفة بن اليمان ، حديث رقم (١٣١٩) .

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥] ، فهي تجمع ضروبا من العبادات، وهو طريق بديع من طرق الترغيب (١).

أما الزكاة فيرى ابن عاشور أنها قد فرضت في ابتداء الإسلام مع فرض الصلاة أو بعده بقليل ؛ لأن افتراضها ضروري لإقامة أود الفقراء من المسلمين، فمن الضروري أن يسدّ أهل الجدة والقوة من المسلمين حاجتهم، كما أن الزكاة والصدقات تطهر وتزكي، وأنها كفارة للذنوب ومجلبة للثواب العظيم (٢).

أما عن فريضة الحج يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [سورة الحج٢٧: ٢٨] إن أهم المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب، وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.

والمنافع هي المصالح الدينية والدنيوية ؛ لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس ولأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحا في الدنيا بالتعارف والتعامل، وخص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وذلك هو النحر والذبح للهدايا،

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١، ص: ٤٧٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص : ١٢١ ، ج ١١ ، ص : ٢٢– ٢٣

وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها، وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم (1).

أما الصوم فقد حصر ابن عاشور فوائده العظيمة، حيث رأى أن حكم الصيام حكم عظيم من الأحكام التي شرعها الله تعالى للأمة، وهو من العبادات الرامية إلى تزكية النفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فردا فردا، إذ منها يتكون المجتمع (2).

ولقد ذكرت الحكمة من الصيام أيضا في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٨٣]، والتقوى الشرعية هي اتقاء المعاصي، وإنما كان الصيام موجبا لاتقاء المعاصي ؛ لأن المعاصي قسمان ؛ قسم ينجع في تركه التفكر كالخمر والميسر والسرقة والغصب، فتركه يحصل بالوعد على تركه والوعيد على فعله والموعظة بأحوال الغير، وقسم ينشأ من دواع طبيعية كالأمور الناشئة عن الغضب وعن الشهوة الطبيعية التي قد يصعب تركها بمجرد التفكر، فجعل الصيام وسيلة لاتقائها ؛ لأنه يعدل القوى الطبيعية التي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية (3)، وبذلك يحصل للإنسان دُرْبَة واعتياد على ترك شهواته

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٧، ص : ٢٤٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ١٥٤

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص : ١٥٩

فيتأهل للتخلق بالكمال، فإن الحائل بينه وبين الكمالات والفضائل هو ضعف التحمل للانصراف عن هواه وشهواته (١).

وكل هذا يتطلب المداومة على آداء العبادات الذي يعد أساس الطاعة، يقول ابن عاشور : " إن الأمر بالصلاة والزكاة أمر بالثبات على الإسلام، فهما ركناه، والأمر بهما يستلزم الدوام " (٢) .

ومن يقرأ في سنة النبي المصطفى – ﷺ – يجده قد علّم أتباعه بمداومة الطاعة، فسنّ – ﷺ- منهج الدعاء والتسبيح في كل حياة المسلم، حيث علمهم دعاء النوم ودعاء الاستيقاظ منه، ودعاء دخول الخلاء ودعاء الخروج منه ودعاء الخروج من البيت ودعاء الدخول إليه، ودعاء ركوب الدابة، ودعاء الطعام واللبس .. وهذه المداومة من الوسائل والطرائق المهمة في ربط المتربي المسلم بالمنهج الإيماني وتعديل السلوك (٣).

ويتطلب هذا الأسلوب من المربين أن يقوموا بتوجيه المتربين إلى مكانة العبادات في الإسلام وتبصرتهم بها وتشجيعهم على الالتزام بهذه العبادات وتدريبهم عليها وإتاحة الوقت المناسب لها في خطط البرامج التعليمية والتربوية(٤).

د ـ أسلوب الموعظة الحسنة :

تتأثر النفس الإنسانية بما يلقى إليها من كلام، لذا كانت الموعظة الحسنة من الوسائل التي تصل إلى النفس وتحرك الوجدان، ولقد كان أثر الواعظين

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص : ١٥٩ – ١٦٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٦٧٢

(٣) نظمي خليل أبو العطا: **من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة** ، موقع سابق

(٤) محمد السيد أرناؤوط : **الإسلام والتربية البيئية** ، مرجع سابق ، ص : ١٧٥

والخطباء عظيما في تعليم أقوامهم [1]، ولقد ذكر ابن عاشور في تفسيره أن من أهم المقاصد الأصلية للقرآن الكريم المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير [2].

ويعرِّف ابن عاشور الوعظ بأنه الأمر بفعل الخير وترك الشر بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان على الامتثال [3].

ويعرِّف الموعظة أيضا بأنها القول الذي يلين نفس المقول له لعمل الخير، وهي أخص من الحكمة ؛ لأنها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها، ووصفها بالحسن تحريض على أن تكون لينة مقبولة عند الناس [4].

إن هذا الأسلوب يعد من أهم وأعظم طرق تبليغ ونشر رسالة الرسل، فقال ﷻ : ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [سورة طه٤٣ :٤٤] ، والقول اللين هو الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله، ويستعار اللين لسهولة المعاملة والصفح، وهو من شعار الدعوة إلى الحق، قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ....﴾[سورة النحل:١٢٥]

---

(١) مصطفى كامل : **هذا هو منهج الإسلام في التربية** ، ط١ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص : ٦٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤١

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١٠٨

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ٣٢٧

ومن اللين في دعوة موسى – عليه السلام – لفرعون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النازعات١٧ :١٩] ، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى، فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه (١)، وقيل : أمرهما باللطافة في القول لما له من حق التربية، وقد قرأ رجل عند يحيى بن معاذ هذه الآية ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ فبكى يحيى وقال : إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله ؟ (٢).

وقد ذكرت مادة الوعظ في آيات كثيرة أخرى، منها قوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ...﴾ [سورة النحل:١٢٥]، وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ...﴾ [سورة سبأ:٤٦] ، يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية مبينا معنى الوعظ ورسالته التي يؤديها: الوعظ كلام فيه تحذير من مكروه وترغيب في ضده، والقيام في قوله " أن تقوموا " مراد به التأهب للعمل والاجتهاد فيه (٣).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٦، ص : ٢٢٥ – ٢٢٦

(٢) الحسين البغوي : **تفسير البغوي (معالم التنزيل)** ، حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله النمر ،عثمان جمعة ، سليمان مسلم الحرش ، ج٥ ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٧م ، ص : ٢٧٤ – ٢٧٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٢، ص : ٢٣٢

إن المواعظ تشمل أمور الدين والدنيا، فكل أمر خير يفيد الإنسان في حياته وآخرته يكون أساسا للموعظة، وأحيانا تكون الموعظة بالنهي والبعد عن الشرور، ولكي تؤتي الموعظة أكلها لابد من توافر ضوابط معينة في الواعظ والمتلقي للموعظة، وأهمها توافر العاطفة الصادقة لدى الواعظ عند تقديم موعظته، وانشراح صدر المتلقي للموعظة بقبوله لها وتفاعله مع الواعظ .

وخير مثال على الموعظة التي تفيد الإنسان في حياته وآخرته، موعظة لقمان لابنه، فقال الله ﷻ:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[سورة لقمان:١٣]،إلى قوله تعالى:﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[سورة لقمان:١٩].

ولنا أن ندرك مدى صدق العاطفة لدى لقمان وهو يعظ ابنه من خلال قوله: " يَٰبُنَىَّ " فهي كلمة مصغرة لغرض التدليل والعطف والرحمة والحب .

ومن أمثلة الموعظة التي فيها معنى النهي، قوله تعالى:﴿... إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة هود:٤٦]، أي أنهاك أن تكون من زمرة الجاهلين الذين يسألون أن يبطل الله تعالى تشريعه أو حكمته وتقديره في خلقه إجابة لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم ومحبيهم [١]، وعلى كل الوجوه فهي موعظة على ترك التثبت قبل الإقدام [٢].

---

(١) محمد رشيد رضا : **تفسير المنار** ، مصدر سابق ، ج ١٢ ، ص : ٧٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص : ٨٧

وقد تعددت الآيات القرآنية التي اتخذت من الموعظة الحسنة والقدوة أسلوباً لتعديل سلوك المتربي أو المتعلم نحو الأفضل[1]،قال تعالى: ﴿...وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾[سورة النساء:٣٤]، وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ [سورة آل عمران:١٤] ، والقصد من هذا عظة المسلمين ألا يغتروا بحال الذين كفروا فتعجبهم زينة الدنيا وتلهيهم عن التهمم بما به الفوز في الآخرة، فإن التحذير من الغايات يستدعي التحذير من البدايات، وقد صدر هذا الوعظ والتأديب ببيان مدخل هذه الحالة إلى النفوس، حتى يكونوا على أشد الحذر منها [2].

إن بعض القلوب القاسية لا يلينها إلا المواعظ بما في كتاب الله تعالى وسنة نبيه-ﷺ- حيث قال الله عن تأثير القرآن على الجبال: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ...﴾ [سورة الحشر:٢١] [3].

ولذلك رأى ابن عاشور أن الاستمرار على الموعظة يُؤَثِّر بتكرارها، فالوعّاظ والمصلحين فريقان، فريق أَيِس من نجاح الموعظة، وفريق لم ينقطع

(١) نظمي خليل أبو العطا : **من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة**، موقع سابق

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٧٨

(٣) خالد بن حامد الحازمي: **أصول التربية الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص:٣٩٧ .

رجاؤه من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار [1]، فليكن المربون والمعلمـون مع مريديهم وطلابهم من الفريق الثاني، الذي لا يَمَلُّ تكرار الموعظة .

ولكن المواعظ قد تحتاج إلى تهيئة لتلقيها، وهذا ما ذكره ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [سورة الانفطار٦ :٨] ، حيث ذكر أن ما قبل ذلك هو بمنزلة المقدمة له لتهيئة السامع لتلقي هذه الموعظة ؛ لأن ما سبقه من التهويل والإنذار يهيئ النفس لقبول الموعظة، إذ الموعظة تكون أشد تغلغلا في القلب حينئذ لما يشعر به السامع من انكسار نفسه ورقة قلبه، فيزول عنه طغيان المكابرة والعناد فيخطر في النفوس ترقب شيء بعد ذلك، وليس النداء في هذه الآية موجها لشخص معين أو جماعة معينة، بل مثله يجعله المتكلم موجها لكل من يسمعه بقصد أو بغير قصد [2].

ولأهمية الموعظة الحسنة وتأثيرها الإيجابي في تغيير حياة المسلم وإقناعه بما يفيده كان الرسول - ﷺ - يتبعها في تبليغ ونشر الدعوة وتعليم أصحابه ونصحهم ، بل والأمة كلها ، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : "كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا " [3].

---

(١) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ١٠، بتصرف ، ص : ١٥٢**

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ١٧٣

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب الموعظة ساعة بعد ساعة ، رقم (٦٠٤٨)

هـ - أسلوب القصة :

القصة من أنجح الوسائل في التربية ؛ لأنها تـؤثر في الوجـدان تـأثيرا قويـا، وتجعل الخيال ينتقل مع مشاهد القصة ويتعقـب مواقفهـا مـن موقـف لآخـر[1]، فالقصة في المجـال التربـوي تـؤدي وظيفـة سـامية وتحقـق كثـيرا مـن الغايـات التعليمية المنشودة وخاصة في مجال تعليم اللغة وفنونها [2].

والإسلام باستخدامه للقصة في التربية والتوجيه لا يُحَـرِّم الفـن، ولا يحـرم وصف المشاعر ولا وصف لحظات الهبوط والضعف، ولكنه يعرض القصة كـما ينبغي أن تعرض، ويصـور لحظـات الخطـأ أو الزلـل لحظـات ضـعف وليسـت لحظات بطولة، ويجعلها لحظة عابرة يفيق الإنسان منها إلى الصـواب والرشـد[3]، فالتربية بالقصة أسلوب هام في القرآن الكريم يؤثِّر في النفس فينبه الغافل ويوقظ العزائم [4].

وقد رأى ابن عاشور أن من مقاصد القـرآن الكـريم الأصـلية - التـي بهـا صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية – مقصد القصص وأخبـار الأمـم السالفة، للتأسي بصالح أحوالهم، وللتحذير من مساوئهم [5].

---

(١) مصطفى كامل : **هذا هو منهج الإسلام في التربية** ، مرجع سابق ، ص : ٧١

(٢) عبد العليم إبراهيم: **الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية** ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص : ٣٧١ .

(٣) مصطفى كامل : **هذا هو منهج الإسلام في التربية** ، مرجع سابق ، ص : ٧٣

(٤) عبد البديع الخولي : العلم في الإسلام ، **مجلة كلية التربية** ، جامعة الأزهر ، العدد ٢٣ ، ١٩٩٢م، ص : ٣٧٦.

(٥) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤١

كما عقد المقدمة السابعة من مقدمات تفسيره حول القصة وفوائدها، والحكمة من تكرار القصص القرآني في بعض سور القرآن الكريم، فقال : امتن الله تعالى على رسوله – ﷺ – بقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف:٣]، فعلمنا من قوله "أَحْسَنَ" أن القصص القرآنية لم تسق مساق التسلية بالحديث وتجديد النشاط وما يحصل من استغراب نهاية تلك الحوادث من خير أو شر ؛ لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الأخبار الحسنة الصادقة، وما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص [١].

وقد عرف ابن عاشور القصة القرآنية بأنها الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم [٢].

ويرى ابن عاشور أن للقصة القرآنية أهدافا تربوية، وفيها عِبَر وفوائد للأمة، منها :

الفائدة الأولى: انقطاع صفة الأمية عن المسلمين في نظر غيرهم، وانقطاع ألسنة المُعَرِّضِين بهم بأنهم أمة جاهلية .

الفائدة الثانية: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع،وقد رأي ابن عاشور أن من أسلوب القرآن في هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ الإيمان وضعفه وفيما لذلك من أثرٍ لعناية إلهية أو خذلان، وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٦٤

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص : ٦٤

أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم، إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم، وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله تعالى في قصة أهل الكهف .

الفائدة الثالثة : ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتيب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ...﴾[سورة النمل:٥٢]، وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك .

الفائدة الرابعة : ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها وعصت أوامر ربها ؛ حتى يرعووا ويكفوا عن غلوائهم ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، قال تعالى: ﴿...فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[سورة الأعراف:١٧٦]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ...﴾[سورة يوسف:١١١]، وهذا في القصص التي يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة .

الفائدة الخامسة: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودا للعرب، فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن، إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه .

الفائدة السادسة : أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس أو ما ينتزع منه، ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه، فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال الله ﷻ - مشيرا إلى غفلتهم قبل الإسلام:-﴿...مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[سورة إبراهيم:٤٥] .

الفائدة السابعة : تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتى تُدْفَع عنهم وصمة الغرور، فإذا علمت الأمة جوامع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها .

الفائدة الثامنة : أن ينشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ؛ ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب، إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا، فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العامي أن يرعى غنيمة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع لغيرهم .

الفائدة التاسعة : معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره، وأنهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء من الاستعداد والاعتماد سلِموا من تسلط غيرهم عليهم.

الفائدة العاشرة : أنها يحصل منها فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية، كقوله تعالى : ﴿... كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ...﴾ [سورة يوسف:٧٦] ، أي في شرع الملك يومئذ، فعلمنا أن شريعة القبط كانت تخول استرقاق السارق، وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ...﴾ [سورة يوسف:٧٩] يدل على أن شريعتهم ما كانت تسوغ أخذ البدل في الاسترقاق وأن الحر لا يُمْلَك إلا بوجه معتبر، وقول يعقوب: ﴿...وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ...﴾ [سورة يوسف:١٣] يدل على أن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة، وقد انقطعت منها اليوم (١).

كما بيّن ابن عاشور أثر القصة القرآنية في النفوس في موضع آخر بقوله : "غير أن خطابات القرآن وقصصه المتعلقة بالأمم الأخرى إنما يقصد منها الاعتبار والاتعاظ، فنحن محذورون من مثل ما وقعوا فيه بطريق الأولى لأننا أولى بالكمالات النفسية " (٢).

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص : ٦٤ – ٦٨

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص : ٤٦٦

وأبلغ دليل على القيمة التربوية لأسلوب التكرار هو القصص القرآني الذي تكرر بعضه في أكثر من سورة، وقد أفاض ابن عاشور بعقلية متعمقة في بيان المقاصد التربوية والعلمية لتكرار القصص القرآني من خلال سؤال طرحه، وهو لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها؟ وما فائدة تكرار القصة في سور كثيرة ؟

يجيب ابن عاشور عن هذه التساؤلات، مبينا المقاصد التربوية لتكرار القصة القرآنية فيما يلي :-

- رسوخها في الأذهان بتكريرها .
- أن فوائد القصص تجتلبها المناسبات، وتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها ؛ لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى، فالخطيب إذا خطب في قوم ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا عند آخرين في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة فهذا لا يعني أنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظها، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي .
- أن تكرار القصة الواحدة قد يقصد به التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة .
- أن جمع المؤمنين جميع القرآن حفظا كان نادرا، بل تجد البعض يحفظ بعض السور، فيكون الذي حفظ إحدى السور التي ذكرت فيها قصة معينة عالما بتلك القصة كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة [1]

---

(١) المصدر السابق، ج ١ ، بتصرف، ص : ٦٨- ٦٩

إن منهج القصة القرآنية بدوره مختلف في القرآن الكريم عنه في التوراة والإنجيل، فالوحدة أساسا في السورة لا في القصة، والقصة يراد ذكرها مرات، وكل مرة تركز على هدف أو أهداف معينة، وتأخذ كل مرة من القصة الأساسية شرائح أو قطاعات تؤكد هذا الهدف (١).

وقد ذكر الدكتور "مصطفى رجب" أهدافا عامة أخرى للقصص القرآني، منها(٢) :-

- تأكيد العقيدة الإيمانية .
- كشف أحوال النفس الإنسانية .
- تصويب السلوك الإنساني .

ويرى خالد الحازمي أن من خصائص قصص القرآن الكريم ما يلي (٣) :-

- واقعية القصة وصدقها .
- موافقتها للفطرة البشرية .
- تربية عواطف الإنسان على الخير .
- أنها ذات أغراض دينية .

وكان رسول الله - ﷺ - أول من سلك نهج القرآن الكريم، وترسم خطاه في توظيف القصة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادئ الإسلام في النفوس، حيث نجده - ﷺ - يتخذ من القصة أسلوبا مهما من أساليب الدعوة والتربية

(١) عبد العزيز كامل : مع الرسول والمجتمع في استقبال القرن الهجري الخامس عشر ، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع ، الكويت ، د . ت ، ص : ٢٦٥

(٢) مصطفى رجب : الإعجاز التربوي في القرآن الكريم ، ط١ ، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٦م ، ص : ١٤ - ١٥

(٣) خالد بن حامد الحازمي : أصول التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص : ٣٨٨ - ٣٨٩

يحملها قيم الإسلام ومعانيه، ويربي عليها الصحابة من رعيل الإسلام الأول، ويوجههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدة في الفكر والتصور، وطريقة في السلوك وواقع الحياة [١] .

ومن هنا كان منطقيا أن يهتم التربويون بالقصة كأسلوب من أساليب التربية وطرقها من أجل نقل معلومات معينة أو غرس قيم أو تغيير اتجاهات[٢].

و - أسلوب الترغيب والترهيب :

لقد رأى ابن عاشور أن من المقاصد القرآنية الأصلية التي يقصد بها الإصلاح الفردي والمجتمعي مقصد الترغيب والترهيب [٣].

وقد عرف ابن عاشور التبشير والإنذار اللذين يقوم عليهما الترغيب والترهيب، فالتبشير هو الإخبار بالأمر المحبوب [٤]، والبشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به، أو الإعلام بخير حصل أو سيحصل، والنذارة - بكسر النون - هي الإعلام بشر وضر حصل أو سيحصل، وذلك هو الوعد والوعيد الذي تشتمل عليه الشرائع [٥]، فالإنذار إذن هو الإخبار بما فيه توقع ضر وضده البشارة، فيكون الإنذار هو الموعظة، ويدخل في معنى الإنذار أيضا تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ، وذلك ببث علوم الدين للمتعلمين [٦].

---

(١) سعيد إسماعيل علي : **السنة النبوية رؤية تربوية**، مرجع سابق ، ص : ٣٤٥

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٤٤

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٤١

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص : ٣٥٢

(٥) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ٣٠٧ ، ج ٥ ، ص : ٢٣٣

(٦) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص : ٦١ ، ج ٧ ، ص : ٣٧٢

وقد يقع لفظ التبشير ويراد به الإنذار والوعيد، قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة الانشقاق:٢٤] : الفعل " فَبَشِّرْهُم " مستعار للإنذار والوعيد على طريقة التهكم ؛ لأن حقيقة التبشير الإخبار بما يسر وينفع (١).

ويعرف البعض الترهيب بأنه : كل ما يزجر به المخطئ للإقلاع عن خطئه بالقول أو بالفعل إصلاحا لخطئه (٢).

ومما يرتبط بالترغيب والترهيب عملية الجزاء، وقد عرف الشيخ ابن عاشور الجزاء بأنه المكافأة على العمل بما يناسب ذلك العمل من خير أو شر(٣)، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النبأ٣١ :٣٦]، وقال تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ...﴾ [سورة الشورى:٤٠] ، ويرى ابن عاشور أنه مما لا شبهة فيه أن استحقاق الثواب والعقاب يكون على قدر الأعمال القلبية والجوارحية (٤).

ويقوم هذا الأسلوب على ما فطر الله الإنسان عليه من الرغبة في النعيم والرهبة من الألم، فالترغيب وعد وإغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة، والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف ذنب أو التقصير في الطاعة،

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٣٠ ، ص : ٢٣٤

(٢) علي بن عوض الغامدي : **أساليب التربية العلاجية لأخطاء الطفل في السنة النبوية وتطبيقاتها** ، مرجع سابق ، ص : ١٩٢

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٦ ، ص : ١٩٢

(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ١ ، ص : ٢٧٣

ويعتمد هذا الأسلوب على الإقناع والبرهان وإثارة الانفعالات وتربية الوجدان وتربية النفس على الخشوع والخضوع لله تعالى[1]، وهذا الأسلوب وسيلة هامة وأساسية في إثارة دافعية الناس إلى العمل الحسن وتنفيرهم من العمل السيئ، فالإنسان ينجذب إلى العمل بوسائل الإغراء من إثابة ومن مكافأة، وينفر وينصرف من العمل إذا كان يرتبط به ما يسبب له الألم والعذاب[2].

ويرى ابن عاشور أن قيام الإنسان بالأعمال أو عدم قيامه بها يرتبط بالترغيب والترهيب ؛ لأن مشيئة العباد إذا حصلت تحصل مباشرة بانفعال النفوس لفاعلية الترغيب والترهيب[3].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أسلوب الترغيب والترهيب وإلى كيفية استخدامه بما يحقق الغرض منه، على أن يتقدم الترغيب على الترهيب غالبا، ويراعى ظروف المتعلم وحالته النفسية في الموقف التعليمي حتى يستفيد من الدرس، كما أن المربي لا يمكن أن يستغني عن هذا الأسلوب ؛ لأنه من الضروري أن يدرك الطفل أو الإنسان أن هناك نتائج سارة أو مؤلمة وراء عمله وسلوكه، وفي هذا ترغيب وترهيب استعملها القرآن على نطاق واسع، فصوّر الجنة أجمل تصوير، وصوّر الجحيم بما يرعب النفوس[4].

---

(١) عبد البديع الخولي : **العلم في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٣٧٥ – ٣٧٦.

(٢) سعيد إسماعيل علي : **أصول التربية الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص: ١٩٣

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٩ ، ص : ٤١٢ – ٤١٤

(٤) عبد البديع الخولي : **العلم في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص: ٣٧٥

وقد أورد ابن عاشور بيانا عن عادات القرآن الكريم في ذكر الترغيب والترهيب يمكن الاستفادة منها تربويا، ومن ذلك :

أ - أن من عادته - **y** - في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالإنذار لإرادة التنشيط واكتساب ما يصلح والتثبيط عن اقتراف ما يتلف[1].

ب - ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[سورة النساء:١٢٢]، يقول ابن عاشور: عطفت هذه الآية على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ ...﴾[سورة النساء:١٢١]؛ جريا على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالبشارة والوعيد بالوعد[2].

ج - ما ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[سورة المائدة:٣٥]، **حيث يقول ابن عاشور** : " خاطب المؤمنين بالترغيب بعد أن حذرهم من المفاسد، على عادة القرآن في تخلل الأغراض بالموعظة والترغيب والترهيب، وهي طريقة من الخطابة لاصطياد النفوس "[3].

د - ما ورد في تفسير قول الله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾[سورة المطففين ١٨ :٢١]،

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٣٥٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ٢٠٧

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٦ ، ص : ١٨٧

حيث يقول: "من عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس؛ لأن الناس راهب وراغب "(١).

ومن نماذج مقاصد وأهداف الترغيب والترهيب في تفسير ابن عاشور ما يلي:-

أ - يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿... فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ ...﴾ [سورة البقرة:١٧٨]: "إن مقصد الآية الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتيل بدلا من القصاص "(٢).

ب - قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ...﴾[سورة البقرة:٢١٣]، يقول ابن عاشور :" إن الناس كانوا أمة واحدة فجاءتهم الرسل بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ؛ ليداوموا على الحق خشية انصرافهم عنه إذا ابتدأ الاختلاف يظهر "(٣).

ج - يقول في تفسير قوله ﷻ : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة:٦١] وعطفت جملة "وَرَحْمَةٌ "على جملتي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ "؛ لأن كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتى

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٢٠٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ١٤٢

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص : ٣٠١

يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم، وقد جاء ذكر هذه الخصلة "الرحمة " مع الخصلتين الأخريين على عادة القرآن في انتهاز فرصة الإرشاد إلى الخير بالترغيب والترهيب، فرغبهم في الإيمان ليكفروا عن سيئاتهم الفارطة، ثم أعقب الترغيب بالترهيب ببيان عواقب إيذاء الرسول بقوله : " وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ " وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا(1).

د – ما ورد في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة النساء:٨٥]، حيث قال : يُعلم من عمومها أن التحريض على القتال في سبيل الله من الشفاعة الحسنة، وأن سعي المثبطين للناس من قبيل الشفاعة السيئة، فجاءت هذه الآية إيذانا للفريقين بحالتهما، والمقصود مع ذلك الترغيب في التوسط في الخير، والترهيب من ضده(2).

ويستنتج الباحث مما ذكره ابن عاشور عن عادات القرآن الكريم في الترغيب والترهيب ومن نماذج لمقاصدهما - ما يأتي :-

١. استخدام الترغيب مع الترهيب بتعقيب كل منهما للآخر كلما تطلّب الموقف التعليمي وحال المتعلم ذلك .

٢. تَخَلُّل الأغراض والموضوعات بالموعظة والترغيب والترهيب .

٣. تعدد الأهداف التربوية للترغيب والترهيب، **وأهمها** :

– الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر .

– المداومة على الحق والخير، والتحذير من الشرور والمفاسد .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص : ٢٤٣ – ٢٤٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١٤٣

- الترغيب في اكتساب قيم العفو والتسامح والعدل والترهيب من ضدها .

والترغيب منه المادي والمعنوي، فالمادي كإعطاء المتعلم جائزة عند أدائه مهارة معينة بنجاح، ولكن ينبغي ألا نكثر في الترغيب المادي بحيث يكون في كل عمل يعمله؛ لأن المتعلم ربما ينتظر ذلك باستمرار، بمعنى أنه لا يؤدي ما يطلب منه من أعمال خيرة ومفيدة إلا إذا حصل أولا على ما يشجعه، أو لا يترك أعماله غير المرغوبه إلا بما يشجعه على ذلك، وهذا أمر غير مقبول من الناحية التربوية .

أما المعنوي فهو مثل قول المعلم لطلابه الذين أحسنوا وأجادو في أداء ما طلب منهم كلمة شكر أو تقدير كقوله " أحسنت "، أو أن يطلب من المتعلمين التصفيق لأحد زملائهم وهذا النوع أفضل من النوع السابق ؛ لأنه يؤثر أكثر في نفس المتربي، كما أن تأثيره يدوم فضلا عن أنه يرسخ في المتربي القيم والأخلاق واحترام وتقدير الغير وحسن التعبير، وهو يوافق طبيعة الإنسان، ولنتأمل الترغيب الرائع في قول الله ﷻ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ...﴾ [سورة النحل:٩٧].

إن الطريقة العملية في سياسة الصبيان التي يصحبها الرفق، هي الثناء على أفعالهم المحمودة وذم أعمالهم المكروهه، وجميع المربين في الإسلام عليهم اتباع هذه القاعدة [1].

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام**، مرجع سابق، ص : ١٥٢

ومن ضوابط الترغيب، أن يحقق المتربي عملا أو مهارة يستحق عليها الترغيب المعنوي أو المادي (الثناء أو المكافأة)، وإلا كان ذلك عبثا، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فقال الله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٨٨].

فيرى ابن عاشور أن الآية السابقة بيان لحال من يفعل الشر والخسة، ثم لا يقف عند حد الانكسار لما فعل أو تطلب الستر على شنعته، بل يرتقي فيترقب ثناء الناس على سوء صنعه، ويتطلب المحمدة عليه (١).

وعلى المربي إذا وعد بوعود ترغيبية أن يفي بها ؛ لأنه لو لم يفِ بها فهذا يغرس في المتعلم عدم الثقة في المربي، إضافة أنه يعلم المتربي الكذب(٢).

أما الترهيب أو الخوف فيكون أحيانا من أقوى المؤثرات التي تمنع الإنسان عن أداء الأعمال التي يخاف منها، والخوف فطري في النفس يصحبه الهرب مما يثير الخوف، وكل فطرة في النفس هي من الطبائع الموروثة التي لا أمل في اقتلاعها، وإنما يراعى فيها حسن التوجيه إلى الخير المقصود، ولو أنك جنبت الطفل كل مصادر الخوف وأَحَطتَهُ بالأمن والرعاية فإنه ينشأ مدللا لا شجاعا(٣).

ولذلك يرى ابن عاشور أنه على المعلم مؤاخذة المجتهد إذا قصر في فهم ما هو مدلول لأهل النظر والفكر، فيقول في تفسير قوله تعالى : ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[سورة الأنفال:٦]:

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤ ، ص : ١٩٣

(٢) خالد بن حامد الحازمي : **أصول التربية الإسلامية** ،مرجع سابق ، ص : ٣٩٤

(٣) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ١٥٠

يؤخذ من هذه الآية حكم مؤاخذة المجتهد إذا قصر في فهم ما هو مدلول لأهل النظر (١)، وقد روى مالك في الموطأ أن أبا هريرة مرّ بقوم محرمين فاستفتوه في لحم صيد وجدوا أناسا أحلة يأكلونه، فأفتاهم بالأكل منه، ثم قدم المدينة، فسأل عمر بن الخطاب عن ذلك، فقال له عمر : بم أفتيتهم ؟ قال : أفتيتهم بأكله، فقال : لو أفتيتهم بغير ذلك لأوجعتك (٢).

ولكن ينبغي أن تكون مؤاخذة ولاة الأمور والمربين أو المعلمين فيها رفق ولين مع التماس الأعذار لغيرهم، وقد أكد الشيخ الطاهر ابن عاشور ذلك من خلال تفسير قوله تعالى:﴿... كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء:٩٤] ، فرأى أن من التربية العظيمة أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحوالا كان هو عليها وهي تُساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذة المعلم التلميذ بسوء إذا لم يقصر في إعمال جهده، وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم فيعتادون التشديد عليهم وتطلب عثراتهم، وكذلك ولاة الأمور وكبار الموظفين في معاملة صغار الموظفين، وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم على اللعب المعتاد أو على الضجر من الآلام (٣).

ويرى ابن عاشور أنه لو تسامح المربي أو المعلم عما ارتكبه المتعلم أو المتربي من أخطاء فلا بد من تحقيق آثار أخطائه ومخالفاته وهي العقوبة التأديبية، فإن العفو عنها فساد ؛ لأن الفاعل للمخالفة إذا لم ير أثر فعله لم يتأدب في المستقبل،

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص : ٢٦٨ – ٢٦٩

(٢) رواه مالك في الموطأ ، كتاب الحج ، باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد ، رقم (٧٩١).

(٣) **ابن عاشور** : التحرير والتنوير ، **ج ٥**، ص : ١٦٨

فالتسامح معه في ذلك تفويت لمقتضى الحكمة، فإن الصبي إذا لوث موضعا وغضب عليه مربيه ثم تاب فعفا عنه، فالعفو يتعلق بالعقاب، أما تكليفه بأن يزيل بيده التلويث الذي لوث به الموضع فذلك لا يحسن التسامح فيه ؛ ولذا لما تاب الله على آدم رضي عنه ولم يؤاخذه بعقوبة ولا بزاجر في الدنيا، ولكنه لم يصفح عنه في تحقق أثر مخالفته، وهو الهبوط من الجنة ليرى أثر حرصه وسوء ظنه (١).

ولكن ينبغي أن نعلم أن استخدام الترهيب لم يكن أسلوب الرسول أو نهجه – ﷺ – المستمر، فقد وصفه الله ﷻ بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة التوبة:١٢٨]، وقد أمره الله تعالى بلين الجانب والرفق والرحمة، فقال الله ﷻ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ...﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]، ولا يكون الترهيب إلا عند الضرورة الملحة وعند فشل استخدام الترغيب مع المتربي .

ز ـ مراعاة أحوال المخاطبين والفروق الفردية بينهم :

إن من المقاصد القرآنية الأصلية التي ذكرها ابن عاشور في تفسيره لإصلاح الفرد والمجتمع – مقصد التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها (٢).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١، ص : ٤٤١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤١

فالأفراد يختلف بعضهم عن بعض في الصفات النفسية والجسدية والمهارات والقدرات والاستعدادات والدوافع فالمخاطبون أو المتلقون يحتاجون إلى وسائل وطرق مختلفة تبعا لقدراتهم ؛ لإيصال الحقائق لديهم، وقد ذكر ابن عاشور بعضا منها كإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات، وتعليل الأحكام بالترغيب وبالترهيب، ورأى أن هذا من مظاهر أصل الفطرة في الدين، وعلل ذلك بأنه مراعاة لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر [1].

وقد رأى حجة الإسلام " الغزالي " أن تساق للعامة الأدلة الإقناعية، وللمتعلمين أدلة بحسب السن والعلم ؛ نظرا للتفاوت بين الناس [2].

لذلك اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافا يراعى فيه مبلغ طاقة البشر لطفا من الله تعالى بالناس ورحمة منه بهم حتى في حملهم على مصالحهم ليكون تلقيهم لذلك أسهل وعملهم به أدوم، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت قارب فيه البشر مبلغ غاية الكمال العقلي، وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعدادهم الفكري وإن تخالفت العصور وتباعدت الأقطار، فكان دينا عاما لجميع البشر [3].

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، بتصرف ، ص : ١٩٥

(٢) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٨٢

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٣٧١

ولقد أقر القرآن الكريم أن الناس ليسوا سواء في مدى التكليف، فكل نفس تكلف حسب طاقتها، فقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ...﴾ [سورة البقرة:٢٨٦] ، والوسع تحدده عوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية [١].

ويرى ابن عاشور أن " الوسع" في القرآن - بضم الواو - هو الطاقة والاستطاعة، والمراد به هنا ما يطاق ويستطاع، والمستطاع هو ما اعتاد الناس بقدرتهم على أن يفعلوه إن توجهت إرادتهم لفعله مع السلامة وانتفاء الموانع، وهذا دليل على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله تعالى ؛ لعموم كلمة ‹ نفسا › في سياق النفي ؛ لأن الله تعالى ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله، وما ورد من ذلك فهو في سياق العقوبات، وهذا حكم عام في الشرائع كلها [٢].

وتوجد آيات كثيرة أخرى تدل على وجود اختلافات بين الناس في أمور متعددة من الألوان والألسنة والمشارب والقدرات، وهذا من سنن الله في خلقه[٣].

وقد ذكر الفخر الرازي قول ابن الأنباري في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [سورة نوح:١٤] ، قال : الطور هو الحال، والمعنى خلقكم أصنافا مختلفين لا يشبه بعضكم بعضا [٤]، وقيل : أطوارا أي أنواعا صحيحا وسقيما

---

(١) عبد البديع الخولي : **العلم في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٣٨٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٣٥

(٣) سعيد إسماعيل علي : **أصول التربية الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص: ١٩٤

(٤) فخر الدين الرازي : **مفاتيح الغيب** ، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي ، ج ٢٩ ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢١هـ ، ص : ١٢٤

وبصيرا وضريرا، وغنيا وفقيرا، وقيل : إن "أطوارا" معناهـا اخـتلافهم في الأخلاق والأفعال [1] .

إن ما سبق من آيات قرآنيـة يثبـت الاختلافـات بـين النـاس في القـدرات والمهارات والنفوس والتفكـير والتـدين واللغـات والألـوان والنـوع والسـمات الشخصية والوجدانية والبدنية، وهذه الفروق بـين أفـراد المجتمـع تحـتم ضروة التفريق بين الأساليب التربوية والتعليمية التي تقدم لهم حسب مـا ينـاسـب كـل فرد منهم وما يُمَكِّنُه من تحقيق ذاته، وفق ما يتمتع به من قدرات وإمكانات وبـما يتلائم مع استعداداته النفسية واتجاهاته ؛ ليحقق كل منهم توافقه مع نفسه ومـع مجتمعه، وليكون كل منهم قادرا على أن يكون فردا صالحا مصلحا منتجا [2].

وقد ورد في السنة النبوية ما يدل على مراعاة النبي – ﷺ – للفروق الفردية بين الناس، فقد روى البخاري عن " علي " موقوفا " حدثوا الناس بما يعرفـون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله " [3]، وروى أبو داود أن عائشة – رضي الله عنها – مر بها سائل فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل، فقيـل لهـا في ذلك، فقالت : قال رسول الله ﷺ : " أنزلوا الناس منازلهم " [4].

---

(١) القرطبي : **الجامع لأحكام القرآن** ، مصدر سابق ، ج ١٨، ص : ٢٧٨

(٢) عبد الله بن سعيد الزبيدي : **أسس التوجيه والإرشاد من منظور التربيـة الإسـلامية** ، رسـالة ماجسـتير ، ١٤٢٨هـ ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، ص : ١٣٣

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن يفهموا ، رقم (١٢٧)

(٤) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب في تنزيل الناس منازلهم ، رقم (٤٨٤٢)

وهكذا فإن منهج التربية الإسلامية يأخذ في اعتباره الفوارق الفردية بين طفل وآخر، فهناك طفل لا يحتاج إلى أن تعاقبه مرة في حياتك فَلِمَ تعاقبه؟ وهناك طفل يرى في إعراضك عنه لحظة عقوبة قاسية لا يحتملها وجدانه فلِمَ تتجاوز معه لحظة الإعراض أو تطيل عليه الإعراض ؟ وطفل يبكي ألما إذا عبست في وجهه فلِمَ تتجاوز معه هذه الوسيلة الفاجعة ؟ ثم أن هناك طفل لا يرعوي أبدا حتى يذوق العقوبة الحسية الموجعة أو أكثر من ذلك، فإذا استخدمنا معه أسلوب الإعراض أو الإغراء فإنك تفسده تماما كما يفسد الطفل الذي لا يحتاج منك سوى الإعراض كثيرا بتوقيع العقوبة الحسية عليه [1].

وقد أصّل ابن عاشور لمبدأ مراعاة حال المخاطبين والمتعلمين، ومراعاة الفروق الفردية بينهم بما ذكره من أن مراد الله تعالى من توجيه الشرائع وإرسال الرسل ليس مجرد قرع الأسماع بعبارات التشريع أو التذوق لدقائق تراكيبه، بل مراد الله تعالى مما شرع للناس هو عملهم بتعاليم رسله وكتبه، ولما كان المراد من ذلك هو العمل فقد جعل الله الشرائع مناسبة لقابليات المخاطبين بها وجارية على قدر قبول عقولهم ومقدرتهم ؛ ليتمكنوا من العمل بها بدوام وانتظام، فلذلك كان المقصود من التدين أن يكون ذلك دأبا وعادة لمنتحليه، وبما أن النفوس لا تستطيع الانصياع إلى ما لا يتفق مع مدركاتها فلا جرم تعين مراعاة حال المخاطبين في سائر الأديان ؛ ليمكن للأمم العمل بتعاليم شرائعها بانتظام ومواظبة [2].

---

(١) علي أحمد مدكور : **منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته** ، مكتبة الفلاح، الكويت ، ١٩٨٧، ص : ٣٥٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٩٠ – ١٩١

كما أن الله تعالى جعل في خلقة العقول اختلاف الميول والأفهام، وجعل في تفاوت الذكاء وأصالة الرأي أسبابا لاختلاف قواعد العلوم والمذاهب، فأسباب الاختلاف إذن مركوزة في الطباع [1].

ح - التعليم بالملاحظة والتجربة والعروض العملية :

يقصد بالملاحظة هنا - كأسلوب للتربية والتعليم - الملاحظة العلمية الموضوعية التي تكون بضوابط، والتي يمكن من خلالها ملاحظة أعمال وسلوكيات المتعلم ؛ بهدف تشخيص المشكلات لديه، ومن ثم العمل على توجيهه وتعديل سلوكياته .

أما العروض العملية، فهي بيان عملي توضيحي لمهارة أو فكرة أمام المتعلمين، أو هو النشاط الذي يقوم به المعلم أو المتعلم أو أي متخصص أو مجموعة من المتعلمين أو المتخصصين بقصد توضيح حقيقة أو قانون أو قاعدة أو نظرية وتطبيقاتها في الحياة العملية باستخدام بعض وسائل الإيضاح، مثل العينات والنماذج والصور والرسوم والأفلام والتجارب العملية، إلى جانب الشرح الشفوي [2].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١١

(٢) نظمي خليل أبو العطا: **من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة** ، موقع سابق.

ويُعْرَف هذا الأسلوب عند التربويين بالطريقة التجريبية، فالتجربة جزء أساسي من النشاط العلمي، فمحك الفكرة وقياس صحتها هو إمكانية التحقق منها بالتجربة [1].

ولما كانت التربية تستهدف إحداث تغيرات سلوكية وعقلية ووجدانية في شخصية الإنسان، كان من الأوفق أن ننتهج في ذلك نهجا ينحو إلى التطبيق والممارسة والمباشرة والاشتباك مع هموم الحياة الواقعية، ومن هنا تجيء حكمة التوجيه القرآني للبعض الذين تساءلوا عن علم الغيب الذي اختصه الله بعلمه بأن ينشغلوا بما يرتبط بهذه التساؤلات من سلوك وأعمال [2]، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [سورة النازعات:٤٦].

إن الإنسان يتعلم أيضا عن طريق التجربة العملية كيفية مواجهة مشكلات الحياة المختلفة ومحاولة حلها والتغلب عليها، حيث يقابل الإنسان دائما في حياته مواقف جديدة لم يتعلم من قبل كيف يستجيب لها أو كيف يتصرف فيها، فالإنسان يتوافق دائما لمثل هذه المواقف الجديدة بأن يحاول أن يستجيب لها باستجابات مختلفة، فيخطئ في بعضها وقد يصيب أحيانا، وهكذا يتعلم الإنسان

---

(١) راجع كلا من:

- أحمد فؤاد عليان: **طرق التعليم التربوية في السنة النبوية**، دار المسلم، الرياض، ١٤٢١هـ، ص: ١٣٢
- علي بن عوض الغامدي: **أساليب التربية العلاجية لأخطاء الطفل في السنة النبوية وتطبيقاتها**، مرجع سابق، ص: ١٧٨ – ١٧٩

(٢) سعيد إسماعيل علي: **أصول التربية الإسلامية**، مرجع سابق، بتصرف، ص: ١٤٢

استجابات جديدة للمواقف الجديدة وحلولا لما يقابله من مشكلات في الحياة العملية عن طريق ما يسميه علماء النفس المحدثون المحاولة والخطأ أو الاشتراط الإجرائي "[1].

إن من أسباب تأخر العلوم - كما يرى ابن عاشور - انقطاع العمل - أي التمرين - عن التعليم، فقد محى ذلك روح العلوم من الأذهان، فصار العلم قواعد واصطلاحات لا يُهتم فيها بعمل، ولا يُمَرَّن صاحبها حتى إذا بحث أو انتقد فالمتعلم لا يجد مفصحا له عن معانيها، خصوصا في العلوم العقلية التي لا يكاد يعقلها المرء بلا تمرين، وفي العلوم اللسانية أيضا، وإنا نرى من ضعف الناس في اللسان أن أصبحت أمثلة أكثر كتب النحو صناعية في مثل أحوال زيد وعمرو [2].

لقد أقر القرآن الكريم التجريب كطريقة من طرق التعليم، وقد اتضح في موقف سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

ولكن ما موقف ابن عاشور من التعلم بالملاحظة والمعاينة والتجربة ؟ لقد أقر ابن عاشور بضرورة العلم التجريبي والملاحظة المنطقية المنظمة ؛ للوصول إلى بعض الحقائق، فهو وسيلة من وسائل اليقين، فقال : إن إبراهيم - عليه السلام - لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث أراد الانتقال من العلم

(١) محمد عثمان نجاتي : **القرآن وعلم النفس**، ط٧، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م، ص : ١٦٤

(٢) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب**، مرجع سابق، ص : ١٥٧

النظري البرهاني إلى العلم الضروري الحسي، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس، والغرض من ذلك لِيَثْبُت ويتحقق علمه وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال (١).

إن الآيات القرآنية الدالة على التجارب والملاحظة والعروض العملية كثيرة، منها قصة ابني آدم عندما قتل أحدهما الآخر، فتوضح القصة كيفية دفنه وتصف الموقف بتفاصيله، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المائدة ٣٠: ٣١].

فقد بعث الله الغراب؛ ليرى ابن آدم كيفية المواراة، فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق وفرضا على جميع الناس على الكفاية(٢).

وقد رأى ابن عاشور أن اختيار الغراب لهذا العمل إما لأن الدفن حيلة في الغربان من قبل، وإما لأن الله اختاره لذلك لمناسبة ما يعتري الناظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النفس، ولعل هذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب، وهذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة، وهو أيضا مشهد أول علم

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣ ، ص : ٣٨ – ٣٩

(٢) القرطبي : **الجامع لأحكام القرآن** ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص : ٩٨

اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضا مشهد أول مظاهر تلقي الإنسان معارفه من عوالم أضعف منه كما تَشَبَّه الناس بالحيوان في الزينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملونة وتكللوا بالريش الملون وبالزهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدين والخلق [1].

إن المستفاد من الآية السابقة - في ضوء تفسير ابن عاشور لها - يعدّ بمثابة نظرية تربوية، حيث يُفهم من ذلك إلزام المعلم باختيار الوسيلة التعليمية المناسبة لموضوع التعلم، على تكون موافقة لبيئة المتعلم ودوافعه، فقد لاحظنا أنه بيَّن في شرحه للآية سبب اختيار الغراب، كما أنه يُعدّ دعوة لاتباع أسلوب التجريب لاكتساب العلم والمعرفة كلما تتطلب الموقف ذلك .

كما أننا نجد في القرآن الكريم أصول المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة واستخدام العقل، فيقول الله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة العنكبوت:٢٠]، كما أن القرآن الكريم يقرر الاعتماد على العلم اليقيني،لا على الظن والوهم واتباع الهوى مع الجهل، فيقول تعالى : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الروم:٢٩].

وقد أقرّ ابن عاشور هذا المبدأ، وعاب على من يقضي بهواه مع جهله ؛ لأن اتباع الهوى بغير علم تشنيع لهذا الاتباع، حيث يكون اتباع شهوة مع جهالة،

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٦، ص : ١٧٣ - ١٧٤

وعلى العالم إذا اتبع الهوى أن يكون متحرزا من التوغل فيه لعلمه بفساده (1).

ط ـ التعلم الذاتي:

يقصد به الأسلوب الذي يقوم فيه الفرد بالمرور بنفسه على المواقف التعليمية المختلفة لاكتساب المعلومات والمهارات، بحيث ينتقل محور الاهتمام من المعلم إلى المتعلم الذي يقرر متى وأين يبدأ وينتهي وأي الوسائل والبدائل يختار، ومن ثم يصبح المسئول عن تعلمه وعن النتائج والقرارات التي يتخذها(2).

ولقد أقرّ القرآن الكريم طريقة التعلم الذاتي الذي يعتمد على أفكار ومهارات وقدرات الإنسان أو المتعلمين سواء أكانوا فرادى أم جماعات، وهذا لا يمنع من إرشادهم وتوجيههم، ويعد هذا الأسلوب من أحدث الأساليب التربوية التي ينادي بها رجالات التربية في العصر الحديث (3).

ومن تأصيلات القرآن الكريم لهذه الطريقة قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[سورة فُصِّلَت:53]، وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الغاشية 17 :20] .

ويبين ابن عاشور قيمة النظر والتدبر في النفس ودواعيه من خلال تفسير قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الذاريات20 :21]

---

(1) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج 21 ، ص : 88

(2) محمود غباين : **التعلم الذاتي بالحقائب التعليمية** ، ط1، دار المسيرة ، عمان ، 2001م ، ص 26

(3) نظمي خليل أبو العطا : **من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة**، موقع سابق

، فيرى أن الإبصار مستعار للتدبر والتفكر، والمعنى :

ألا تتفكرون في خلق أنفسكم كيف أنشأكم الله من ماء وكيف خلقكم أطوارا، أليس كل طور هو إيجاد خلق لم يكن موجودا من قبل، فالموجود في الصبي لم يكن موجودا فيه حين كان جنينا، والموجود في الكهل لم يكن فيه حين كان غلاما، وما هي عند التأمل إلا مخلوقات مستجدة كانت معدومة[1].

وهذا التكوين العجيب كما يدل على إمكان الإيجاد بعد الموت يدل على تَفَرُّد مُكَوِّنه – سبحانه وتعالى – بالإلهية، إذ لا يقدر على إيجاد مثل الإنسان غير الله تعالى، فإن بواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائب من الانتظام والتناسب، وأعجبها خلق العقل وحركاته واستخراج المعاني، وخلق النطق والإلهام إلى اللغة، وخلق الحواس، وحركة الدورة الدموية، وانتساق الأعضاء الرئيسة وتفاعلها، وتسوية المفاصل والعضلات والأعصاب والشرايين وحالها بين الارتخاء والتيبس، فإنه إذا غلب عليها التيبس جاء العجز وإذا غلب الارتخاء جاء الموت [2].

إن كلام ابن عاشور السابق يلمح إلى فكرة التعلم الذاتي، عندما قال: "الإبصار مستعار للتدبر والتفكر"، وأيضا عندما عدد مظاهر قدرة الله تعالى في الإنسان .

وقد عبر ابن عاشور عن التفكير الذاتي بـ 'التفكر في النفوس'، وعرفه بأنه كلام النفس الذي يتطلب صحة التفكر، وأول التفكير الإنتاج [3]، سواء كان إنتاج علمي أو فني أو عملي..فأي عمل يحتاج لفكر عقلي صحيح.

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٦، ص : ٣٥٣

(٢) المصدر السابق ، ج ٢٦، ص : ٣٥٣ – ٣٥٤

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤ ، بتصرف ، ص : ١٩٧

كما عرف التفكر أيضا بأنه إعمال الفكر أي الخاطر العقلي للاستفادة منه، وهو التأمل في الدلالة العقلية (١).

وقد ربط ابن عاشور بين التفكر الذاتي وتحصيل العلم، حيث رأى أن التفكر هو تكلف الفكر وهو العلم (٢)، وهو أيضا جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح (٣)، وقد أشار أيضا إلى أن تحصيل العلوم يعتمد على أمورٍ، أهمها ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات (٤).

لقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين، فقال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ [سورة آل عمران:١٩١]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قوما تفكروا في الله **y**، فقال النبي ﷺ: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله"، وقيل: "من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف"، وقال الشافعي رحمه الله تعالى: "استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر"، ثم إن ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة، وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها؛ لأنه الذي ينقل من

---

(١) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج٢١، ص: ٥٢

(٢) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج٢٢، ص: ٢٣٣

(٣) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج٧، ص: ٢٤٤

(٤) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص: ٤٤٠

المكاره إلى المحاب، ويهدي إلى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد [1].

إن التعلم والتفكير الذاتي يستلزم ضوابط معينة، خاصة عند تعلم مهارة عملية، أهمها رؤية الأشياء، والتدبر والاقتناع بما يدرك فيها، وهذا ما ذكره ابن عاشور عندما تعرض لبيان معنى النظر ‹ التفكر › بأنه يستعمل فيما يصلح للنظر القلبي أو العقلي والنظر البصري، وذلك من مقاصد القرآن[2].

ولّما كان التفكر أمرا ذاتيا كان المقصد من هذه الضوابط ألا يتبع الإنسان هواه ؛ لأن أكبر أسباب الخلل والضلال في العلم تَنْجَرُّ من محاولة إرغام الحق والعلم على أن يكون وفق هوى ذي الهوى وعلى حسب شهوته، وأكبر أسباب النجاح والهدى جعل الحق والعلم رائدا في القول والعمل وإن خالف المشتهى، فإن العلم الصحيح عبارة عن إظهار الحقائق في صورة جامعة لها وتسهيل إدراكها لمريده بما يُمَكِّن من السير في المزاولة والاقتصاد في الوقت، لذلك قال تعالى : ﴿...وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [سورة ص:٢٦]، فالهوى هو ما يشتهي المرء أن يكون عليه بِغَضّ النظر عن مصادفته الصواب والحق وهو المذموم، فإذا وافق الهوى سبيل الله – وهو الحق – سمي ذلك الهوى توفيقا وشرح صدر وتيسيرا، وهو صفة الكاملين، إذ يصادف مشتهاهم الحق ؛ لأنهم تلبسوا بالحق حتى صار لهم جِبِلَّة [3].

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي : **موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين** ، تحقيق : مأمون بن محيي الدين الجنان ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م ، ص : ٣١٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١١، ص : ٢٩٥

(٣) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق، ص : ٦١ – ٦٢

لقد أوضح ابن عاشور أن الإنسان يتعلم ذاتيا مما حوله في الكون، ومن قصص الأمم السابقة، لذلك أمر الله رسوله - ﷺ - أن يدعو الناس إلى السير في الأرض؛ ليشاهدوا آثار خَلْقِ الله الأشياءَ من عدم، فيوقنوا أن إعادتها بعد زوالها ليس بأعجب من ابتداء صنعها، وقد أمر بالسير في الأرض ؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحتوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها، حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، والاستدلال بالأفعال التي مضت أمكن ؛ لأن للشيء المتقرر تحققا محسوسا، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل ؛ فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة[1].

وقد رأى ابن عاشور أن التفكير عبادة عظيمة، ودلل على ذلك ما رواه ابن القاسم عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في جامع العتبية، قال : قيل لأم الدرداء : ما كان شأن أبي الدرداء ؟ قالت : كان أكثر شأنه التفكر، قيل له : أترى التفكر عملا من الأعمال ؟ قال : نعم، هو اليقين [2].

فبالتفكر يتعظ الإنسان ويعتبر مما حوله ومما يعرض عليه من أحوال وقصص ؛ ليدرك عن يقين وحدانية الله تعالى وتفرده بالعبادة، لذلك يرى ابن

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٠، ص : ٢٣٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٤، ص : ١٩٧

عاشور أن التفكر مقصود من القصة والمثل، فليس المطلوب العلم الذي لا يؤدي إلى منفعة، ولا التذكر أو مجرد السماع، بل المطلوب التفكر العميق في القصة، فيعتبر ويتعظ، ولا شك أن العبرة مقصودة هنا من التفكر (١).

كما أن الإنسان – على مدار حياته – يكتسب بنفسه خبرات وعادات وتقاليد طيبة صالحة من خلال تفاعله مع مجتمعه وتعرضه لتجارب حياتية كثيرة.

وفي التعلم الذاتي قد يصيب المرء أو يخطئ، وهو ما يسمى ' التعلم بالمحاولة والخطأ '، وقد يتطلب نوعا من الترغيب والتوجيه، فعن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله – ﷺ – يقول : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " (٢).

وقد أشار ابن عاشور إلى التعلم الذاتي والتعلم التعاوني، مبينا بعض مبادئهما، ومقارنا بينهما من حيث القيمة التربوية من خلال بيان قول الله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ...﴾ [سورة سبأ:٤٦].

وأهم هذه المبادئ، التأهب للعمل والاجتهاد فيه لأداء حق الله مع الاستعانة بصاحب أو منفردا، فإن من أهل النظر من ينشط إليه بالمدارسة ما لا ينشطه بالخلوة، ومنهم مَن حاله بعكس هذا وقدم "مثنى" ؛ لأن الاستعانة أعون على الفهم، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخل مجتمعهم من ذي هوى وذي شبهة

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٩، ص : ١٧٩

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، حديث رقم (١٧١٦) .

وذي مكر وذي انتفاع، وهؤلاء بها يلزم نواياهم من الخبث تصحبهم جرأة لا تترك فيهم وازعا عن الباطل ولا صدّا عن الاختلاق والتحريف للأقوال بعمد أو خطأ ولا حياء يهذب من حدتهم في الخصام والأذى .. فللسلامة من هذه العوائق والتخلص من تلك البوائق الصادَّة عن طريق الحق قيل هنا " مثنى وفرادى "، فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرض لها بغير النصح، وإذا خلا ثاني اثنين فهو إنما يختار أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأيا فسلم كلاهما من غش صاحبه (١).

إذن بالنظر في الآيات السابقة نجد أنها دعوة من الله - تبارك وتعالى- للتأمل في ملكوت السموات والأرض والتفكر في النفس حتى نصل إلى حقيقة التوحيد، فبتدبرنا في خلق الله – تعالى- نصل إلى هذه العقيدة الصحيحة السليمة بأنفسنا ذاتيًا دون تدخل من أحد، وهو ما يعرف تربويا اليوم بالتعلم الذاتي، ومن أهم نماذجه أسلوب حل المشكلات (٢).

ي – أسلوب حل المشكلات :

يُعَرّف هذا الأسلوب بأنه موقف يكون الفرد فيه مطالبا بانجاز مهمة لم تواجهه من قبل، وتكون المعلومات المزود بها هذا الفرد غير محددة تمامًا لطريقة الحل (٣).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص : ٢٣٢- ٢٣٣

(٢) فوزية شحادة أحمد البراوي : **الإعجاز التربوي في القرآن الكريم في طرق التدريس** ، رسالة ماجستير ، ٢٠٠٩م ، الجامعة الإسلامية ، غزة ، كلية أصول الدين ، ص : ١٦٣ - ١٦٤

(٣) كمال زيتون : **التدريس نماذجه ومهاراته** ، ط١ ، دار عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨م ،ص ٢٩٨

وتنبع أهمية أسلوب حل المشكلات في التعلم من أنه يزود المتعلم بـالفرص المتنوعة لممارسة معلوماته ومهاراته، كما أنه وسيلة لإثارة الفضول العقلي، وينمي الشعور بالثقة والإيجابية [١].

فهذا الأسلوب يظهر مدى إعمال العقل الذي منَّ الله ﷻ به علينا، فالإنسان قد امتاز عن الحيوان بالعقل، والتعليم رقي للعقل الإنساني، فهو تكملة لحقيقة الإنسانية [٢].

لذا فإن ابن عاشور وضع متطلبات لقيـام العقـل بـدوره في الـتعلم الـذاتي وحل المشكلات، ومنها إصلاح العقل والتفكير، وتشحيذ الأذهان الـذي تُخْـدم به مسائل العلوم التي تحتاج إلى التفكير والحل [٣].

ويرتبط هذا الأسلوب بخطوات التفكير العلمي الصحيح، وهـي الشـعور بالمشكلة، وجمع الأدلة للتعرّف على مدى صحتها، ورفض الطالح منها والإبقـاء على الصالح، والخروج بالنتائج [٤]، ويتجلى هذا الأسلوب في قول الله تعالى :

---

(١) علي أحمد مدكور : **مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها** ، ط١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص : ٢٤٤

(٢) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٣

(٣) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٤٥
- ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٩١

(٤) نظمي خليل أبو العطا : **من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة** ، موقع سابق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ
إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام٧٥ :٧٩].

وقد أشار ابن عاشور إشارات صريحة للعديد من أساليب التعليم الحديثة عند تفسيره للآيات السابقة التي تحكي قصة إبراهيم – عليه السلام – مع قومه، حيث أشار إلى أسلوب حل المشكلة بالفروض، واختبارها، والاستدلال بها للوصول إلى الفرض والنتيجة الصحيحة، كما أشار إلى أسلوب التمثيل، واختيار الوقت المناسب للتعلم،وتهيئة المتلقين، والتدرج بهم، والإقناع العقلي بالحوار والمجادلة، واستخدام أدوات التعلم من واقع بيئة المتعلمين ' ألفاظ، عناصر كونية '، والتعريض غير المباشر، والتجربة بالمشاهدة، فقال : أراد إبراهيم عليه السلام استدراج قومه، فابتدأ بإظهار أنه لا يرى تعدد الآلهة ليصل بهم إلى التوحيد واستبقى واحدا من معبوداتهم ففرض استحقاقه الإلهية كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله .

وقوله "هَٰذَا رَبِّي " أي، خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي، قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه ؛ ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم، فأظهر أنه موافق لهم لينشرح صدرهم إلى ذلك، ثم يرجع ويعود عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده، فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على الناس، وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيبا عن هذا العالم، يعني أن ما يغيب لا يستحق أن يتخذ إلها لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه، وليس الاستدلال منظورا فيه إلى التغير لأن قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغير وانتفاء صفة الإلهية، ولأن الأفول ليس بتغير في ذات الكوكب بل هو عرض للأبصار المشاهدة له، أما الكوكب فهو باق في فلكه ونظامه يغيب ويعود إلى الظهور وقوم إبراهيم يعلمون ذلك فلا يكون ذلك مقنعا لهم .

ولعله اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع بقرب ذلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس .

وقوله"... فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ " قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك مع أنه عرض في كلامه بأن له ربا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب، وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب، ثم عرَّض بقومه أنهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون، لأن قوله" لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ " يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالا، ولأجل هذا التعريض لم يقل:

لأكونن ضالا، وقال " لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ " ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه .

وإنما تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء الهيئة ولم ينفها عنه بمجرد رؤيته بازغا مع أن أفوله محقق بحسب المعتاد ؛ لأنه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول ؛ لأن المشاهدة أقوى .

وقوله " قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ " إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم ؛ لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى .

وقول إبراهيم لما رأى النيرات "هَـٰذَا رَبِّى " هو مناظرة لقومه واستدراج لهم، وأنه كان موقنا بنفي إلهيتها [1].

إن دراسة الآيات الداعية إلى الاكتشاف والبحث عن جواهر المخلوقات وأسرارها الدفينة تفتح للإنسان مجالا واسعا في علوم الإنسان والكون وتهديه إلى الإيمان القائم على العلم[2] .

ك – أسلوب السؤال :

يعرِّف ابن عاشور أسلوب السؤال بأنه اختبار عما عند المسئول من العلم أو من الصدق وضده [3].

والاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب في صورة الحوار لـه قيمـة تربويـة عظيمة، حيث يجعل الجواب أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٣١٩– ٣٢٤

(٢) عبد البديع الخولي : **العلم في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٣٧٣

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ١٧٦

التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صـورة السـؤال والجواب [1]، كما أن افتتاح الكـلام بالاسـتفهام يُعـدّ افتتـاح تشـويق، فهـو مـن الفواتح البديعة ؛ لما فيها من أسلوب عزيـز غـير مـألوف ومـن تشـويق بطريقـة الإجمال ثم التفصيل ؛ ليتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمـل تمكـن [2]، ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو ‹ فإن قلت ›؛ وذلك للاهتمام [3].

وهناك أنواع للسؤال ذكرها ابن عاشور، منها سؤال الاستشارة أو تَطَلُّب العلم، وسؤال الدعاء، وسؤال الاستفادة والاستنباط مثل أسئلة المتفقهين أو المتكلمين عن الحكم المبثوثة في الأحكام الشرعية أو في النظم الكونية ؛ لأن ذلك استنباط وتَتَبُّع [4].

ل – أسلوب الإجمال والتفصيل :

لقد رأى ابن عاشور أن للإجمال بعد التفصيل وقعا من نفوس السامعين [5]، والإجمال مقصود لتذهب أفهام السامعين كل مذهب ممكن، فتكثر خطور المعاني في الأذهان وتتكرر الموعظة والعبرة باعتبار وقع كل معنى في النفس أشد وقع، وذلك من وفرة المعاني مع إيجاز الألفاظ [6].

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص : ١٥٥
(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠، ص : ٦
(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٦٩٢
(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٧ ، بتصرف ، ص : ٤٦
(٥) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١، ص : ٣٠٢
(٦) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٦١

وقد يكون الإجمال أولا ثم التفصيل، مع الاقتران بالمقدمات والتنائج، وذلك بأن يجيء بالإجمال قبل ظهور البرهان، ويجيء بالتفصيل بعد ظهوره على طريقة المحاجَّة، وهو إجمال الدعوى وتفصيل النتيجة ؛ لأن الدعوى قبل البرهان قد يتطرقها شك السامع بأن يحملها على المبالغة ونحوها وبعد البرهان يصح للمدعي أن يوقف المحجوج على غلطه ونحوه وأن يتبجح عليه بسلطان برهانه، فإن للحق صولة، وهذه طريقة مسلوكة للكتاب والخطباء، وهي ترجع إلى قاعدة أخذ النتائج من المقدمات في صناعة الإنشاء، وأكثر الخطباء يفضى إلى الغرض من خطبته بعد المقدمات والتمهيدات [1].

م – ربط التعليم بأدوات بيئية واقعية :

فكلما كان التعليم مرتبطا ومحققا بأدوات ونماذج واقعية – خاصة في المراحل التعليمية الأولى – كان له أثره الإيجابي في نفس المتعلم، وكان لنواتج التعليم درجة عالية من الرسوخ والثبات في ذهن المتعلم .

وقد استعمل القرآن الكريم في كثير من أمثاله وتشبيهاته عناصر وأدوات كونية وطبيعية يدركها الإنسان ؛ ليكون الوجه المقصود والمعنى المراد أثبت في الذهن بتوضيحه أو تجسيده أو بجعل المعقول محسوسا، وهذا يساعد على إدراك العلاقات بين الأشياء والمقارنة بينها، وهذه مقاصد تربوية هامة للمتعلم .

ويرى ابن عاشور أن التمثيل بالواقع البيئي يلحق الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة؛ لأن النفس إلى المحسوس أميل، فقد ضرب العرب الأمثال

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١، ص : ٤١٨

واستحضر العلماء المثل والنظائر ؛ لإبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق [1].

ن – التدرج في التعلم :

يعد التدرج من المبادئ التي حرص الإسلام عليها في جميع المجالات، فهو مبني على حكمة الله تعالى التي اقتضت أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجا، وأن لا يكون دفعة ؛ لأنه جعل العوالم متولدا بعضها من بعض لتكون أتقن صنعا مما لو خلقت دفعة، وليكون هذا الخَلْق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرج[2].

وللتدرج شقان، الأول يتعلق بالكم أي المقدار المناسب الذي يقدم للمتعلم، والثاني يتعلق بالنوع والكيف أي البدء بالواضح قبل الخفي، والبسيط قبل المركب، والجزء قبل الكل، والعملي قبل النظري [3].

وتطبيقا لهذا المبدأ فقد سلك شعيب – عليه السلام – مع قومه في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج، فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاشٍ فيهم وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كله، وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال [4].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١، بتصرف ، ص : ٣٠٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٨ ، ص : ١٦١

(٣) عبد البديع الخولي : **العلم في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص: ٣٧٩

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص : ١٣٨

س – معاملة المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم :

يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴾ [سورة الكهف٦٥ :٦٨] يجب على المنتصب للتعليم أن يعامل المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم، وقد ذكر "عياض" في باب صفة مجلس مالك للعلم من كتاب "المدارك" أن رجلا خراسانيا جاء إلى المدينة للسماع من مالك فوجد الناس يُلْقون عليه وهو يسمع، ولا يسمعون قراءة منه عليهم، فسأله أن يقرأ عليهم فأَبَى مالك، فاستدعى الخراساني قاضي المدينة، وقال : جئت من خراسان ونحن لا نرى العرض وأَبَى مالك أن يقرأ علينا، فحكم القاضي على مالك أن يقرأ له، فقيل لمالك : أأصاب القاضي الحق ؟ قال : نعم [1].

ع – تنبيه المتعلم بعوارض موضوعات العلوم المُلَقَّنة :

ويكون ذلك إذا كان في معالجة موضوعات العلوم مشقة على المتعلم، يقول ابن عاشور في شأن قصة موسى والخضر : وتأكيد جملة ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ ﴾ [سورة الكهف:٦٧] بحرف ‹ إن› وبحرف ‹ لن › تحقيقا لمضمونها من توقع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه ؛ لأنه علم أنه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف، ولما كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظاهر علم أنه سينكر ما يشاهده من تصرفاته ؛

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٣٧٠

لاختلاف المشربين ولأن الأنبياء لا يقرون المنكر، وهذا تحذير منه لموسى، فمناط التأكيدات في جملة " إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا " إنما هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تتحمل، ولو كان خبرا على أصله – أي مجرد إخبار بعدم الصبر – لم يقبل فيه المراجعة ولم يجبه موسى بقوله : ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾ [سورة الكهف:٦٩] ، وفي هذا أصل من أصول التعليم أن ينبه المعلم المتعلم بعوارض موضوعات العلوم الملقنة، لاسيما إذا كانت في معالجتها مشقة [١].

ف – مراعاة استعداد المتعلمين ونشاطهم لتلقي العلم :

يجب أن يراعي المعلم وقت نشاط المتعلم، فالتعلم شأنه شأن أي عمل يحتاج إلى نشاط واستعداد، بل يحتاج التعلم إلى أكثر من القوة الجسدية، وهي القوة العقلية التي يستطيع بها أن يحقق الأهداف والمهارات التعليمية من فهم وتطبيق وتحليل وتركيب.. وقد عرف ابن عاشور الاستعداد بأنه التهيئة والإحضار [٢].

إن ابن عاشور أشار إلى عملية التهيؤ لمهارتي القراءة والكتابة، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [سورة العلق:١] الأمر بالقراءة مستعمل في حقيقته من الطلب لتحصيل فعل في الحال أو الاستقبال، فالمطلوب بقوله ‹ اقرأ › أن يفعل القراءة في الحال أو المستقبل القريب من الحال، أي أن

(١) المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص : ٣٧٢

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٠، ص : ٥٥

يقول ما سيملى عليه، والقرينة على أنه أمر بقراءة في المستقبل القريب أنه لم يتقدم إملاء كلام عليه محفوظ فتطلب منه قراءته ولا سلمت إليه صحيفة فتطلب منه قراءتها، فهو كما يقول المعلم للتلميذ : اكتب، فيتأهب لكتابة ما سيمليه عليه [1].

ومن طرق التهيئة والاستعداد أيضا، النداء لأجل حضور الذهن، فقد رأى ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٣] أن الموعظة افتتحت بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مُغْنٍ عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام [2]، وأيضا قد افتتح إبراهيم عليه السلام خطابه لأبيه بندائه مع أن الحضرة مغنية عن النداء في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [سورة مريم:٤٢]، وذلك قصدا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه [3].

ويرى الدكتور مصطفى رجب أن من أدوار المعلم التربوية استدرار عاطفة المتعلم، فتكرار كلمة ' يا أبت ' أربع مرات في الآيات التي توجه فيها إبراهيم – عليه السلام – بالخطاب إلى أبيه يدل على أهمية أن يكون تركيز المعلم في أسلوبه التربوي على ما يثير عواطف المتعلمين ويحرك مشاعرهم الانفعالية الإيجابية نحو الموقف التعليمي، فهو بهذا النداء المتكرر يستدر عاطفة الأبوة ويمد جسراً من الثقة بينه

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣٠، ص : ٤٣٥
(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١، ص : ١٥٤
(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٦، ص : ١١٣

وهو النبي العالم - وبين أبيه وهو الجاهل الكافر العنيد، وكانت علاقة الأبوة والبنوة – في تقديره – ستسهم في تحريك مشاعر الرجل، ومن ثم تحريك عقله (١).

كما أن لاستراحة الإنسان ضرورة وأهمية قصوى في تحقيق استعداده ومعاودة نشاطة للقيام بالأعمال المنوطة به، ويكون ذلك من خلال بعض الأمور، أهمها : احتياجه للنوم لمعاودة نشاطه، فحالة النوم - كما يرى ابن عاشور - حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان ؛ إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانونا يسترد به قوة مجموعه العصبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده فيعتريه شبه موت يخدر إدراكه ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقدارا كافيا لاسترجاع قوته فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة، ففي النوم نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت، ثم هبوب إلى العمل وطلب الرزق (٢).

وقد أشار ابن عاشور إلى أهمية الراحة واختيار الزمن المناسب للتعلم ؛ مراعاة لحالة المتعلمين ووفقا للطبيعة التي فطر الله الناس عليها وكذا السنن الكونية، حيث امتنَّ الله تعالى على الناس بخلق نظام النوم فيهم ؛ لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم، فالله تعالى جعل النوم حاصلا للإنسان بدون اختياره، فالنوم يُلْجِئ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي ركنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجد العصب

---

(١) مصطفى رجب : **الإعجاز التربوي في القرآن الكريم** ، مرجع سابق ، ص : ١٧٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص : ٧٧

قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم، وذلك لطف بالإنسان، وهذا نظام الليل، أما نظام النهار ففيه العمل والتعلم والكسب، والنظامان نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب والآثار، فنعمة الليل راجعة إلى الراحة والهدوء، ونعمة النهار راجعة إلى العمل والسعي ؛ لأن النهار يعقب الليل فيكون الإنسان قد استجد راحته واستعاد نشاطه ويتمكن من مختلف الأعمال بسبب إبصار الشخوص والطرق (١)، ولا أروع وأعظم وأدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [سورة النبأ ١٠ :١١].

ويؤخذ مما سبق أنه على المربي أو المعلم مراعاة حالة المتعلمين النفسية والبدنية، فإن كانت حسنة فيبدأ تعليمه، وإن كانت غير ذلك بأن أصابها إعياء أو غلبة النوم فلا يبدأ تعليمه، وعليه أيضا اختيار الوقت الملائم للتعلم، وهو وقت النهار وخاصة أوله ؛ لأنه يكون بعد راحة الليل، ففيه الاستعداد ومعاودة النشاط .

ومجمل الأمر، فقد حدد ابن عاشور ما يعين على تحقيق الثمرة المرجوة من الأساليب والطرق السابقة وتعين على صلاح العمل وتيسيره، وهي النظام والتوقيت والدوام وترك الكلفة والمبادرة والاتقان (٢).

خامسا : آداب المعلم:

لقد رأى ابن عاشور أن إصلاح حال المعلمين هو ركن عظيم من إصلاح التعليم، بل هو إصلاح التعليم بأثره وإصلاح للأمة ؛ لأن منافع الأمة المجتباة

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص : ١٩ ، ٢١

(٢) ابن عاشور : **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام** ، مرجع سابق ، ص : ٧٧ – ٧٨

من إصلاح المعلمين_تُعْرف من المضار التي لحقت من تقصيرهم، وأهمها هو بقاء الأمة في قناعتها بحالتها وعاداتها تأسيا بسكوت العلماء الذين هم قدوتها، ولو تنبَّه العلماء لواجبهم وواجبها لعرفوا معنى الصلاح وشعروا بخطر الحال، وللمحوا الدنيا الجديدة التي تحفّ بهم فعملوا لدينهم وأمتهم وانتشلوها من أوحال السلوك، ولعرفوا كيف يسلكون لإقناع طلبة العلم بوجوب الإصلاح، ولاتحدوا فيما بينهم على رسم الطريق، ونبذوا ذلك الخمول الذي حجبهم عن النظر الخبير، راضين آمنين واثقين بالاستقامة والشوكة [١].

وعلى ذلك يرى ابن عاشور أنه يجب أن تتوافر عدة آداب إسلامية في العالم أو المعلم حتى يقوم بمهمته السامية أجلّ قيام، أهمها :

أ - البدء بالحمد والثناء، وتخير الأوقات المناسبة للتعلم، قال ابن عاشور : وجه مشروعية تسمية الله تعالى عند الشروع في الأفعال ؛ ليكون اقتران ابتدائها بلفظ اسمه تعالى مفيضا للبركة على جميع أجزاء ذلك الفعل، ولهذا أيضا طلبت منا الشريعة تخيُّر أكمل الحالات وأفضل الأوقات للشروع في فضائل الأعمال ومهمات المطالب [٢].

ب - ألا يكتم علما يستفيد منه الناس، وعليه معرفة أحوال طلاب العلم، وألا يذكر للظالم علما أو رخصة يتمادى منها إلى مفسدة [٣]، وقد أشار الشيخ الطاهر ابن عاشور إلى الآداب الثلاثة السابقة عند تفسيره لقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٥٩] .

---

(١) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٩٨ - ١٩٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤٠٠

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢ ، ص : ٧٠ - ٧١

ويرى الدكتور " سعيد إسماعيل علي " أن من حسن معاملة المعلم لطلابه أن يستعلم أسماءهم ومواطنهم وأحوالهم، ويذكر من يغيب منهم بالخير مع السؤال عن سبب الغياب (١).

ج - الرسوخ في العلم، والراسخون في العلم هم الذين تمكنوا في علم الكتاب ومعرفة محامله وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى، بحيث لا تروج عليهم الشُّبَه، ويدل الرسوخ على كمال العقل والعلم بحيث لا تضلله الشبه، ولا تتطرقه الأخطاء غالبا، وهم أيضا الثابتون في العلم العارفون بدقائقه، فهم يحسنون مواقع التأويل ويعلمونه، وبعيدون عن التكلف وعن التعنت، فليس بينهم وبين الحق حاجب، فهم يعرفون دلائل صدق الأنبياء، ولا يسألونهم خوارق العادات (٢).

د - من آداب العالم أنه إذا اختلف مع غيره من العلماء في أمر علمي فعليه أن يردّ الأمر إلى الله تعالى ورسوله، فقد يحدث تنازع بين أهل العلم في شئون الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد والنظر في الأدلة، وهذا ما ورد في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى: ﴿... فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النساء:٥٩]، فقال: من التنازع اختلاف أهل العلم في الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد والنظر في أدلة الشريعة، فكل هذا الاختلاف والتنازع مأمور أصحابه برد أمره إلى الله والرسول، ورد كل نوع من ذلك يتعين أن يكون

(١) سعيد إسماعيل علي: **اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١م، ص: ١٠٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ١٦٤ ، ج٦ ، ص : ٢٨

بحيث يرجى معه زوال الاختلاف، وذلك ببذل الجهد والوسع في الوصول إلى الحق الجلي في تلك الأحوال [1].

هـ - الطاعة لله ورسوله، والدعاء بطلب الهداية، يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة النساء٦٦ :٦٨] أي لفتحنا لهم طرق العلم والهداية ؛ لأن تصديهم لامتثال ما أمروا به هو مبدأ تخلية النفوس عن التعلق بأوهامها وعوائدها الحاجبة لها عن درك الحقائق، فإذا ابتدءوا يرفضون هذه المواقع فقد استعدوا لتلقي الحكمة والكمالات النفسانية ففاضت عليهم المعارف يتبع بعضها بعضا وبدلالة بعضها على بعض وبتيسير الله صعبها بأنوار الهداية والتوفيق، ولا شك أن الطاعة مفتاح المعارف بعد تعاطي أسبابها [2].

و - من سمات العلم والعالم اعتمادهما على الأدلة والفكر دون المشاعر والانفعالات، فالخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل - كما يرى ابن عاشور - لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس، فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزجر والسوط ونحوهما، ويزول بزواله حتى يعاوده مثله[3]، ومن سمات العالم أيضا الحكمة، فهي - كما يرى ابن عاشور - تعليم

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١٠٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٥ ، ص : ١١٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ١٨٦

لمتطلبي الكمال من معلم يهتم بتعليم طلابه، ولا تكون إلا في حالة حسنة [1].

ز - تقبل النقد من الآخرين، يقول ابن عاشور : لم يزل العلماء يخطئون أساتذتهم وأئمتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص [2].

ح - الدعوة إلى اتباع علمه باللين والرحمة، فالتربية - كما يقول ابن عاشور - تكملة للوجود، والرحمة حفظ للوجود من انتهاكه [3]، ويقول أيضا في تفسير قول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [سورة مريم:٤٣] إن إعادة ندائه بوصف الأبوة ؛ تأكيدا لإحضار الذهن، ولإخلاص النصيحة المستفادة من النداء الأول [4].

ط - احترام المتعلمين ومراعاة مشاعرهم، فلقد علمنا القرآن الكريم كيف نحترم ونقدر المتعلم ونشفق عليه، ويدل على ذلك تصغير كلمة "يَٰبُنَيَّ" في قوله تعالى : ﴿... يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ ...﴾ [سورة لقمان:١٣] وذلك لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إخلاص النصح وحب الخير، وفي ذلك حثٌّ على الامتثال للموعظة [5].

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص : ٣٢٩

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٧ ، ص : ٣١٥

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٧٣

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٦ ، ص : ١١٥

(٥) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١، ص : ١٥٥

سادسا : آداب المتعلم :

يرى ابن عاشور أنه يجب أن تتوافر عدة آداب إسلامية في المتعلم، ومن أهم هذه الآداب :-

أ – التواضع للعلماء واحترامهم وتقدير علمهم، ويؤصل ابن عاشور لهذا المبدأ من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ...﴾ [سورة البقرة:٣٠]، فيرى احتمال كون الغرض من قول الملائكة هو تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسدّ منه رأيا وأرجح عقلا فيشير ثم يفوض كما قال أهل مشورة بلقيس، إذ قالوا:﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النمل:٣٣] ، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مبلغ علمه وأن القول الفصل للأستاذ(١).

ويرى ابن عاشور أن من صور التواضع للعلماء إقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم، وهذا من رفع درجاتهم في الدنيا بالتفضيل والكرامة (٢)، قال تعالى : ﴿...يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة المجادلة:١١].

ويشير الفخر الرازي إلى جوانب من تواضع موسى-عليه السلام- مع معلمه الخضر، منها (٣):

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص : ٤٠٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٨ ، ص : ٤١ – ٤٢

(٣) الفخر الرازي : **مفاتيح الغيب** ، مصدر سابق ، ج١٥ ، ص : ١٤٣ ، ١٤٩، ١٥٣

١- أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، فقال تعالى : ﴿...هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [سورة الكهف:٦٦] .

٢- أن العبد الصالح " الخضر " أظهر الترفع على موسى حين قال له : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الكهف:٦٨]، أما موسى عليه السلام فأظهر التواضع له، حيث قال: ﴿...وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[سورة الكهف:٦٩].

٣- إن قول موسى للخضر عليهما السلام : ﴿... سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الكهف:٦٩] تواضع شديد وإظهار للتحمل التام، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات، أما المعلم فإن رأى في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وإرشادا للخير فالواجب عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور، وذلك يمنعه من التعلم .

إن الحرص على كرامة الأساتذة مبدأ هام وأساسي، بدونه يفقد الأساتذة مكانتهم التي هي معبر رئيسي لحسن التعليم [(١)].

ب - اتباع المعلم والاقتداء به، وهذا ما أكده ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[سورة الكهف:٦٦]، وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [سورة الكهف:٧٠]،

---

(١) سعيد إسماعيل علي : <u>اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي</u>، مرجع سابق، ص : ٣١٦

حيث رأى أن في هذا إشارة إلى أن حق المعلم على المتعلم هو اتباع المتعلم له والاقتداء به [1].

ج- الصبر والطاعة للمعلم، وتخير الوقت المناسب لسؤال المعلم، يقول ابن عاشور في شأن قصة موسى والخضر: إن قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾ [سورة الكهف ٦٩ :٧٠]، أبلغ في ثبوت الصبر .. ولما كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة ؛ إبلاغا في الاتسام بأكمل أحوال طالب العلم، فجملة " ولا أعصي لك أمرا " معطوفة على جملة " ستجدني "، وفي هذا دليل على أن أهم ما يتسم به طالب العلم هو الصبر والطاعة للمعلم، وإيذانا بأن الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج ؛ لأن خلو ذهنه من العلم لا يخرجه من مشاهدة الغرائب، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها، فالمتعلم الذي له نصيب من العلم، وجاء طالبا الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة، وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه، فَلِتَجَنُّب ذلك خشي الخضر أن يلقى من موسى هذه المعاملة، فقال له : ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الكهف ٦٧ :٦٨] فأكد له موسى أنه يصبر

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٣٧٠

ويطيع أمره إذا أمره، كما نهاه عن السؤال عن شيء مما يشاهده من تصرفاته حتى يبينه له من تلقاء نفسه ؛ تحقيقا لحصول أكمل أحوال المتعلم مع المعلم ؛ لأن السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسئول بإكمال عمله فتضيق له نفسه، فربما كان الجواب عنه بدون شره نفس، وربما خالطه بعض القلق فيكون الجواب غير شافٍ، فأراد الخضر أن يتولى هو بيان أعماله في الإبان الذي يراه مناسبا ؛ ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين [1].

د - السعي للتعلم واستمراريته واتقانه، يقول ابن عاشور في بيان قول الله ﷻ : ﴿... تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ...﴾ [سورة المائدة:٤] : هذا حال قصد بها الامتنان والعبرة والمواهب التي أودعها الله في الإنسان، إذ جعله معلما بالجبلة من يوم قال : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ...﴾ [سورة البقرة:٣٣] ، وبالمواهب التي أودعها الله فيه جعله قابلا للتعلم، فعلى كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علما وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه وعضّ عند لقاء النحارير أنامله [2].

واستمرارية التعلم تعني أن العلم بحر لا قرار له ولا شطآن له، وكلما تعمق طالبه فيه تفتحت له فيه أبواب جديدة، وتبينت له معالم كانت خافية وتحتاج إلى مزيد بحث ومزيد تحقيق، من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥ ، ص : ٣٧٣ - ٣٧٤

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٦ ، ص : ١١٥

الزيادة منه على الدوام وأن يستمر في طلبه ما عاش، فالعلم يحتاج دوما إلى تجديد ونماء، وليس بعد أمر الله لرسوله بيان:﴿...وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[سورة طه:١١٤]، وفي هذا تلطف مع النبي - ﷺ - إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً (١).

هـ - أن يسأل بما يليق برتبته في العلم، يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة البقرة:٦٨]: إن أمْرَهم بهذه الصفات كلها للبقرة هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على سؤالهم، فإن كان سؤالهم للمطل والتنصل فطلبُ تلك الصفات المُشِقَّة عليهم يكون تأديبا على سوء الخلق والتذرع للعصيان، وإن كان سؤالا ناشئا عن ظنهم أن الاهتمام بهذه البقرة يقتضي أن يراد منها صفات نادرة فتكليفهم بهذه الصفات العسير وجودها مجتمعة تأديب علمي على سوء فهمهم في التشريع كما يؤدب طالب العلم إذا سأل سؤالا لا يليق برتبته في العلم (٢).

و - أن يطهر المتعلم نفسه من الأحقاد والذنوب والصفات المذمومة ؛ لكي يصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره، فالذنوب والنقائص الدينية تجعل

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٦ ، ص : ٣١٧

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١، ص : ٥٥٢

عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقَذَر[1]، ولأن العلم - كما يرى الإمام الغزالي - ينبغي أن يصلح القلب ويزكي النفس كما لو علم الإنسان أن عمره ما بقي منه غير أسبوع فبالضرورة لا يشتغل فيه بعلم الفقه والكلام والأصول ؛ لأنه يعلم أن هذه العلوم لا تفيده، بل يشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفاء النفس والإعراض عن علائق الدنيا ويزكي نفسه عن الأخلاق الذميمة ويشتغل بمحبة الله وعبادته [2]، قال رسول الله – ﷺ – : " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب "[3].

والتعلم يستلزم أيضا الإخلاص وتصحيح النية من المتعلم، فالإخلاص في العبادة والعمل والعلم يكون طلبا لرضاه سبحانه وامتثالا لأمره وهو آيل إلى أحوال النية، والنية الصحيحة لا تبطلها الخَطْرَة التي لا تُمْلَك، فمن كان أصل عمله لله وعلى ذلك عقد نيته لم تضره الخطرات التي تقع في القلب ولا تُملك [4] .

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص : ١٤

- الإمام النووي : **مقدمة المجموع (آداب العالم والمتعلم)**، تقديم : أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، ط١ ، مكتبة الصحابة للطباعة والنشر والتوزيع ، طنطا ، ١٩٨٧م ، ص : ٤٤

(٢) أبو حامد الغزالي: **أيها الولد** ، د . ط ، تحقيق : جميل إبراهيم حبيب ، د . ت ، ص : ٤٨

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، رقم (٥٢) ، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، رقم (١٥٩٩) .

(٤) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٣ ، بتصرف ، ص : ٣١٨ - ٣١٩

سابعا : مراحل التعليم ومتطلباتها :-

لقد دعا القرآن الكريم إلى تعميم التعليم، بحيث يشمل الجميع، فقد جاء القرآن في بعض مجادلاته وفي تعرُّضه لقصص الأمم الأخرى معلما للمسلمين وملحقا لهم بعلماء الأمم الأخرى في كل العلوم، حتى تصبح عامة المسلمين مساوية في العلم لخاصة علماء الأمم الأخرى، ويرى ابن عاشور أن هذا معنى عظيم من معاني تعميم التعليم والإلتحاق في سباق التمدين أو المَدَنِيَّة (1).

وقد اقترح ابن عاشور جعل مراحل التعليم ثلاث مراحل، هي المرحلة الابتدائية، والمرحلة الثانوية، والمرحلة النهائية العليا، وجعل لكل مرحلة سِنًّا ومناهج خاصة بها .

وهذا الاقتراح كان لإصلاح التعليم الزيتوني الذي هو في الأصل تعليم ديني مقتصر على العلوم الإسلامية والعربية، ولأنه مفكر ومصلح ديني كان تركيزه على إصلاح العلوم الإسلامية من خلال نقدها وتطويرها، ولكنه — في إطار رؤيته وخطته الإصلاحية الدينية والتربوية - أضاف إلى التعليم الزيتوني علوما عصرية كالكيمياء والفيزياء والرياضيات ...

وقد بدأ ابن عاشور رؤيته الإصلاحية للتعليم الزيتوني بنقد أوضاع التعليم التي كانت سائدة في عصره، حيث بيَّن أسباب تأخر التعليم والعلوم في جامع الزيتونة، وأهم هذه الأسباب من وجهة نظره أن التعليم كاد ينحصر في أسلوب واحد للمراتب كلها، وهو أسلوب الإلقاء دون تمرين شفهي أو كتابي، وهذا لا يحقق الأهداف المرجوة التي وضعها لكل مرحلة، كالاعتناء بما يجعل ذهن

---

(1) ابن عاشور : **التحرير والتنوير**، ج1 ، بتصرف ، ص : 449

التلميذ مراعيا لما تجب مراعاته من القواعد في المرتبة الابتدائية، ليتمكن وهو ناشئ في التعليم من العمل بها علمه أما الهدف في المرتبة المتوسطة هو أن يصير التعليم راميا إلى تقوية التفكير والجمع والتحليل، وفي المرتبة العالية يرمي إلى الاستنتاج والنقد .

كما أن من أسباب تأخر التعليم والعلوم في عصر ابن عاشور فقدان المراقبة على العلوم والتعليم، وإهمال الضبط، وخلو التعليم عن مادة الآداب وتهذيب الأخلاق وشرح العوائد النافعة وغيرها، وسلب التعليم والعلوم حرية النقد الصحيح في المرتبة العالية، وضعف الملكات اللسانية، وخلو التعليم عما يفيد التلاميذ من اطلاعهم على أحوال الأمم الماضية، والتاريخ الإسلامي وتراجم رجاله، وتاريخ الأمم المعاصرة وتاريخ الحضارة [1].

لأجل هذا كان المقصد العام والأساسي من عملية الإصلاح التعليمي لدى ابن عاشور يكمن في النهوض بالمستوى العلمي والمحافظة على المكانة الاجتماعية والحضارية والصبغة الشرعية لجامع الزيتونة بوصفه مؤسسة تربوية إسلامية [2].

أما عن المراحل الثلاثة التي اقترحها ابن عاشور فالأولى هي الابتدائية، وينتسب إليها من بلغ السنة الرابعة من العمر وتنتهي بالثانية عشر منه، ويُحْرَص على تعليمه فيها القرآن الكريم الذي يفترض حفظ أجزاء منه للقيام بالواجبات

(١) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٠١ – ١١٨

(٢) خالد الطرودي : المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي** ، مرجع سابق ، ص : ٥٦٨

الشرعية التي ينبغي احترامها، ويحسن أن يضاف إليها تعليم مبادئ بعض الفنون مثل مبادئ النحو والعبادات والحساب والجغرافياولا ينتقل التلميذ إلي التعليم الثانوي إلا بعد أن يحضر للامتحان، فإن ظهرت عليه النجابة يمنح شهادة يمكن له بها الانخراط في سلك متعلمي الثانوي، كما يجب على الدولة مراقبة المؤدبين (المعلمين) المنتصبين لتعليم الصبيان، وأن تراقب معارفهم ومحفوظاتهم وتختبر أخلاقهم وسيرتهم (١).

ويرى ابن عاشور أن أول ما يبدأ تعلمه للتلميذ وتحتويه المناهج والمؤلفات التعليمية في المرحلة الأولى هو تعلم أسماء الذوات كنوع من التدرج، فيقول في إطار تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ...﴾ [سورة البقرة:٣١]: الظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها أو استحضارها أو إفادة حصول بعضها مع بعض، وهي - أي الإفادة - ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف، فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداءً أسماء الذوات من الموجودات، مثل الأعلام الشخصية، وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء، ومثل اسم جنة، وملك، وآدم، وحواء، وإبليس، وشجرة، وثمرة (٢).

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١١٩
- عمار جيدل : تقويم تدريس علوم الشريعة الإسلامية ، دراسة في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي ، رؤية منهجية معرفية** ، مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ٤٩٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص : ٤٠٩

ورأى أيضا أن من أهم ما تتضمنه مناهج المرحلة الأولى تعليم مهارات اللغة، وهي القراءة والكتابة والتحدث والاستماع، فإنها أول الجوانب التربوية والنفسية للطفل أو المتعلم،وأهم وأعظم وسائل التواصل والتخاطب والتفاهم، وهي سمة خاصة بالإنسان دون غيره من خلق الله تعالى، فبها يتعايش الإنسان عيشة تفاعلية مع غيرة، وبها يفكر ويستنتج ويعبر ويحصل العلوم .

ولما كانت اللغة بهذه الأهمية القصوى كان لزاما على الوالدين تعليم أول ما يتعلم الطفل مهارات اللغة، وكان لزاما على المؤسسات التعليمية أن تبدأ بتعليم هذه المهارات.

وأهم هذه المهارات تعلم القراءة وتعلم الكتابة، فهما - كما ذكر ابن عاشور - حالتا التعلم أي أساس التعلم الحقيقي، فالذي يحفظ كتابا ولا يعرف يكتب لا يعد أميا كالعلماء العُمي، والذي يستطيع أن يكتب ما يلقى إليه ولا يحفظ علما لا يعد أميا مثل النساخ، أما عدمهما معا فهو الأمية [1] .

فالأميون هم الذين لا يقرءون الكتابة ولا يكتبون [2]، وقد عرَّف القراءة أيضا بأنها نطق بكلام معين مكتوب أو محفوظ على ظهر قلب [3].

كما يرى أن من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة تهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنها، كما أن الإقبال على الكتابة والعلم يكون سببا لحفظ القرآن، وأشرف أدوات الكتابة القلم، حيث كُتب به القرآن وكتبت به الكتب

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢١، ص : ١٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٨، ص : ٢٠٨

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٤٣٥

المقدسة وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله تعالى (١).

ولأهمية القراءة والكتابة فقد أشار ابن عاشور إلى أن تحصيل العلوم يعتمد على أمورٍ، منها الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب، فإن بالكتابة أَمْكَنَ للأمم تدوين آراء علماء البشر ونقلها إلى الأقطار النائية وفي الأجيال الجائية (٢).

وفي مهارة التحدث فقد وضع القرآن الكريم ضوابط لها، كالصدق، وألا يكون الحديث لهوا يضل عن سبيل الله، وخفض الصوت إلا لضرورة، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [سورة التوبة:١١٩]، وقال الله ﷻ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ [سورة لقمان:٦] .

ولقد ذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾[سورة الرحمن١ :٤] أن البيان (النطق أو التحدث) هو الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض، وهو الذي تميز به الإنسان عن بقية أنواع الحيوان، فهو من أعظم النعم، أما البيان من غير النطق من إشارة وإيماء ولمح النظر فهو أيضا من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٩، ص :٥٩ – ٦٠

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص : ٤٤١

كما بيَّن أهمية تعليم البيان، حيث علَّم الله تعالى الإنسان أن يبين ما في نفسه ليستفيد ويفيد غيره ؛ لذا خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك وألهمه وضع اللغة للتعارف، كما أن نعمة البيان أجلّ النعم على الإنسان، لأجل ذلك لابد من الاهتمام والتنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان، وهي خصائص اللغة وآدابها(1).

ويفهم من كلام ابن عاشور السابق أن مقصد البيان أو التحدث هو التواصل بين الإنسان وغيره من أفراد مجتمعه والمجتمعات الأخرى، كما أنه يكون السبيل لتحصيل العلوم والمعارف .

ولكون النطق بالصوت، فقد عرف ابن عاشور الصوت بأنه يطلق على الكلام كثيرا ؛ لأن الكلام صوت من الفم، وقد حذر القرآن الكريم من ارتفاعه، فقال تعالى: ﴿...وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [سورة لقمان:١٩] ، فرفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير، فله حظ من النكارة (2).

وقد أشار ابن عاشور إلى طريقة تعليم الأطفال، وهي التهجي التي تكون غالبا لتعليم المبتدئ، بحيث يكون حال المتعلم هو العجز عن الإتيان بكلام بليغ، فتستعمل طريقة التهجي التي يُتهجى بها للصبيان الصغار طلبا للخفة، وقد أشار أيضا في تفسيره للكيفية التي يتعلم بها الصبيان بطريقة التهجي، فذكر أنها تعليم للحروف المقطعة، ثم يتعلمونها مركبة (3).

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٢٧، بتصرف ، ص : ٢٣٣

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١٥، ص : ١٥٣ ، ج ٢١ ، ص : ١٦٨

(٣) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، بتصرف ، ص : ٢١٢ - ٢١٣

أما مهارة الاستماع والإنصات فيعرفهما ابن عاشور ويبين قيمتهما من خلال تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف:٢٠٤] ، فالاستماع هو الإصغاء، والإنصات هو الاستماع مع ترك الكلام، ويجوز أن يكون الاستماع هو الامتثال للعمل بما في المسموع، ويكون الإنصات جامعا لمعنى الإصغاء وترك اللغو، فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول - ﷺ - المفضي إلى الإيمان به، ولِمَا جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع والإنصات مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، ولهما مراتب بحسب مراتب المستمعين [١].

ويقترح ابن عاشور عدة وسائل تعين على تعلم مهارات اللغة، منها مخالطة أهل اللغة، وإنشاء مدارس خاصة لتعليم اللغة، ومزاولة التلاميذ للكلام الفصيح [٢].

أما المرحلة الثانية فهي الثانوية، وينتسب إليها من كانت سِنُّه ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة من العمر، ويتعلم فيها التلميذ النحو والإنشاء بصفة أرقى من المبادئ، والأدب، والمنطق والبلاغة (يتعاطاها المتعلم في العامين الأخيرين من مدة التعليم)، والتوحيد، والفقه، والتاريخ والجغرافيا، والحساب والهندسة، وعلم الطبيعة، ومعرفة مبادئ مسك الدفاتر (الإدارة)، وعلم المعاملات [٣]

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٩ ، ص : ٢٣٩

(٢) ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، بتصرف ، مرجع سابق ، ص : ١٨٨ .

(٣) راجع كلا من :

- المرجع السابق ، ص : ١٢٠
- عمار جيدل : **تقويم تدريس علوم الشريعة الإسلامية** ، مرجع سابق ، بتصرف ، ص : ٤٩٦

ويمكن في هذه المرحلة اتباع أسلوب الرحلات التعليمية كنشاط مدرسي يسهم في تكوين شخصية الطالب المعرفية والعملية، يقول ابن عاشور : وشأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامة في الأوطان من اطلاع على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات، فهي تفيد كل ذي همَّة، وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة [1].

ويقع امتحانهم بعد استكمال التعليم الثانوي، وتعطي الشهادة لمن ظهرت عليه النجابة، وبها يتيسر له الدخول مع المتعاطين للتعليم النهائي، ويسهل عليه الانتساب إلى المؤسسات الرسمية أو الدولية .

والمرحلة الثالثة هي التعليم النهائي (العالي)، والعلوم التي تجعل لهذا القسم هي النحو بصفة أرقى من التعليم الثانوي، والبلاغة، والأدب، والمنطق، والفقه، والفرائض، والأصول والحديث، والتوحيد، والمصطلح، والتفسير، والقوانين الإدارية أو علم الحقوق، والتاريخ العام والجغرافيا، والعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك، وعلم العمران والاجتماع، وعلوم الحكمة، وعلوم البيئة، وعلم السياسة والاقتصاد، وعلم الكيمياء والأحياء وعلم الطب [2].

ويرى الباحث أن هذه المراحل التي اقترحها ابن عاشور تعدّ إصلاحا للتعليم الزيتوني – آنذاك – من وجهة نظره الخاصة بالإصلاح في عصره، ولكن

---

(1) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٧ ، ص : ٢٨٨

(2) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج ٣ ، ص : ٦٢
- ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ١٢٠
- عمار جيدل : **تقويم تدريس علوم الشريعة الإسلامية** ، مرجع سابق ، بتصرف ، ص: ٤٩٧

ليس بالضرورة أن تكون هي الأساس الوحيد لإصلاح الواقع التعليمي الآن، فهناك العديد من الدراسات والمقترحات على مدار السنوات السابقة تحاول إعادة النظر في هذه المراحل ومدة كل مرحلة ومناهجها، فعلى سبيل المثال تم إلغاء الصف الرابع الثانوي من التعليم الأزهري، وإلغاء الصف السادس الابتدائي وعودته مرة أخرى في التعليم العام، كما تم إلغاء مواد دراسية وإضافة أخرى تناسب متغيرات العصر، وبالتالي لا يمكن أن يكون اقتراح ابن عاشور الخاص بالمراحل التعليمية هو النموذج الوحيد الذي يُنفَّذ نصًّا في وقتنا الراهن، بل يمكن الاستفادة من بعض جوانبه فقط كتجربة وخبرة إصلاحية تربوية معاصرة .

ثامنا : التقويم عند ابن عاشور :

لقد لاحظ ابن عاشور عدة نقائص في طرق التقويم وتراتيبه، منها : كثرة الأسئلة التي دفعت المترشح إلى استحضار مواد متعددة، وأفضى إلى تكوين سطحي تلاشت معه المكتسبات المعرفية، بل تمحى من ذاكرة الطلاب، ونوعية الأسئلة من حيث كونها حاملة على الحفظ والاستظهار دون فهم ولا نقد، وقصور التلميذ في تطبيق القواعد لانشغاله بالحفظ والاستظهار، ومطالبة التلميذ بحل الألغاز وغرائب المسائل بدل مطالبته بالإجابة عن مواضيع متوسطة يحتاج إليها، ولجوء التلميذ إلى ارتكاب الغش في الامتحانات ؛ لسوء يقظة المراقبين.

ولم يكتف الشيخ ابن عاشور بتوصيف الحالة التي كانت عليها الامتحانات ونظامها، بل اقترح عدة أمور لعلاج مشكلات التقويم، منها: التركيز في الامتحان على مدى قدرة المترشح على الفهم والنقد لا الحفظ فحسب، وعدم

التساهل في إسناد الشهادة دون رأفة أو تخفيف ؛ للمحافظة على المستوى العام وحتى يكون المتخرج ذا ذهن قوي وعقل مدرك للحقائق قدير على إيصالها إلى الأذهان، وإنما تكون الرأفة بالتلميذ بإعطائه حقوقه وفي إرشاده لطرق التحصيل، ومن مقترحاته أيضا تعدد طرق الامتحان بين الكتابي والأسئلة الشفهية، وألا يطالب التلميذ بمعرفة غرائب المسائل أو حل الألغاز العلمية، وإنما يطالب بمعرفة المسائل المتداولة التي يحتاج للعمل بها في غالب أحواله العلمية والمتكرر الاحتياج إليها [(١)].

إن التقويم ينبغي أن يقيس جانب الفهم وإدراك العلل ومهارة الاستنباط عند المتعلم، يقول ابن عاشور:"إن الفائدة في ذكر المنافع في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ...﴾[سورة البقرة:٢١٩] هي بيان حكمة التشريع ؛ ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينا دائما وأودعه أمةً أراد أن يكون منها مشرِّعون لمختلف ومتجدد الحوادث " [(٢)].

إن التحقق من قدرة المتعلم على إدراك العلل وإمكانية الاستنباط يمكِّنه من أن يتسم بسمات أهل العلم الذين يتطلبون الحقائق من دلائلها العقلية،

---

(١) راجع كلا من :

- ابن عاشور : **أليس الصبح بقريب** ، مرجع سابق ، ص : ٢٠٦ – ٢٠٩
- خالد الطرودي : المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، **بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية** ، مرجع سابق ، ص : ٥٦٦

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٢ ، ص : ٣٥٠

ويستنتجون الفروع من الأصول، ولا يستخدمون الأقيسة الوهمية والمألوفات العادية كالجُهَّال [1].

وينبغي أن يكون لتقويم وامتحان الطلاب هدف وجداني كتكريمهم مثلا، وفي هذا يرى ابن عاشور أن يسند إلى الكبراء مناولة المكرمات إلى نبغاء التلاميذ في مواكب الامتحان[2].

هذه أهم الأفكار الإصلاحية في منظومة التربية في ضوء تفسير ابن عاشور، ولكن تبقى هذه الأفكار حبرا على ورق ما لم يستفد منها في إصلاح الواقع التعليمي الحالي، ولذلك أعد الباحث في الفصل الخامس تصورا مقترحا لإصلاح الواقع التربوي في ضوء الأفكار الإصلاحية التي قدمها ابن عاشور من خلال تفسيره .

---

(١) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، بتصرف ، ص : ٣٣١

(٢) ابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج٣ ، ص : ٢١

الفصل الرابع
نتائج الدراسة وتوصياتها ومقترحاتها

أولا : نتائج الدراسة:-

إن هذه الدراسة عنيت بالفكر التربوي الإصلاحي عند الشيخ ابن عاشور من خلال تفسيره " التحرير والتنوير، وخلصت إلى جملة من النتائج، **جاءت على النحو التالي :-**

١. إن الإمام ابن عاشور يعد من الأعلام المصلحين والمجددين المعاصرين في دائرة الفكر الإسلامي، الذي تأثر كثيرا بالمدرسة الإصلاحية في المشرق العربي بزعامة الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا، كما أنه تميز بالعلم الراسخ في العديد من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية والاجتماعية .. كما اتصف بإدراك الواقع الذي يعيشه بطريقة مكّنته من الجمع بين الأصالة والمعاصرة في رؤيته واجتهاداته، ويظهر ذلك جلياً من خلال ما تركه الشيخ من تراث علمي، إضافة إلى أقوال العلماء والدعاة فيه وشهاداتهم له بالضلوع في العلوم المختلفة .

٢. يعد تفسير "التحرير والتنوير" من التفاسير ذات القيمة الأدبية والفكرية والعلمية الذي يستفيد منه أي باحث أو دارس في مجال الدراسات الشرعية أو اللغوية أو العلمية أو الإصلاحية التربوية، فقد تناوله كثير من الباحثين والدارسين في العالم الإسلامي كلٌ في مجاله، كما يعد من أهم التفاسير التي تزخر بأساليب التربية الإسلامية الإصلاحية التي تعالج الواقع المجتمعي بما يتفق والرؤية الإسلامية الحضارية .

٣. اعتبار المقاصد القرآنية ومقاصد الشريعة الإسلامية مصدر إصلاح المنظومة التربوية المعاصرة سواء في صياغة الأهداف التربوية الفردية والمجتمعية

والعمرانية أم أساليب التربية وطرق التدريس أم إعداد المعلم .فهذه الرؤية الإصلاحية المقاصدية التي تتفق وأسس الإسلام كانت هي الموجه الأصيل لكل أعمال ابن عاشور في مجال الإصلاح التربوي .

٤. اعتبار الرؤية الكلية الإسلامية للألوهية والكون والحياة والإنسان والقيم والمعارف هي الأساس الفلسفي لوضع رؤية إسلامية تربوية .
٥. حدد الشيخ ابن عاشور أولويات الإصلاح التربوي، وهي البدء بالإصلاح الفردي المتعلق أولا بإصلاح الاعتقاد أو الجانب الروحي، ثم إصلاح التفكير والعمل ؛ للوصول للإصلاح المجتمعي العام .
٦. إمكانية تطبيق فكر ابن عاشور الإصلاحي التربوي والاستفادة منه في إصلاح منظومة التربية المعاصرة سواء عند صياغة الأهداف أم أساليب وطرق التعليم والتعلم أم إعداد المعلم ...
٧. تكامل النظرية التربوية الإسلامية القائمة على المصادر الأصيلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث اهتمت هذه التربية بجوانب الإنسان المختلفة – الجسدية والروحية والعقلية – في آن واحد، بخلاف النظريات الوضعية التي اهتمت ببعض الجوانب وأهملت بعضها الآخر .

ثانيا : توصيات الدراسة:

في ضوء نتائج الدراسة التي توصل إليها الباحث فإنه يوصي بما يلي : -

١. محاولة الكشف عن الجوانب التربوية في حياة وفكر علماء ومفكري الأمة الإسلامية البارزين قديما وحديثا، والذين يدعون إلى أصالة المنطلق في النظريات والآراء التربوية ؛ مما يساهم في تأصيل التربية المعاصرة والرجوع بها إلى مصدرها الأصلي، الكتاب والسنة وتراث العلماء المسلمين .

٢. جعل هذه الدراسة وغيرها من الدراسات التي اعتنت بدراسة فكر علماء الأمة مرجعا للدعاة والمهتمين بتأصيل العلوم التربوية والموجهين والمعلمين وأولياء الأمور والقائمين على المناهج المختلفة والمهتمين بتربية الجيل المسلم، فالمتتبع لمعالم التربية وأساليبها عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في كتبه عامة والتحرير والتنوير خاصة سيجد فيها ما يفيد في تطوير الأساليب التربوية المعاصرة .

٣. إتاحة المؤسسات التعليمية الدينية الفرصة للطلاب لدراسة تفسير ابن عاشور ضمن مناهج مادة التفسير وخاصة في المراحل المتقدمة .

٤. يجب أن تتسم مشروعات إصلاح التربية المعاصرة بالشمولية لجوانب الفرد والمجتمع في ضوء الرؤية المقاصدية القرآنية ومقاصد الشريعة الإسلامية .

٥. العناية بكل مؤلفات الشيخ ابن عاشور والاستفادة منها، وذلك بإبراز فكره التربوي بشكل أوسع مع التركيز على الأفكار الإصلاحية لديه .

ثالثا : مقترحات الدراسة :

يقترح الباحث تصورا لإصلاح الواقع التربوي المعاصر في ضوء ملامح الإصلاح التربوي في تفسير ابن عاشور، حيث يعد الفكر الإصلاحي التربوي لابن عاشور أنموذجا يستفاد منه في تطوير النظم التعليمية في بلادنا الإسلامية، فهو وإن كان فكرا معاصرا إلا أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالتراث الإسلامي التربوي المتأصل في القرآن الكريم والسنة النبوية .

ويقوم هذا التصور المقترح على عدة أسس ومبادئ، أهمها (1):

أ- التوجه التربوي الإسلامي ذو النظرة الكلية للكون والإنسان والحياة، بحيث تكون النظرية التربوية في جميع مبادئها ومعتقداتها ومناهجها تتفق وروح الإسلام والفهم الصحيح لتشريعاته .

ب- اعتبار المقاصد القرآنية والمقاصد العامة للشريعة الإسلامية مصدر إصلاح المنظومة التربوية المعاصرة .

ج- أن تكون الأولوية في الإصلاح التربوي هي البدء بالإصلاح الفردي المتعلق أولا بإصلاح الاعتقاد أو الجانب الروحي، ثم إصلاح التفكير والعمل ؛ للوصول للإصلاح المجتمعي العام .

د- شمولية التربية للإنسان والمجتمع، حيث تشمل عقل الإنسان وروحه وقلبه وبدنه، وتشمل كل الفئات العمرية، فالتربية في ظل هذا المبدأ تهدف إلى تنمية وتهذيب كافة جوانب شخصية الإنسان واستعداداته وقدراته، وإلى المساهمة في تنمية كافة جوانب الحياة في المجتمع، وفي تطوير وتحسين أوضاعه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، والمساهمة في حل مشكلات المجتمع والإعداد للمستقبل .

---

(1) راجع كلا من :

- ابن عاشور: التحرير والتنوير ، ج 1 ، ص : 38 ، ج 2 ، ص : 159 ، ج 8، ص : 158، ج 15، ص: 67

- عمر محمد التومي الشيباني : فلسفة التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص : 30 – 35

هـ- التعددية الثقافية والعلمية بما يتفق وروح الشريعة الإسلامية، وذلك بأن تكون النظرية التربوية الإصلاحية منفتحة على جميع التجارب الإنسانية الصالحة، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها .

و- مراعاة البعد الاجتماعي في التربية لتشمل التربية الأسرية وتربية الأمة والإنسانية كلها، وتأخذ في اعتبارها العديد من العوامل الروحية والثقافية والاقتصادية والنفسية والسياسية التي من شأنها أن تؤثر في العملية التربوية، وتحتوي على مقدار واسع من المبادئ والمعتقدات التي تصلح لتوجيه كافة جوانب العملية التربوية من تحديد للأهداف التربوية ووضع المناهج الدراسية واختيار طرق ووسائل التدريس والتقويم التربوي وأساليب الإدارة التربوية وإعداد المعلمين وتوفير الجو التعليمي المناسب .

ز- مراعاة التوازن عند تحقيق متطلبات كل عناصر المنظومة التربوية، فلا يطغى جانب الأهداف والمناهج على متطلبات المعلم والمتعلم أو العكس،ولا يكون هناك اهتمام بالمعلم دون المتعلم أو العكس ؛ لأن الاهتمام بعنصر دون آخر يفقد الغايات المنشودة من المنظومة التربوية كلها .

ح- مراعاة الطبيعة والفطرة الإنسانية عند تطبيق الإصلاح التربوي وعند صياغة أي نظرية تربوية إصلاحية، بحيث تكون واقعية بعيدة عن الغلو والمثالية الزائدة أو اللفظية التي تقوم على أفكار لا يمكن تنفيذها، كما تتطلب التوازن بين تلبية متطلبات الكمال النفساني والكمال الجسدي، بحيث لا يطغى جانب على آخر، فللإنسان قوتان، إحداهما روحانية مُنْبَثَّة في قرارتها من الحواس الباطنية، والأخرى حيوانية منبثة في قرارتها من

الأعضاء الجسمانية كلها فتغلُّب مظهر إحدى القوتين يكون بمقدار تضاؤل مظهر القوة الأخرى .

ط- أن تكون عملية الإصلاح التربوي خالية من التناقض بين مبادئها بعضها مع بعض من ناحية، وبين مبادئها وتطبيقاتها العملية في المجال التربوي من ناحية أخرى.

ي- المرونة والقابلية للتعديل والتغيير والتطوير في ضوء ما يستجدّ من اجتهادات لأحكام دينية وأبحاث في المجالات التربوية، وما تسفر عنه التجربة العملية في حقل التعليم .

ويشتمل التصور المقترح على الجوانب التربوية الآتية :

أولا : الأهداف والغايات التربوية :

في ضوء الأهداف التربوية المتضمنة في تفسير الإمام ابن عاشور " التحرير والتنوير" وفي ضوء أسس ومبادئ النظرية التربوية الإسلامية المعاصرة يمكن صياغة مجموعة من الأهداف والغايات التي ينبغي أن تحققها التربية المعاصرة، **وذلك على النحو الآتي :**

١- مجال المعارف والمعلومات :

- تكوين التصور الصحيح لدى المتعلم عن حقيقة الإنسان والكون والحياة من المنشأ إلى المصير .
- تنمية القدرات والاستعدادات العقلية التي وهبها الله تعالى للإنسان، كالتفكر والتدبر والتذكر ...
- توجيه قدرات المتعلم العقلية نحو المجال المناسب لتنميتها من خلال الكون المشهود وما يحويه من مظاهر .
- توعية المتعلم بأساليب حفظ الصحة البدنية والنفسية .

- تكوين الشخصية العلمية والثقافية وفق الرؤية الإسلامية بما ينفع المتعلم والمجتمع .

٢- مجال المهارات :

- تعويد المتربي أو المتعلم منذ صغره على آداء العبادات لإصلاح السريرة الظاهرة .
- تدريب المتعلم على استخدام طرق التفكير الصحيح كطريقة حل المشكلات والاستنباط والاستقراء والتفكير الناقد والإبداعي، وتدريبه على مهارات البحث العلمي .
- تحقيق المهارات اللغوية (القراءة والكتابة والاستماع والتحدث) لدى المتعلم، وخاصة في المرحلة الأولى من مراحل تعلمه .
- تدريب المتعلم على حل المشكلات الاجتماعية وتنمية مجتمعه ومحاربة الجهل والخرافات .
- المتابعة المستمرة لسلوكيات المتعلم بالتعاون مع الأسرة والأخصائي الاجتماعي والنفسي في المؤسسة التعليمية، مع تقويم السلوكيات غير المرغوب فيها كالعدوانية والكذب والإهمال ...
- تعويد المتعلم وتعديل سلوكه نحو الاستخدام الأمثل للموارد الكونية أوالطبيعية .
- تدريب المتعلم على القيام بالأعمال التي تسهم في إعمار الكون .
- تنشئة المتعلم على الاهتمام بالتدريب البدني المستمر داخل المؤسسة التعليمية أو خارجها .
- الاهتمام بدور الحواس في اكتساب المعارف والمهارات المختلفة .

٣- مجال القيم والاتجاهات :

- غرس عقيدة التوحيد والعبودية لله تعالى وحده والإيمان بصفاته تعالى .
- غرس الإيمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية والقضاء والقدر واليوم الآخر.
- غرس الإيمان بعدم وجود ممانع لإرادة الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب .
- تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس بالتزام عظيم الأخلاق الإسلامية وآداء العبادات ؛ لتكوين شخصية آمنة مطمئنة بربها وبدينها .
- غرس قيمة المحبة والجمال في نفس المتعلم .
- الربط بين إصلاح العمل وإصلاح النفس التي تقوم على الكمالات والفضائل .
- إيجاد الوازع النفسي أو الديني في نفوس المتعلمين .
- تقدير المتعلم لذاته ولغيره .
- تربية الإرادة القوية الصحيحة لدى المتعلم .
- توعية المتعلم بعدم الوهن والضعف والاستكانة ؛ لتجنب اليأس والمذلة.
- غرس وتنمية قيمة الانتماء إلى الدين الإسلامي واللغة العربية والوطن العربي والإسلامي .
- غرس حب الاطلاع لدى المتعلم في العلوم والمعارف والثقافات المختلفة .
- تحقيق سمة الوسطية والعدل والحرية في نفوس المتعلمين .

- تكـوين العلاقـات الاجتماعيـة المدرسـية الصـحيحة وفـق الضـوابط الإسـلامية القائمـة عـلى المـودة والتعـاون في آداء الأعـمال، سـواء بـين المتعلمين أو بينهم وبين معلميهم .
- إعداد المتعلم ليكون مواطنا صالحا ومكونـا أسرة مسـلمة في المسـتقبل، واصطباغ علاقاته الاجتماعية بالصبغة الإسلامية .
- تربية المتعلم على القيام بمسئولياته المختلفة تجاه نفسه وأسرته ومجتمعه .

ويقترح الباحث ربط العلوم التـي أشـار إليهـا ابـن عاشـور في تفسـيره بالأهداف السابق ذكرها على الوجه الآتي :

أ - علوم تساهم في تحقيق القيم والاتجاهات

- علم الاعتقاد الحق أو علم التوحيد والعقيدة .
- العلوم الشرعية كالفقه وأصوله والمقاصد الشرعية والتفسير والحديث .
- علم النفس وبعض العلوم الكونية .
- علم الاجتماع .
- علم الأخلاق .
- علم الفلسفة .
- العلوم الأدبية .
- علم تهذيب العائلة أو التربية الأسرية .
- علوم التذوق الفني والجمالي .
- ب - علوم تساهم في تحقيق الأهداف المعرفية والمهارية:
- علوم اللغة العربية واللغات الأخرى .
- علم الفلسفة والمنطق .

- علوم الرياضيات كالجبر والهندسة وعلم المساحة وعلم الهيئة وعلم المحركات.
- العلوم الطبيعية كعلم حوادث الجو وعلم طبقات الأرض وعلم الأحياء وعلم الكيمياء وعلم الفلك وعلم الطب .
- علم العمران .

علم المعاملات أو السياسة المدنية .

علم الحقوق .

علم التاريخ والجغرافيا .

علم الاقتصاد السياسي .

علوم الصحة والتغذية .

علوم فنون الدفاع عن النفس .

ثانيا : أساليب التربية وطرق التدريس :-

لقد تناول الباحث أهم طرق التدريس وأساليب التربية في تفسير ابن عاشور في الفصل الرابع من هذه الدراسة، ويقترح الباحث عدة معايير لاستخدام أساليب التربية وطرق التدريس، **منها :**

- أن تعمل أساليب التربية وطرق التدريس على تفجير طاقات وقدرات المتعلمين أو المتربين ؛ لتحقيق المصالح العامة للمجتمع .
- أن تتناسب أساليب التربية وطرق التدريس مع أهداف المرحلة التعليمية والمناهج الدراسية .
- أن تراعي الطريقة المتبعة إعمال حواس المتعلم مع قدراته العقلية .
- تنوع الطرق والأساليب بما يحقق الأهداف التعليمية .

ولربط أساليب التربية وطرق التدريس - وفق رؤية ابن عاشور لها - بالمناهج الدراسية المعاصرة يقترح الباحث ما يلي :

- يستخدم غالبا أسلوب القدوة الحسنة وأسلوب الموعظة وأسلوب التربية بالطاعة والعبادة في المناهج المتعلقة بالمجال العقدي والأخلاقي واكتساب القيم والاتجاهات .
- يستخدم غالبا أسلوب الحوار وأسلوب التعلم الذاتي وأسلوب التعلم الإبداعي والعصف الذهني وطريقة التجارب العملية في المناهج المتعلقة بالمجال المعرفي واكتساب المعلومات وإعمال العقل .
- يستخدم أسلوب الحوار وطريقة الإلقاء والمحاضرة مع التطبيق في مجال فنون اللغة والعلوم الأدبية والعلوم الشرعية والدعوية .
- يستخدم غالبا أسلوب الرحلات التعليمية وطريقة حل المشكلات وأسلوب التعلم التعاوني في المناهج المتعلقة بالمجال الاجتماعي والعمراني .
- تستخدم غالبا طريقة الملاحظة والعروض العملية والممارسة وطريقة الحواس المتعددة في مجال اكتساب المهارات البدنية والمهنية .
- يفيد أسلوب القصة وأسلوب ضرب الأمثال وأسلوب التكرار في المرحلة الابتدائية، أما في المراحل المتقدمة فيفيد غالبا أسلوب الحوار وأسلوب الترغيب والترهيب وأسلوب الموعظة الحسنة وطريقة التعلم الذاتي .. ومن الأساليب والطرق التي تفيد في كل المراحل أسلوب الرحلات والزيارات التعليمية وأسلوب القدوة الحسنة وطريقة العروض العملية والممارسة والتعلم التعاوني .

ثالثا : المعلم :

لقد أورد ابن عاشور في تفسيره عدة آداب للمعلم يمكن الاستعانة بها في وضع تصور لعملية إعداده أكاديميا ونفسيا ومهنيا، **وذلك على النحو الآتي :**

- أن يكون المعلم في ظل التوجه الإسلامي للتربية على علم بمبادئ الإسلام وقيمه ومفاهيمه .
- أن يكون المعلم ملتزما بآداب الإسلام، سواء من حيث المظهر اللائق أم التعامل المنضبط مع الطلاب وزملاء العمل وأفراد المجتمع .
- الجمع بين الحزم واللين أوالترغيب والترهيب حسبما يقتضي الموقف التعليمي .
- تواصل المعلم مع جميع الطلاب مراعيا الفروق الفردية بينهم في القدرات العقلية والميول والاستعدادات، ومراعيا بيئة المتعلمين وعُرْف أقاليمهم .
- الصبر على المتعلمين والتدرج بهم حتى تحقيق الأهداف المنشودة .
- استمرارية المعلم في طلب العلم مع الاطلاع المعرفي والثقافي لمواكبة التطورات الحديثة .
- أن يكون مؤهلا تربويا ونفسيا للقيام بمهمة التدريس وتربية النشء .
- أن يكون دارسا لأحوال الطلاب النفسية والمعرفية والاجتماعية من خلال دراسة العلوم التي تفيده في هذا الشأن كعلم النفس التعليمي وأصول التربية، وكذلك إعداد دورات تدريبية مستمرة للمعلمين .

- تحقيق المساواة بين المتعلمين في المناقشة والتواصل بما لا يؤدي إلى التفرقة ونشر بذور الكراهية بينهم أو الشعور بالظلم، وهذه المساواة لا تمنع من تمييز المجد منهم عن المقصر .
- أن يكون على وعي تام بالمنهج التعليمي وأهدافه، مع تعدد طرق التدريس وأساليب التربية لديه .
- أن ينبه المتعلمين إلى صعوبات المنهج التعليمي ومشكلاته ومتطلباته .
- التواصل مع إدارته ومع أولياء أمور الطلاب ؛ لإطلاعهم على مستوى طلابه، والمشاركة في معالجة مشكلاتهم .
- رابعا : المتعلم :-
- إذا كان الهدف العام للتربية الإسلامية هو إعداد وتنشئة الإنسان الصالح المؤمن بربه النافع لنفسه ولمجتمعه ذي الأخلاق الفاضلة والثقافة المتنوعة والفكر المستنير - فإن الباحث يقترح عدة متطلبات تتعلق بإعداد المتعلم على نحو يحقق الأهداف المنشودة، أهمها :
- بناء المتعلم بناء كليا يشمل الجانب الروحي والعقلي والجسدي.
- إكساب المتعلم مهارات اللغة العربية .
- غرس مبادئ وأصول الإسلام الوسطية الصحيحة في نفس المتعلم بعيدا عن التطرف .
- تعديل سلوك المتعلم إن حاد عن الطريق الصحيح .
- إعداد المتعلم علميا لخدمة المسلمين وتحقيق نهضتهم .
- العمل على انفتاح المتعلم على الثقافات الأخرى بما لا يخل بأخلاقيات الإسلام .

- التحاق المتعلم بالمؤسسات التعليمية الرسمية أو غير الرسمية في سن مبكرة .

ويجب على المتعلم أن يتسم بالأخلاق الإسلامية، ومنها :

- التواضع واحترام معلميه .
- الاقتداء بالمعلم الصالح .
- الصبر والطاعة للمعلم .
- استمرارية التعليم لديه، والجد في طلب العلم .
- كما يقترح الباحث مقترحات أخرى تفيد الباحثين في مجال التربية الإسلامية ومجال دور مفكري الأمة الإسلامية في الإصلاح والتجديد التربوي، هي :
- دراسة تطبيق الإصلاح التربوي عند ابن عاشور في التعليم المعاصر .
- وضع رؤية فلسفية لبناء الأهداف والمناهج التربوية في ضوء المقاصد القرآنية .
- دراسة قضية مركزية القرآن الكريم في إنتاج المعرفة ودلالاتها التربوية .
- دراسة المقاصد التربوية للقصة القرآنية في تفسير ابن عاشور .
- دراسة المقاصد التربوية للأمثال القرآنية في تفسير ابن عاشور .

- دراسة المقاصد التربوية لأسلوب الترغيب والترهيب في تفسير ابن عاشور
- دراسة قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في تفسير ابن عاشور وآثارها التربوية .
- دراسة دور المقاصد القرآنية ومقاصد الشـريعة الإسلامية في تفسير ابن عاشور في الوحدة المجتمعية من خلال التكوين الأسري .
- دراسة تربية المرأة المسلمة في تفسير ابن عاشور .
- دراسة المنهج الفقهي في تفسير ابن عاشور وتطبيقاته التربوية .
- دراسة الإصلاح العمراني في تفسير ابن عاشور ودلالاته التربوية .
- **وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

المصادر والمراجع

أولا : المصـــادر :-

ابن القيم الجوزية : إعلام الموقعين، ج٣، تحقيق : طه سعد ، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٣م .

ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق :عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، ١٩٩٣م .

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي : السنن الكبرى، تحقيق : محمـد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣م.

أبو حامد الغزالي : أيها الولد، د، ط، تحقيق: جميل إبراهيم حبيب ، د، ت.

أحمد بن محمد الفيومي : المصباح المنير في غريب الشـرح الكبير للرافغي، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.

الإمام النووي : مقدمة المجموع، آداب العالم والمتعلم، تقديم : أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، ط١، مكتبة الصحابة للطباعة والنشر والتوزيع، طنطا، ١٩٨٧م .

الحسين البغوي : تفسير البغوي ' معالم التنزيل '، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة، وسليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٧م .

العز بن عبد السلام : قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق : محمود الشنقيطي، ج١، ط١، دار المعارف، بيروت، د . ت .

سليمان بن الأشعث الأزدي (أبو داود) : سنن أبي داود، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، د . ت .
عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش، ط١، دار يعرب للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م .
فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ .
مالك بن أنس بن مالك : موطأ مالك، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥ م .
محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م .
أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ط٢، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٥م .
مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق : محمد الطاهر الميساوي، ط٢، دار النفائس، عمان، الأردن، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١م.
محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الاسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، ط٢، دار السلام بالقاهرة، ودار سحنون بتونس، ٢٠٠٦م.
محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : هشام سمير البخاري، ط١، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م.

محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٣م.

محمد بن عيسى الترمذي : سنن الترمذي، تحقيق : بشار عواد معروف، ط١، الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م .

محمد بن يزيد القزويني ' ابن ماجه ' : سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط١، دار الرسالة، بيروت، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م.

محمد جمال الدين القاسمي : موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

محمد رشيد رضا : تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

مسلم بن الحجاج النيسابوري : صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د . ت .

ثانيا : المراجع العربية :-

أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م .

أحمد الريسوني : مدخل إلى مقاصد الشريعة، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠١٠ م .

أحمد اللقاني، علي الجمل : معجم المصطلحات التربوية المعرفية في المناهج وطرق التدريس، ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٩م.

أحمد فؤاد عليان : طرق التعليم التربوية في السنة النبوية، دار المسلم، الرياض، ١٤٢١هـ.

إسماعيل الحسني : نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، ط١، صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

الصادق الزمرلي : أعلام تونسيون، ط١، تقديم : حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م .

إياد خالد الطباع : محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، ط١، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥م .

بلقاسم الغالي : من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور، حياته وآثاره، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٦م.

جمال الدين عطية : نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م .

حامد عمار: الإصلاح المجتمعي،الدار العربية للكتاب،القاهرة، ٢٠٠٦م.

حسن بن علي الحجاجي : الفكر التربوي عند ابن القيم، ط١، دار حافظ للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٨م .

الفكر التربوي عند ابن رجب الحنبلي، ط١، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٩٩٦م .

خالد بن حامد الحازمي : أصول التربية الإسلامية، ط١، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ٢٠٠٠م .

خير الدين الزركلي : الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

سعيد إسماعيل علي : السنة النبوية رؤية تربوية، ط١، داراالفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م .

القرآن الكريم رؤية تربوية، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م .

أصول التربية الإسلامية، ط٢، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧م.

اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١م .

شوقي السيد الشريف: معجم مصطلحات العلوم التربوية، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠م.

عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان ‹ دراسة قرآنية ›، ط٢، دار المعارف، القاهرة، د . ت.

عبد الحميد أحمد أبو سليمان : الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م .

عبد الرحمن النحلاوي : أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٣هـ .

عبد الرحمن بن زيد الزبيدي : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، ط ١، مكتبة المؤيد، الرياض، السعودية، ١٩٩٢م .

عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب : الفكر التربوي عند ابن سينا، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م .

عبد العزيز كامل : مع الرسول والمجتمع في استقبال القرن الهجري الخامس عشر، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، د. ت .

عبد العليم إبراهيم : الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م.

عبد الكريم حامدي : مقاصد القرآن الكريم من تشريع الأحكام، ط١، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٨م.

عبد المنعم النخلي : آثار الشيخ محمد النخلي سيرة ذاتية وأفكار إصلاحية، تحقيق : حمادي الساحلي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م .

عصمت نصار: الفكر المصري الحديث بين النقض والنقد، ط١، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٧م .

علي أحمد مدكور: منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٧م .

مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م .

نظريات المناهج العامة، ط١، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩١م .

عمر محمد التومي الشيباني : فلسفة التربية الإسلامية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبـيا، ١٩٨٨م .

من أسس التربية الإسلامية، ط٢، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٢م .

فهد عبد الرحمن الرومي : منهج المدرسة العقلية في التفسير، ج١، ط٣ ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٩٧هـ .

كمال زيتون : التدريس نماذجه ومهاراته، ط١، دار عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.

ماجد عرسان الكيلاني : تطور مفهوم النظرية التربوية، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٥هـ.

مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٩٣م .

محروس سيد مرسي : التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م .

محمد بن إبراهيم الحمد : مدخل لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، ط١، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م .

محمد الحبيب ابن الخوجة : شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، ج١، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨م.

محمد الخضر حسين : تونس وجامع الزيتونة، جمعه وحققه : علي الرضا التونسي، ط١، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧١م .

محمد السيد أرناؤوط : الإسلام والتربية البيئية، ط١، دار الأمل، القاهرة، ٢٠٠٠م.

محمد السيد الوكيل : قواعد البناء في المجتمع الإسلامي، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ١٩٨٦م .

محمد الفاضل ابن عاشور : التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، الكتاب الثالث عشر، السنة الثاتية، مايو ١٩٧٠م .

تراجم الأعلام، الشركة التونسية للطباعة والنشر، تونس، ١٩٧١م .

محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون، ج١، ط٧ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

محمد خير رمضان يوسف : معجم المؤلفين المعاصرين، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٤م .

محمد عبد الغنى حسن : حسن العطار، القاهرة، دار المعارف، سلسلة نوابغ الفكر العربي، ١٩٦٨م .

محمد عثمان نجاتي : القرآن وعلم النفس، ط٧، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م.

محمد عمارة : رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧م .

جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨م .

الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨م.

الأعمال الكاملة لمحمد عبده، ج ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢م .

محمد عمارة : المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٥م.

أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، سلسلة الإسلام دين الحياة، الكتاب الخامس، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م .

محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ، ١٩٤٥م .

محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م .

محمد محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، د . ت .

محمود غباين : التعلم الذاتي بالحقائب التعليمية، ط١، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠١م.

مصطفى رجب: الإعجاز التربوي في القرآن الكريم، ط١، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٦م.

مصطفى كامل : هذا هو منهج الإسلام في التربية، ط١، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م .

مقداد يالجن : دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م .

منى علي السالوس : دور التربية الإسلامية في تنمية المجتمع، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ومكتبة دار القرآن، الشرقية، مصر، ٢٠٠٨م .

هيا ثامر مفتاح العلي : الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٤م .

ثالثا : الرسائل العلمية :-

أحمد بن محمد بن قاسم مذكور : المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران، رسالة ماجستير، ٢٠٠٨م، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة .

استدراكات ابن عاشور على الرازي والبيضاوي وابن حيان في تفسيره التحرير والتنوير، رسالة دكتوراه، ٢٠١١م، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى .

إياد محمد صالح الشامي :الشيخ الألباني منهجه وآراؤه في معالجة بعض المشكلات التربوية المعاصرة، رسالة ماجستير، ١٤٢٦هـ، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة .

بلغيث بن أحمد الغانمي : منهج التربية الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم وتطبيقاته من خلال البيئة المدرسية، رسالة ماجستير، ١٤٢٩هـ، كلية التربية، جامعة أم القرى .

جمال محمود أبو حسان : تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية ونقدية، رسالة ماجستير، ١٩٩١م، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية .

رانية جهاد الشوبكي : الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسير التحرير والتنوير (المعاني والبديع)، رسالة ماجستير ٢٠٠٩م، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة .

زكريا أحمد عبد الرحيم ربايعة : الفكر التربوي عند الإمام السيوطي، رسالة ماجستير، ٢٠٠٠م، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك .

سامية أحمد فرغلي: توجيهات سياسات الإصلاح التربوي في التعليم ما قبل الجامعي في مصر منذ تسعينيات القرن العشرين، رسالة دكتوراة، ٢٠٠٩م، كلية التربية، جامعة عين شمس .

عبد الله بن سعيد الزبيدي : أسس التوجيه والإرشاد من منظور التربية الإسلامية، رسالة ماجستير، ١٤٢٨هـ، كلية التربية، جامعة أم القرى

.علي بن عوض الغامدي : أساليب التربية العلاجية لأخطاء الطفل في السنة النبوية وتطبيقاتها، رسالة ماجستير، ١٤٣٠ هـ، كلية التربية، جامعة أم القرى.

علي حسين فهد : المفاهيم التربوية عن الإمام فخر الدين الرازي من خلال كتابه التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، رسالة ماجستير، ١٤١١هـ / ١٤١٢هـ، كلية التربية، جامعة أم القرى .

فوزية شحادة أحمد البراوي : الإعجاز التربوي في القرآن الكريم في طرق التدريس، رسالة ماجستير، ٢٠٠٩م، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة .

محمد بن سعد بن عبد الله القرني : الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، رسالة ماجستير، ١٤٢٧هـ، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة .

محمد حسين : التنظير المقاصدي عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، رسالة دكتوراه، ٢٠٠٣م، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.

محمد عبد المحسن عبد الكريم : حقيقة الوجود البشري وانعكاساتها التربوية في ظل قصة خلق آدم عليه السلام في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، ١٤٢٦هـ، كلية التربية، جامعة أم القرى .

محمد علي العطار : الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير، رسالة دكتوراه، ١٩٩١م، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر .
مروة عدنان الجدي : أثر توظيف بعض استراتيجيات التعلم النشط في تدريس العلوم على تنمية المهارات الحياتية لدى طلبة الصف الرابع في محافظة غزة، رسالة ماجستير، ٢٠١٢م، كلية التربية، جامعة الأزهر، غزة .
مشرف بن أحمد جمعان الزهراني : أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، رسالة دكتوراه، ١٤٢٧هـ، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى .
هاله فائق عوض حمدية : الإصلاح الاجتماعي في تفسير التحرير والتنوير، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، ٢٠٠٩م، كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت، الأردن .

رابعا : المجلات العلمية

١- إبراهيم محمد زين : قراءات ومراجعات في مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ ابن عاشور بتحقيق محمد الطاهر الميساوي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السادسة، العدد الثالث والعشرون، ١٤٢١هـ ،٢٠٠٠م.

٢- أحمد عيساوي : العلامة المجدد والداعية المصلح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وأثره في الحفاظ على التراث العربي والإسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، تصدر عن قسم الدراسات بمركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، العدد الثالث، ٢٠٠٣ م .

٣- رضوان جمال الأطرش، نشوان عبده خالد قائد : الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي في القرآن الكريم، مجلة الإسلام في آسيا، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الخاص الأول، مارس ٢٠١١م.

٤- زكي الميلاد : تطورات الفكر الإسلامي ومساراته المعاصرة، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد ٢٧، ٢٠١١م .

٥- سامر عبد الرحمن رشواني : الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور، مجلة إسلامية المعرفة ‹ بحوث ودراسات ›، يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السادسة، العدد ٢٣، ٢٠٠٠م.

٦- عبد البديع الخولي : العلم في الإسلام، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد ٢٣، ١٩٩٢م.

٧- علي أسعد: مقاصد قرآنية يناط بها التمكين الأسري، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية،المجلد ٢٦،العدد الثاني، ٢٠١٠م

٨- علي خليل أبو العينين : منهجية البحث في التربية الإسلامية، رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، العدد ٢٤، السنة الثامنة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.

٩ الفكر التربوي الإسلامي، مصادره، معطياته، حركته، رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، العدد ١٧، السنة السادسة، ١٩٨٦م .

١٠- عمار الطالبي : مقاصد الشريعة في المجتمع الإسلامي، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، الجزائر، المجلد ٣، العدد ٩، ٢٠٠٦م، ص ص : ١١٩ – ١٢٨ .

١١- محمد الحبيب ابن الخوجة : في الراحلين الخالدين، مجلة الكلية الزيتونية، تونس، السنة الثانية والثالثة، العدد ٢، ٣، ١٩٧٤م، ١٩٧٥م .

١٢- محمد الخضر حسين : شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس، مجلة الهداية الإسلامية، القاهرة، عدد شوال ١٣٥١ هـ .

١٣- محمد المختار المهدي : حقوق الإنسان في شريعة الإسلام، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية،جمادى الأخرة ١٤٣٣هـ، مايو ٢٠١٢م، ج٦، السنة ٨٥ .

١٤- محمد صلاح المستاوي : القيمة العلمية لتفسير الإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مجلة البلاغ، العدد ٧٤، ١٩٨٤م .

١٥- محمد مسعود جبران : منهج محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية بليبيا، العدد الخـــامس،١٣٩٧هـ/ ١٩٨٨م .

خامسا : المؤتمرات العلمية :-

أحمد المهدي عبد الحليم : الإصلاح التربوي في ضوء الرؤية الكلية الإسلامية، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، بعنوان ' الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية'، من ١٣ -١٤، أبريل ٢٠٠٨م .

الطيب الغزي: قراءة في الفكر الإصلاحي للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور،تونس،مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٢ مارس ٢٠٠٧م.

بدران بن لحسن : ابن عاشور وإعادة الاعتبار للقول الكلي في الفكر الإسلامي، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، رؤية معرفية ومنهجيه، تحرير : فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١١م.

خالد الطرودي : المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تحرير : فتحي حسن ملكاوي، ط١، ٢٠١١م .

سعيد إبراهيم طعيمة : الرؤية الكلية في الإسلام وانعكاساتها على التربية الإسلامية في ضوء تحديات العصر، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، بعنوان ‹ الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية ›، من ١٣ -١٤، أبريل ٢٠٠٨م.

سعيد إسماعيل علي : موقع المسألة التعليمية في مدرسة المنار، ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي الحديث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومركز الدراسات المعرفية، ٨ - ٩ أكتوبر ٢٠٠٢م، القاهرة .

سليمان الشواشي : موقع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في الفكر الإصلاحي، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تحرير : فتحي حسن ملكاوي، ط١، ٢٠١١م.

عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب : الإصلاح الفكري بين مدرسة المنار ومدرسة إسلامية المعرفة، ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي الحديث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومركز الدراسات المعرفية، ٨ - ٩ أكتوبر ٢٠٠٢م، القاهرة .

عبد الرزاق الحمامي : العلامات التنويرية في تفكير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ندوة تنويرية عن علماء الزيتونة في النصف الأول من القرن العشرين،

جريدة الشرق الأوسط، آفاق إسلامية، الثلاثاء، ٨ جمادي الأول ١٤٢٩هـ، ١٣ مايو ٢٠٠٨م، العدد ١٠٧٥٩ .

علي جمعه الرواحنة : المكافحة المنهجية عند ابن عاشور لفساد المجتمع ومجالات الإصلاح والتجديد، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تحرير : فتحي حسن ملكاوي، ط١، ٢٠١١م .

عمار جيدل : تقويم تدريس علوم الشريعة الإسلامية، دراسة في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تحرير : فتحي حسن ملكاوي، ط١، ٢٠١١م .

محمد إبراهيم عبد الرحمن : مدرسة المنار التفسيرية ملامحها – آثارها – نقدها، ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الإصلاح الإسلامي الحديث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومركز الدراسات المعرفية، ٨ - ٩ أكتوبر ٢٠٠٢م، القاهرة .

محمد همام : نقد مقصد الحرية في فكر محمد الطاهر ابن عاشور، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، رؤية منهجية معرفية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تحرير : فتحي حسن ملكاوي، ط١، ٢٠١١م .

محمد وجيه الصاوي : الرؤية الكلية الإسلامية للحوار مع الآخر، المؤتمر العلمي لقسم أصول التربية كلية التربية جامعة الزقازيق بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، بعنوان ' الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية '، من يوم ١٣ -١٤، أبريل ٢٠٠٨م .

سادسا : المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت:

نظمي خليل أبو العطا : من طرائق التعليم والتعلم في القرآن الكريم والسنة المطهرة، متاح بتاريخ ٢٣/ ٢ / ٢٠٠٧م على :

http://www.nazme.net/ar/index

نشوان عبده خالد : ابن عاشور ومنهجه في تفسير التحرير والتنوير، متاح على موقع الوفاق الإنمائي للدراسات والبحوث :

www.wefaq dev.net

هيفاء بنت عثمان فدا : منهج ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، متاح على موقع جامعة أم القرى : http://uqu.edu.sa/page/ar/

السيرة الذاتية للمؤلف



الاســــــــــــم / محمد حامد محمد عماره

<u>المؤهلات الدراسية والعلمية :</u>

١-ليسانس في الآداب والتربية - شعبة اللغة العربية ١٩٩٨م.

٢-الدبلوم المهنية في التربية .

٣-الدبلوم الخاص في التربية .

٤-درجة الماجستير في التربية .

<u>الأبحاث :</u>

بحث بعنوان " الإعجاز التربوي في القرآن الكــريم والســنة النبويــة المطهرة " مقدم إلى لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكــريم والســنة النبوية بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .